

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والقطايب

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٥)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الثامن عشر

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي
شامة

الجزء الثاني

فصل

في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

قال ابن شدّاد : كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله، وفوّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرت القواعد، واستتبّت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا، فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّاً، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته، ولقد سمعت منه رحمه الله يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي، وحين استتب له الأمر : مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما. وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنه مقوّم مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوّف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويغدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً، ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر، وولاية الوزارة منهم: الأمير عين الدولة الباروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره الحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويؤليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه، ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج، ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها، إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والحمامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، ومملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، فلا يصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له، ثم عدل إلى قطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الباروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من

الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعد وزاد في اقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً، وعدل إلى عين الدولة الياروقي وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم تنفعه رقاؤه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) (١٠٧) وثبتت قدم صلاح الدين، ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه ولا يفرد في كتاب بل يكتب الأمير الأسفهلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيئاً يخرج به فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته، فلم يجبه إلى ذلك وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك، وأنت قاعد، فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضر كحيث وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، وقائم فيها مقامي، وتخدمه بنفسك، كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدد، قال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لا ينتظم، والخلل لا يلتئم فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعده، وعقدوا لصالح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتليته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأنض رسوم المزاين، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته وأنارت على منار العلى أناة آياته، ورأى أولياءه تحت الويته وراياته، وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبيهم كأنهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفعا، وما أفاده إلا تأصلا في السماح وتفرعا، وضم من أمر المملكة ما كان منشورا، وكتب له العاضد وصاحب القصر منشورا، وهو بالمثل الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال، والعذب الزلال، ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه. وجرى القلم فيه بما خط له القلم في الأزل من وصف جهاده وسلمه ففي ذلك المنشور: «الجهاد أنت رضى حرسنا» حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحرا من الظبا، وأحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحب، وأسل الوهاد بدم العدى، وأرفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذكورا لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»، وفي طرته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوه، ولن تبقى من تبعته بنا أعظم سلوة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في

الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)» (١٠٨) يعني بمن مضى أسد
الدين وبمن بقي صلاح الدين

ثم قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت،
وتبددت عقودها، وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى
الشام، بما تسنى له من المرام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن
تأخر عنه بالخلع والعطاء، وترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق
وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش، وبرح القلوب العطاش، فإن
أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا حصلوا بين أمة لا يعرفونها،
بل ينكرونها ولا يألّفونها، ورأوا وجوها هناك بهم عابسة، وأعيننا للمكائد
متيقظة، وعن الودّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى
عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوله :
أيها الغائبون عني وإن كنتم
ستم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذلقتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه فقلت:
أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لا يفارق الأظعاننا
ملكوا مصر مثل قلبي وفيهم
لذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلوافيهما فأنكم اليو
م ملكتم عليهما سلطانا
لاترعوأبالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقة اننا

ما الناس إلا كالغصون يد الردى
تقرب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رسل المنايا واسمعت
ولكنها لم تحظ منا بناصت

ومنها
فلهفسي على تلك الشمائل إنها
لقد كرمت في الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده ناصر الدين
محمدًا يقول:

ما بعد يومك للمعنى المذنب
غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجزأ الحدثان كيف سطاعلى
أسد المخوف سطا ولم يتخوف
من ذراعى الأسد الهصور فرسة
أم أبصر الصبح المنير وقد خفي
من ثابت دون الكرامة سواء إن
زلت بهم أقدامهم في الموقف
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر
ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف
أيام عمرك لم تسزل مقسومة
لله بين تعبٍ ودوٍ وعرف
متهجج العباد أو تاليلها
من آية أو ناظر أفي مصحف
فجع الندى والبأس منك بحاتم
وبحيدر والحلم منك بأحنف
بالمك فزت وحزته عن قدرة
ومضيت عنه بسيرة المتعفف

- ٧٩٥٢ -

ووصفت يا أسد الدين محمد
مدحاً يا ملك به لم يوصف
وقفوت أثار الشريعة كلها
وقد اهتدى من للشريعة يقتضي
أنفت من دنياك حين عرفتها
فلويت وجهه العارف المتكف

ومنها :

يا ناصر الدين استعذب بتصبر
مدن إلى مرضاة رب مزلف
وتعز نجم الدين عنه مهتلاً
أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لأنستطيع سوى الدعاء فكلنا
إلا بما في الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمن في صلاح الدين مدائح منها قوله:
لك الحسب الباقي على عقب الدهر
بل الشرف الراقى إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت
بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة
أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتهم عن الإقليم غمّه كما
كشفتهم بأنوار الغنى ظلمه الفقر
حميتهم من الأفرنج سرب خلافة
جرىتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم
ودائرة الأنصار أضيّق من شبر

جلبتهم إليه النصر أوسا وخزرجا
وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في جيرون منها أواخر
وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعتهم فاطلعتهم كواكب نصره
أضواء وكان الدين ليلاً بلا فجر
وأبت إليكم يا ابن أيوب دولة
تراسلكم في كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزيمة أسديّة
فككتهم بها الإسلام من ريقه الأسر
أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لا يدي الخيل: مري على مري
لئن نصبوا في البر جسر أفانكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى
ففزتم بها والصخر تقعر بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه
كما لم يهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها
بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى
ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم
وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفاً له فاستفزه
بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده
ولا كنور البدر من سنة البدر

توقره وسط الندي كرامة
وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
وتخلفه حربا وسلما خلافة
تؤلف أضداداً من الماء والجمر
وكم قمت في بأس وجود ورتبة
ببأسه في الخطب والدست والثغر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم
لنعمتكم بالمستحق من الشكر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها
لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
بكم أمن الرحمن أعظم يشرب
وأمن أركان الثنية والحجر
ولو رجعت مصر إلى الكفر لا تطوى
بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتكم أزره بوزارة
غدا لفظها يشتق من شدة الأزر
فهنيتم فتحاً تقدّم جلّه
وبشر أن الكل يتلو على الإثر
وما بقيت في الشرك إلا بقية
تتمتها في ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك أتى مهتماً
وملتمساً أجر الكهانة والزجر
ولو لا اعتقادي أن مدحك قريبة
أرجي بهانييل المثوبة والأجر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري
ولي سنوات منلتبت عن الشعر
فأوص بي الأيام خيراً فإنها
مصرفة بالنهي منك وبالأمير

- ٧٩٥٥ -

وجائزني تسهيل أذني عليكم
وملقاكم لي بالطلاقة والبشر

وقال أيضا من قصيدة :
يا شبيه الصديق عدلا وحسنا
وسميا حكاة معنى ومغنى
هذه مصر يوسف حل فيها
يوسف مالكا وما حل سجننا
أنت حرمت أن يثلث فيها
بسوى الله وحده أو يثنى
إنما الملك والوزارة جسم
أنت روح فيه وفي اللفظ معنى

وقال أيضا من قصيدة:
ملك صلاح الدين لا قوضت
أطنا به ملك البقا والصلاح
سيرة عدل حسنت عندنا
ما كان من وجه الليالي القباح
سافر في الدنيا وأقطارها
ذكر غدا عنه جميعا وراح
قل لابن أيوب وكم ناصح
أنفع ممن هو شاكي السلاح
حارب على مثل نجوم السماء
فملك مصر ما عليه إصطلاح
قولا لمن في عزمه فترة
أرجع إلى الجدّ واخل المزاح
فالقدس قد أذن اغلاقه
على يدي يوسف بالانفتاح

وقال أيضا من قصيدة:
ونبت بمصر عن سميك يوسف
كما ناب عن سكب الحياء واكف سكب
حدوت على سجلي نداء وهديه
وإن كنت لأسجن حواء ولا جب
ووافقت في الصفح عن كل مذنب
فما منك تشريب وإن عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة:
أبو المظفر ماوى كل مضطهد
بحكمه وندها يضرب المثل
مهما يمل جائر أو عاث عمه
فعند عدل صلاح الدين يعتدل
أحيى به الله مصر أفهى ناضرة
وافتكها من عدو ما به قبل
كم للفرننج بها ورد ومتجعا
ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل
ملك تقلد سلك الملك متظما
وقال للمال هذا منك لي بدل
ففرق المال جمع للقلوب به
وحسبه فيهم ادراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتد أمرهم
لم يخزنوا المال بل مهما حووا بدلو
كذا السياسة فالأجناد لو علموا
بخل المليك وجاءت شدة خذلو

فصل

وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور، وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي الحلبي في السيرة الصلاحية، فأحببت ذكره مختصراً:

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمه العاضد عليه، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له: لاتزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال إنه أنشد أبياتا منها:
فإذا تبذل عكدا
لاتأمن من شاور السعدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعدل، ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمه العاضد فحدثها واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه، بعزل شاور، فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب، وبلغ شاورا فجاهر بالعصيان، وجمع العربان، وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عند أطفيح، وثم بيوت عرب فقبضوا عليه، وحمل إلى شاور، وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة، وتم أمره، ولما حصل رزيك عند شاوراً أكرمه وطلب الذي أتى به، ونادى عليه، هذا جزاء من لا يرعى الجميل، وكان للصالح إليه إحسان، وتفارق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال، وصار إلى حماه، فأقام بها واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار، فوفوا له

وردّوها عليه، ثم أراد تقّي الدين أخذها منه، فقال : من العجب أن الفرنجي يفي لي برّدّها، وتأخذها أنت مني، فكف عنه.

قال: وتمكن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طي والكامل وسليمان فتبسطوا على الناس وتعاضموا فمجّتهم الأنفس، وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذوا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطي بن شاور، فدخل على أبيه، وقال له: أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رزيك، واستحلفا له جماعة من الأمراء ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيك، فقال له شاور: إن الصالح أولاني جميلاً وبسببه حللت هذا المحل، فتركه ولده طي ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته، ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلها، وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم، وحفظ له جميلاً، كان قد فعله معه، واستقر أمر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكتبوا شاوراً، وكان صار إلى الشام، فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعاً ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال إنه جعلهم في توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء، وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحقّقه قتل ولديه، ولما وصل إلى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلقيه،

وأنزله في جوسق الميدان الأخضر وأحسن ضيافته وإكرامه، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعدارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدم وما حاجته، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه، ويقوم بأربابه وأوده، وتكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته: فخرج الجماعة إليه بالرسالة، فشكر احسان نور الدين، وسكت عما وراء ذلك، فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً، فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت أيضاً وأطال ثم قال: إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فعرفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقى في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر، وأما ضرغام فإنه حين استقر به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس، يظهر فيه الطاعة، ويعرض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهمز علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون

نقيبته لأنه لم يرسله في أمر إلا نجح، ولم يولجه في مضيق إلا انفتح، ولما حضر أسد الدين إلى دمشق، خلا به نور الدين وتحديث معه بأشياء في أمر مصر، وأمره بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه، وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر ورغبه في ملكها وأنه إذا ملكها كان من قبله فيها، ولما بلغ شاورا استتباب أمر العسكر سأل عن المقدم عليه، فقيل له أسد الدين شيركوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظن أن التقدم تكون له، فلما زوحم بهذا القود سقط في يده وفت في عضده، ولم يجد بداً من المسير فخرج واجتمع بأسد الدين، وسارا جميعا حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية، ونزلوا على تل في الخوف قريب من بليس يعرف بتل بسطة وضربوا خيامهم هناك، ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهو على يومين من القاهرة، فإنهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولما كان قلة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من إيلة مسيرة ثلاثة أيام، فلم يروا ذلك، واختاروا أن يلقوهم على بليس، فأمر ضرغام الأمراء بالخروج فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاؤوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر، وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات، وسدوا منافذ الطرقات قال لشاور: ما هذا لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت إنه ليس بمصر عساكر، فجئنا في هذه الشزيمة، فقال له شاور: لا يهولنك ما تشاهد من كثرة الجموع فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل، وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس، وكلبت الحرب، وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد والركوب، ففعل ونهاهم شاور عن القتال،

ووقف الفريقان مصطفىين من غير حرب إلى أن حمى النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزماً، وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا، وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقتلوا أياماً، وراسل شاور العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وكان ضرغام صار إلى تحت القصر، وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زويلة، والعامه تلعه وتصبح عليه فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مناك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً وأراد قتله، فشفع فيه شاور، ودخل شاور القاهرة وقتل ملهها أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله وفي دعتي، فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقبياً عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الثاني لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً مما تقول أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى

الشام، وقد سیرت إلیکم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا انفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين : أنا لايمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضاً، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلیس لجمع الغلال والأتبان والأحطاب، وما تدعو الحاجة إلیه، ویكون جميع ذلك في بلیس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الفرنج مري يستنجده ویقول له إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها ومتى ملکوها مضافة إلى بلاد الشام لم یکن لك معهم عیش ولا قرار، وضمن له في كل مرحلة یرحلها إلى دیار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاستباريته، فخرج مريّ من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلیس، وانضاف إلیه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خیم على بلیس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين یباکر الحرب ویراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر، وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسیر الفرنج إلى دیار مصر وغدر شاور، فكاتب الأطراف بقدم العساكر، فقدم علیه عساكر الشرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الداية، وكان نائب نور الدين بحلب إلى جهة حارم، ونزل على أرتاح، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه على حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه، فخرج إلیه الفرنج الأخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم یتماسك الناس، وساروا على وجوههم وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره

على أرتاح، وكان أخوه نصره الدين مع الفرنج ، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتناسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قرب منه نزل وقبل الأرض بين يديه، فلم يلتفت إليه، فتم على وجهه، واصطف الناس للحرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل، والخيول قد اطبقت عليهم فنزلوا عن الخيول وألقوا اسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي، وسار إلى حارم ففتحها، وأراد النزول على أنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين، فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس فافتتحها، وأغار على بلد طبرية وجمع أعلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة، وسلمها إلى نجاب وقال له: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلييس وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بلييس، فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار، ويدخل الوهن عليهم، ففعل ذلك ، فلما رأى الفرنج الأعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم، وسألوا شاور الإذن في الانفصال، فانزعج شاور لذلك وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التمهل أياماً، وجمع أمراءه للمشورة، فاشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل له اتمام الصلح الأمير شمس الخلافة، فأنفذه إليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين وهو محصور ببلييس يقول له: أعلم أنني أبقيت عليك ولم أتمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أي ما اختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفرنج عليهم، والثاني أي خفت أن الفرنج إذا فتحوا ببلييس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأننا فتحناها بسيوفنا، وما من يوم كان يمضي إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بليس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك تأول ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفت أني ما ألحق أسد الدين، ولا عسكره في البر، وأنا أريد أن ألحقه في البحر، وصار في يوم واحد إلى عسقلان وخرج منها إلى الكرك والشوبك، وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقبا خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين، فسلك طريقاً من خلف المكان الذي كان فيه أرناط، شق إلى الغور وخرج من البلقاء، وسلمه الله تعالى منه، ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوّقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد، واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له همة إلا تتبع من علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صهبة، وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشتين الكردي وأقطعه شطنوف، وقتل شاور جماعة من أهل مصر، وشرّد آخرين.

ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً للديار المصرية، وكتب أخباره فما راع شاوراً إلا ورود كتاب مري ملك الفرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر، فطلب شاور منه إعادة النجدة، والمقرّر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي، فسار مري في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً في البر فسبقه الفرنج، ونزلوا على ظاهر بليس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين، وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بليس،

فنكب عن طريقهم، وأم الجبل، وخرج على أطفيح وهي في الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره فسار في عساكره والفرنج في صحبتته يقفون أثره، واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها وعدى إلى البر الغربي، ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته فأوقع بهم، وأحضر شاور أيضا مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجزيرة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفرين والطلحيين والقرشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور بقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقوم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً ولا أتمكن أحداً من التعرض إليها ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أوصل منك إلا نصر الاسلام فقط، وهو أن هذا العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسر، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد نائرتة، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً، فلما صار الرسول إلى شاور وأدى الرسالة أمر به فقتل، وقال: ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج، ثم أعلم الفرنج بما أرسل إليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدد لهم أيماناً وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنه الله لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج، ونزل شاور في اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجزيرة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم،

فقاموا معه، وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الشريف الإدريسي نزيل حلب قال: كنت بالاسكندرية يومئذ، فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين وقال لي: قل له: إني أخبرك أن السلاح واصل إليك، وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتها بيومين وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتب وشافهته برسالة ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف.

قال: وبقينا على الجيزة يومين فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله وسار سيرا حثيثاً حتى قارب دلجة، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت، ونزل الناس لتعشية الدواب، فلم تستم عليهما، حتى أمر أسد الدين بالرحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا فإذا الجاوش ينادي في الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأشمونين، وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة، فأصبحوا على ذلك والتقوا فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا، وكان أسد الدين قد فرّق أصحابه فريقين: فريقاً معه، وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور فدخل الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتمادوا وعلموا أنه لا منجى لهم إلا الصبر فتحالفوا على الموت وحلوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فقلت عساكر الأفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مري ملك الأفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم إلى الاسكندرية، فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزبير متولياً ديوانها فحمل إلى أسد الدين

الأموال وقبّاه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه ، فربما تأذى بالحصار فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية، وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد، ونزل الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال، وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم، وقتل منهم جماعة عظيمة ولما صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالاً عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان، واتصل به اشتداد الأمر على الاسكندرية ، فرحل من قوص إلى جهتها واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد، وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج واضطر إلى الصلح، وضجرت الفرنج أيضاً، فتوسط ملك الفرنج في ذلك فتقرر أمر الصلح على أن شاورا يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفرة، ثم يعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده، وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدّة مراكب.

قال الادريسي: كنت في جملة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى مينا عكا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مرّي، فأطلقنا فخرجنا إلى دمشق، وخرج صلاح الدين من الاسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بأن لا يتعرض لهم بسوء، واجتمع بعمه أسد الدين، ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم وتبع أهل الاسكندرية، واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاوراً نقض الأيمان، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا فقال: ليس له ذلك وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الإيوان جرت على أن لا يتعرض لأحد من أهل مصر ولا الاسكندرية، وألزمه يميناً أخرى في أن لا يتعرض لأحد ممن لجأ إلى

أسد الدين أو صلاح الدين، ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرحيل إلى الشام، واتصل ذلك بشاور فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى إيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل، وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مرّي وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك أن لا يدخل إليهم ولا يتعرض لهم، فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه فلم يجد بداً من اليمين، فحلف وحلف أصحابه.

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوي منها لأنه شاهدها، وشاهد مغلاتها، فوجدها أمراً عظيماً، فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها.

وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني غير واحد أن شاوراً كاتب نور الدين في ذلك وضمن له أن يحمل في كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة، ولما بلغ شاور أن نور الدين صرف همه أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولاً بهدية سنوية وأصبحه كتاباً حسناً أوله: «ورد كتاب استدعى شكري وحمدي واستخلص من الصفاء ما عندي واستفرغ في الثناء على مرسله جهدي، فكأنما استملت معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي، وسررت للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهر على الدين كله، بأن يكون مثله ملكاً من ملوكه يرجع إليه في عقده وحله، وتشير الأصابع، وتعقد الخناصر على علو محله، والله يزيده بمكانه تثبيتاً وقوة، ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوة، فما أسعد رأساً دل على نصرة الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة، ووفر

على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة، وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني وباق منه على ما نقل عني لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه، ولا استكثر كثيراً أصل إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولاً وفعلًا ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وظلاً، وأنعم لا تزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتُملى، ولعمري لقد علا بناؤها فخراً، وارتفع على الأملاك قدراً وذكرًا، وجب أن يستمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويحوطها فلا تطرق إلى جوانبها الغير، ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحه يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر، وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاستبارية وتشاوروا فجرت بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته، وفرق قراها على أجناده، وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها، ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه يقال له بدران وسيره إلى لقاء مري يسأله عن السبب في قصده، فاجتمع به وسأله فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه وضمن له رضىخة على أن يورثي عنهم ولا يكشف لشاور حالهم، ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة ويعلم شاور أنه إنما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما

سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشني ولم ينصحنني، وأنا فوائق بك فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مري، وكان بينهما مؤالفة، فلما دخل على الملك قال له: مرحبا بشمس الخلافة، فقال: مرحبا بالملك الغدار، وإلا مالذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى زوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا: هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد، فقال له الملك: الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرجنا لتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة فأبي شيء قد طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور أبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم، كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدت الخدمة على ما قررت له من العطاء، في كل عام، فأجابه شاور إن الذي قررت لك إنما جعلته متى احتجت إليك، أو إذا قدم علي عدو، فأمامع خلوي بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك، ولا لك عندي مقرر، فأجابه مري أن لا بد من حضوري وأخذي المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد، فأخذ في تجنيد الأجناد، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وميرة وعدة، ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لایلوي على قول حتى خيم على بلبيس في صفرو، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس، وابن الخياط يحمي، وابن قرجلة، وأرسل إلى طي بن شاور، وكان بلبيس وقال له: أين ننزل؟ قال: على

أسنة الرماح، وقال له: أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها، فأرسل إليه مري نعم هي جبنة، والقاهرة زبدة، ثم قاتل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخرب أكثرها، وأحرق جل أدورها ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد وحمل في وسطهم برعهم، ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقة قد أطلقتم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك، ووقف إلى أن عدّى أكثرهم النيل إلى جهة مينة حمل، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقسموهم، وبقي أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرتة على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه، ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً أشفق من ذلك وطلب الأذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى، وتطلب نصرته ومعونته، فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طي تلك الكتب كتباً وسخماً أعاليها بالمداد.

قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأى أبي شمس الخلافة لأنه لما رجع من عند مري لعنه الله بعد أخذ بلبيس واجتمع بالكامل بن شاور، وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له، قال له: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين

فليس لهذا الأمر غيره، فقصدته الكامل، وكتب الكتاب، فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصله، ورسالة سرية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور باحراق مصر، وانذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت، وأحرقت مصر من تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، ثم إن الفرنج لعنهم الله نزلوا في بركة الحبش، وانبتت خيولهم في الأطراف، وتحطفوا من ظفروا به، فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مري لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر، وقال له: أترى دخاناً في السماء، قال: نعم قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نפט وقرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي وكوني كلما قلت لك أنزل في مكان تقدّمت إلى غيره ما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة، فقال: هو كما تقول ولا بدّ من نزولي القاهرة، ومعني فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها، ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام البرج تقع في خيمته، فقاتلوا البلد أياماً، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة إلى أن تصل عساكر الشام، فأنفذ شمس الخلافة إلى مري لعنه الله تعالى برسالة طويلة فتل بها في غاربه ودار من حواليه، وفي ضمنها أن هذا بلد عظيم، وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البتة، ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة،

والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً، فاستقرت المصانعة على أربع مائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار يعجل له منها مائة ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك، وانعقدت الهدنة، وحلف مري ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار، في عدة دفعات سوف فيها الأوقات، ثم أخذ يطله بالباقي انتظاراً لقدم العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال، فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهم فلما رأوهم رحلوا إلى بلييس، ونزل أسد الدين بالمقسم، ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس، وأتبعه أسد الدين ونزل على بلييس، وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صدر أنفد شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال، فصار إليه واجتمع به وقال: قد قل علينا المال، فقال ملك الفرنج اطلب ماشئت قال: انتهى أن تهب لي النصف؟ قال: قد فعلت، فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً في مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنا، فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عاقل، وإن شاوراً ملك وإنكما ماسألتماي أن أهبكما هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث، فقال له: صدقت هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصره لنا، وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار، فقال ملك الفرنج: أنا راض بذلك. وإن بقي علي شيء حملته إليكم، وعول على الرحيل، فقال له: بعد أن تطلق طي بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلييس بعد انصرافك شيئاً، فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق

وأخرج اليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعوا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم؟ فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البرّ الغربي، وليس لهم وزر، وأما الآن فلا لأنهم على البرّ المتصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البرّ في أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه، ثم إنه خرج إليه في الليل سرا متكرراً واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره، وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة، فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه فقبل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية، وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة، وأحسن إليهم وأما شاور فإنه أخذ في التودد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه ونوى تبقيته في ملكه، وصفا له قلبه، حتى أنفذ إليه سراً أحرس نفسك من عساكر الشام.

وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر، وكثرة خيرها، وسعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سكنها ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها، ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها، فأخذ في أعمال الحيلة عليه، وكان العاضد قد تقدّم إليه بقتله فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور،

وقال لهم: قد علمتم رغبتى في هذه البلاد، وعجبتى لها وحرصى عليها لاسيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمت أنهم كشفوا عورتها، وعلموا مسالك رقعتها، وتيقن أنى متى خرجت منها عادوا إليها واحتلوا عليها وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت ما لهم، وقد قوى عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ويغرنا ويغرهم، ويضرب بيننا وبينهم، وقد ضيع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوى بها الفرنج علينا، وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبهم، إلى هذه البلاد التي قد قل رجالها، وهلك أبطالها، فتجلت الآراء بين الأمراء أنه لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور، وتفرقوا على ايقاع القبض به، وكان شاور يركب في الأبهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعدة الحسنة، والآلة الجميلة على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حمل في موكب الطبل والبوق، وكان شاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصدونه، ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاوراً دخل إليه إلى داره، وناوله سيفه وعمامته، فتأوله أسد الدين بالقبض عليه، وأخذ منصبه، ثم إن شاور ركب يوماً في أهته وجلالته فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين، فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في موكب، ثم سايره، ثم مد يده إلى تلايبه، وصاح عليه فرجله، ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين، وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه إلى القصر، وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر.

وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة، وأنفذ إليه طبق فضة

فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد أخوته، ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين، أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحساناً لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عدة أشعار، غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاضد واستبد بالأمر في ذلك الصقع أمضه ذلك وأقلقه، وظهرت في غايل قسماته وفلتات كلماته الكراهية، وأخذ في الفكرة في أمره وسهر له ليالي وأفضى بصره إلى مجد الدين بن الداية.

حدثني جماعة عن شمس الدين علي بن الداية أخي مجد الدين وحدثني الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي، وقد جرى ذكر فتح مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، لقد كان وده أن لا يفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه، ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه، ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له لاسيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى قضى عليه الهم، ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً وعليه فضله محسوباً لما صبر على ما جرى ولا أغضى الملك العادل على القذى، ولقد كاتب العاضد عدة دفعات في أمر الأسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بانفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال، فمن بعض مكاتباته: « ولقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكره يمن نقيبته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين

الضلال بشهابه الثاقب، ويصمي مقل الشرك بسهمه النافذ الصائب».

قلت : لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاخذ، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب، هذا إن صح ما نقله ابن أبي طيّ والله أعلم.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه ، وفنيت أعوامه، وكان قرماً يحب أكل اللحم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التخم، واتصلت به مرضاته إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق، كان فيها تلافه، ويقال إنه أكل في ذلك اليوم مضيرة، ودخل الحمام فلما خرج منها أصابه الخناق، قال: وكان شجاعاً بارعاً قوياً جلدأ في ذاته شديداً على الكفار، وطأته عظيمة، في ذات الله صولته عفيفاً ديناً كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار حذباً على أهله وأقاربه، وكان فيه امسك، وخلف مالا كثيراً، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الأسدية، وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على إقطاع مبلغه تسعمائة دينار، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية، وعقد له العزاء، بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تنسب المدرسة الأسدية بالشرف القبلي ظاهر دمشق، وهي المطة على الميدان الأخضر، وهي موقفة على الطائفتين الحنفية والشافعية والخانقاة الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن أبي طيّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين، وفي تلك الساعة

أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر، وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها وحصل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته، وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد، بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكله، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف، فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي بطرز ذهب، وثوب ديبقي بطرازي ذهب، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان ديبقي بطرازي دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق تحت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشددة بيضاء، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهر، وفي رأسها مشددة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدة بقج، وعدة من الخيل، وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وقرئ المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوما عظيماً، وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعهم بالهبات والصلوات، ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشرعية والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة

بددها، وجرى في مناهج العدل على جددها، وحيعل إلى جوده وفضله،
ونادى إلى رفته وبذله، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر
قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان،
واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل وروى بسبح كرمه من بعد منه
وقرب من أهل الفضل، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ
للتدبير، وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع
المبين، وشمر عن ساق الجد والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه
وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهد، وورد عليه القصاد والزوار،
وأمر بنفائس الخطب وجواهر الأشعار.

حدثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر،
وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر
راكباً، فإذا حصل عند أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال إليه العاضد
وحكمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء
الشامية كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين، ثم إنهم
فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني جماعة من أصحاب نور الدين أن
نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد
انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه
وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري،
وكتب في ذلك عدة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم
يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين
من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه
حساب مصر، وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب.

قلت: هذا كله مما تقتضيه الطبائع البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصم الله ومن أنصف عذره ومن عرف صبره، والذي انكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده، بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن أبي طيّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين بما لا يليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل مشاعرهم، وقوى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقا في مواضع، لهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به، والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك الناصر مصر إنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله وأعطاه تل باشرة، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر، ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، حدثني أبي عن ابن قاضي الدهليز، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحم عليه ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدها عليّ، فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في

مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يصبر على مثلها لعلّي اتضرر أو
أتغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: قد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من
صلاح الدين رحمه الله، وذلك ضدّ ما قاله ابن أبي طي، كتب نور الدين
ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو
بحلب ليؤليه قضاء مصر صورته: «حسبي الله وكفى، وفق الله الشيخ
الإمام شرف الدين لطاعته، وختم له بخير، غير خاف على الشيخ ما أنا
عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى
الله، والله وليّ التوفيق، والمطلع على نيتي، وأنت تعلم نيتي كما قال عز
من قائل: (ومن عنده علم الكتاب) (١٠٩) أنت تعلم أن مصر اليوم
قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار
إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق فلله المنة والحمد ألا إن المقدّم على
كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر
واقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع وما تدخر الدموع إلا
للشدائد، وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك، والآن فقد تعين
عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت،
ولا أقدر أولى أمورها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب
عليك وفقك الله أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل
ما تعلم أنه يقربك إلى الله، وقد برئت ذمتي وأنت نجاب الله، فإذا
كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله فيطيب قلبي، وتبرأ ذمتي،
وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك
عندي، حتى أسيركم إلى مصر والسلام، بموافقة صاحبي واتفاق منه
صلاح الدين، وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً
وأبقاه ففي بقاء الصالحين والاختيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام،
الله تعالى يكثر من الاختيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى
الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدّة سنين متقدّمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين، وأنهى إليه ما يستمدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوّض عنه بعدّة ضياع، فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه، ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك بأشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه .

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق منها:
بملك مصر أهني مالك الأهم
فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعد لك شمل الملك ملتئم
وهل بعد لك شيء غير ملتئم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف
ومولى العرف عن خلق بلا سام
ورامقائلهم ثغر الكفر تعجمه
لالثم ثغر شتيت واضمح شميم

لله درك نور الدين من ملك
بالعزم مفتوح بالنصر مختم
أثار عزمك في الإسلام واضحة
وسره لك بباد غير مكتوم
بها من العدل والاحسان تنشره
تخاف ربك خوف المذنب الأثم
أوردت مصر خيول النصر عادية
ثنى الأئمة أقدا ما على اللجم
فأقبلت في سحاب من ذوابلها
وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب في قلب العدو بها
تمكن النار بالاحراق في الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب
واه وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعمور الطرق في طلب
العلياء مقتحات أصعب الفحم
وعاجلات من الأفرنج غلهم
والقيد في موضع الأطواق والخدم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت
من العدو بحد الصارم الخدم
أعانا الله في إطفاء جمر أذى
من شر شاوور في الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها
لأمن والعز والإقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة أنمحقت
وعاودت دولة الاحسان والكرم
ملوكها لك صاروا أعبدأ وغداً
بها عبيدك أملاكاً ذوي حرم

أنبت عنك بها قمر ما ينوب بها
في البأس عن عنتر في الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك
عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها
بكشف دولتها لهما على وضهم
فالنيل ملتطم جار على خجل
جار البحر نوال منك ملتطم
أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب
على البغاث وثوب الاجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما
في عقد عز من الاسلام منتظم
محمود الملك الغازي يسوسهما
بالفضل والعدل والافضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا
محمود الملك محمود بكل فم
فاشك مصر واظهر عز سبتها
كم تعتفي وإلى كم تشتكي وكم

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين رحمه الله
مانال شاؤك في المعالي سنجر
كلا ولا كسرى ولا اسكندر
ياخير من ركب الجياد وخاض في
لجج المنايا والاسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر وصار من
اتباعه من جده المستنصر

والمستضى بالله معتد به
ويجده ويحده مستظهم
أوسد بالشام الثغور محاميا
للدين حتى عاد عنها قيصر
بيكي فيروي الأرض بحرد موعه
والجو من أنفاسه يتسعر
أوما أبوك بسيفه فتح الرها
والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كما تها
فتفاعدوا عن قصدها وتأخروا
ماضيه طي المنية ذاته
وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزينة
لوقائع مشهورة لاتنكر
وإذا عددنا لأنام مناقبها
فعليك قبل الكل ينشئ الخنصر
في الرأي قيس في الساحة حاتم
في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها
وسواك في أماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من
أسد الثرى منه تخاف وتحذر

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا للجماعة من الأعيان
وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:
يا صلاح الدين الذي أصلح الفاسد
سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا
م نوالا أم سال نيل ثاني

وعلى نيلها الكفيلك فضل
فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطياؤك الغر غزرا
فتلقت أم الناب التهان
خلع راقى العيون وراعت
وعلا وصفها عن الامكان
مذهبات كأنها خلج الرض
نوان قد أهديت لاهل الجنان
مشرقات بطرزها الذهبيا
ت الحسان الرفيعة الأثمان
فالعمامات كالغمامات والطمر
زبروق كثيرة اللمعان
والموالي بها من التيه والفخر
ر على الدهر صاحبو الأردن
كيف خص العباد بالأدون المخ
لق من عصبة الديوان
أخليق من نسجه لك في المد
ج جديد بأهمهن الخلقان
وكذا عادة الليالي تخص الـ
ففاضل المستحق بالحرمان
لم تزل سائرات جودك بالشـ
م لديه غزيرة التهتان
فإذا لم تـزده مصر كما لا
في المنى فاحمه من النقصان

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبدك شمس الدولة المرتجا
منتظر تشريفك المذهب

- ٧٩٨٧ -

فاعتب صلاح الدين لي حالتي
عساه بالاصلاح أن يعتبها
غرقه ماتم فإني أرى
من فضله للفضل أن يغضبها
وكيف يرضى ذلك بعض الرضى
ومجده بأبأه كل الأبا
وقل له جاءته ملبوسة
تخلفت من تبع في سبها
عمامة رقت ورثت فما
نشرتها إلا وطارت هبها

قال : فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة
التي قبلها ، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين كتاباً يقول فيه: استعير
لسانه في الاعتذار إلى العمامة فإني استقل لمرامه إرم ذات العمامة، فكتب
العمامة:

أما العمامة فقد تضاعف شكره
نعماك شكر الروض نعمى الصيب
لعمامة ذهبية كغمامة
يسدوها برق الطراز المغربي
ما كان أحسن حاله لو أنه
شفعت عمامته بثوب مذهب

قال وكتب إليه:

أهني الملك الناصر
صربا الملك وبالنصر
ومما همدم من بنيها
ن ديين الحق في مصر

ومأ أسداه من بر
بلاعده ولا حصر
ومأ أحياه من عدل
وما خفف من إصر
وأعلاء سنن السند
ة في بحبوحة القصر
قد استولى على مصر
بحق يوسف العصر
وأحياسنة الأحسا
ن في البسند وفي الحضرة

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة أولها يقول:
ديار الهوى حيا معاك القطر
وجادك جود الناصر الغدق الهمر
به رجعت في عنفوان شبابها
ونضرتها من بعد ما هربت مصر
وكم خاطب ردت له لم يك كفؤها
إلى أن أتاه خاطب سيفه المهر
مهاحمي الليث العرين وصانها
كما صان عينا من مسلم القذى شفر
وكان بها بحر أجاج فأصبحت
ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى:
فما أنت إلا الشمس لولاك لم تزل
على مصر ظلماء الضلالة سرمد
وكان بها طغيان فرعون لم يزل
كما كان لما أن طغى وتمردا
فبصرتهم بعد الغواية والعمى
وأرشدتهم تحت الضلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى
قل للملوك تزحزحوا عن ذروة الـ
علياء للملك الهمام الناصر
يعطي الألوف ويلتقيها باباسما
طلق المحيا في القنا المتشاجر

وقرأت في ديوان العرقلة : وقال في المولى الملك الناصر، وقد أنفذ له
من ديار مصر ذهباً ولغيره سلاماً:
صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبيت إلا حريصاً
أتى منك السلام لنا عموماً
وجودك جاءني وحدي خصوصاً
فكنت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصاً (١٢٠)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق ،
فلما صار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره
بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:
إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زمانا على الحر الكريم يجوز
تري أبصر الألف التي كنت واعدي
بها في يدي قبل الملمات تصير
وهيهات والأفرنج بيني وبينكم
سجاج قتييل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشام فقير (١١١)

وقال أيضاً:

قل للصّلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم
وما تنفي جنة الفردوس بالنار
فجدها عبيدات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغى أبو الطاري
حمر أكاسيفكم غبرا كخيالك
عتائقا لا كأعدائي وأطماري (١١٢)

يعني بالطاغى شاوراً وله ابن اسمه الطّاري، وأنفذ له من مصر
عشرين دينار فقال:
يا مالكا ما برحت كفه
تجود بالمال على كفى
أفلح بالعشرين من لم يزل في
رأس عشرين من الكهف
يا ألف مولاي ولكنها
محسوبة من جملة الألف (١١٣)

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر،
فأعطاه ذلك وأخذ له من أخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور محبوب،
وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، فمات بدمشق في سنة ست
أوسيع وستين وخمسة .

قلت: وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر، فإن فيه: وقال وكتبها على
حام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسة:
ياداخل الحام هنيها
دائرة كالفلك الدائر
تأمل الجنة قد زخرفت
وعمرت للملك الناصر

- ٧٩٩١ -

كانافيض أنابيهـا
نداه للوارد والصادر

فصل

في قتل المؤمن بالخرقانية ووقعه السودان بين القصرين وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص اقطاع المصريين، فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى بمؤمن الخلافة، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائهم فتكون عليهم الدائرة، فكاتبوا الفرنج واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فأنكرهما، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، ثم اعترف بما جناه وشيده من الأمر وبناءه، وأن الأمر به مؤتمن الخلافة وأنه بريء من هذه الآفة، فحسن لدى السلطان اسلامه، وثبت اعتصامه، وعرف استسلامه ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي وخشي أن يسبقه على شق العصا العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه غضب، وعنه غض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن ما نسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه، وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوماً للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ

رأسه ونزع من جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع، فورد موارده من رداه على أدون مشرع.

قال: ولما قتل غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه، فحسبوا أن كل بيضاء شحمه وأن كل سواد فحمه، فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ومقدمهم الأمير أبو الهيجا، واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين حتى حس الأساحم بالجبن، وكلما لجؤوا إلى محلة أحرقوها عليهم وحووا ما حوالهم وأخرجوا إلى الجيزة وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من الشدة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا، وأينما وقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعصرة المعمورة، فأخلى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الأمراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة. قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها أثر عظيم، ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنطرة يعاين الحرب بين القصرين، فقليل إنه أمر من بالقصر أن يقدفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا، وقيل إن ذلك كان عن غير اختيار، فأمر شمس الدولة الزرايين باحراق منطرة العاضد فهم أحد الزرايين بذلك وإذا باب المنطرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب

أخرجوهم من بلادكم، وكانت العبيد مشتدة الأنفس بأن العاضد راض
بفعلهم، فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجنبوا وتخاذلوا وأدبروا.
ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها
بالمملك الناصر استنارت

في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فـروض
شكراً لما جئناكم من نوافل
يوسف مصر الذي إليه
تشددنا السراويل
أجريت نيلين في ثراها
نيل نجيع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى
أحكمت البيض في المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقا
عليهم كفة الحائل
وكل راء منهم كراء
وأرض مصر كـلام واصـل
وقد خلت منهم المغاني
وأقـفـرت منهم المنازل
وما أصيبوا إلا بطل
فكيف لو أمطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا
فهـي نـواز بهـم نـوازل

مؤمن القوم خان حتى
غالتهم من شدة غوائل
عاملكم بالخنا فأضحى
ورأسه فوق رأس عامـل
يا مخجل البحر بالأياـدي
قد آن أن تفتح السواحل

فقدس القدس من خبات
أرجاس كفر غتم أراذل

قال العباد: وما مدح به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهته له
بالمملك، وتعزية بعمه:

أي يوسف الاحسان والحسن خير من
حوى الفضل والافضل والنهي والأمر
ومن للهدى وجه النجاح برأيه
نجلي وثغر النصر من عزته افترا
حى حوزة الدين الحنيف بحوزه
من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى الأعلام وعمه
بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوليه
وما شاركوه في العلاف حوى الفخرا
بنو الأصفر الافرنج لاقوا ببيضه
وسمر عواليه مناياهم حمرا
وما أبيض يوم النصر واخضر روضه
من الخصب حتى أسود بالنقع واغبرا
رأى النصر في تقوى الاله وكل من
تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة
أغذ من الأولى مسيرا إلى الأخرى
وقام صلاح الدين بالمملك كافلا
وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر إلى عصر يوسف
أعاد إليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجوده
بحارافسها الورى انملا عسرا

هزمتهم جنود المشركين برعبكم
فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتهم من حول مصر جموعهم
بكسرو عباد الكسر من أهلها جبرا
وآمتهم فيها الرعايا بعد لكم
وأطفأتم من شرشاورها الجمرا
بسفك دم حطتكم دماء كثيرة
وحزتم بها أبديتهم الحمد والشكرا
وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا
لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الأفرنج سوط عذابها
بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم
وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا
وإن الذي أثرى من المال مقتر
وان تفننه في كسب محمدة أثرى

قال : وكثرت كتب صلاح الدين: إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه
فمنها كتاب ضمنه هذا البيت:
ما كنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابه أبياتا منها هذه:
يا هـل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة حمودة ورجوع
مدغبتم عن ناظري ما أذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع

كنت المشفع في المطالب عندكم
فقدوت أطلب طيفكم بشفيح
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت:
وانشرد الدمع من قبل أبيض
وقد حال مذبتهم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتا منها:
هنيئالمصر حوزيوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا
يمائل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي أبشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئت

قال: وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور: الكامل ، وأخاه
يعني الطاري، يوم الإثنين الرابع من جمادى الآخرة، وذلك أنه لما قتل
شاور عاذوا في القصر فكأنما نزلوا في القبر فلو أنهم جاؤوا إلى أسد
الدين سلموا وامتنعوا وعصموا، فإنه ساء قتل شاور وإن كان أمن
بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طي تقدّم ذكر
قتل ضرغام له، والآخر الطاري.

قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في
تاريخه: أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم ،
وأخوه الملقب بفارس المسلمين ، فقتلوا ودير برؤوسهم.

قال: لما ولي صلاح الدين ساس الرعية، وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه، فاجتمع أهل البلاد وكرهوه، فأوقع برأجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم، وشتت شملهم (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) (١١٥) .

قال: ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردتها، جليلها وحقيرها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابن شداد: وفي المحرم من هذه السنة مات ياروق الذي تنسب إليه الياروقية، يعني المحلة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترق جامع حلب وأسواق البر، وأخذ نو الدين في عمارته آخر السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح، واعتمدوا على النزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر، فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدوهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه، والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الأفرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع، فلما رأى الأفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادها ونهبها وخرابها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: «ذهب النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها، وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، وأخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى، حكى عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاخذ أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

قال القاضي ابن شدّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أن صلاح الدين يملك بلادهم، ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، فاجتمع الفرنج والروم جميعاً وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دميّاط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه، فاستصحبوا المتجنّقات والدبابات والجروح، وآلات الحصار وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خطّخ العلمدار، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بعلبك وتدمر، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دميّاط، قصد شغاف قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصدته فرنج الساحل، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة، وهو بعشتر، فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدّة قصد العدو دميّاط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات، وأزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالعطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتدّ

زحفهم إليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله عليه يشن الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونصر الله المسلمين يؤيدهم، وحسن قصده في نصره دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران، وظهر على الكفر الإيثار، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويسلمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البلد بحمد الله ومنه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، يسهر ليله ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سره وجهاره، ولا ينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المقعد المقيم، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط فدخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها، واتصل الحصار، وتواصل الأنصار، ودب في الفرنج الفناء، وهب عليهم البلا، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول بالذل الأكمل، والصغار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم، وأستعصب الملهم، وأنهض من عنده عسكرياً ثقيلاً مقدّمه الأمير قطب الدين خسرو الهذلي، وكان مقدّماً مقدّماً وهاماً معلماً، وأمره أن يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع، فوقع روعه من الكفر في كل روع.

قلت: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لاستحيي من الله تعالى أن يراني

متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج، وبلغني أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله ربها لا يصدّقني، فإذا ذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له: بعلامة ما سجدت على تل حارم، وقلت يارب انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظه الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألح علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدّق الرؤيا، فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

أرسل نور الدين كتابا إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم، والاقتصار على صلاح الدين والزامة وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك، ويعلمه أنه ما أرسلهم، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرهبون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية وتحصلوا منها على الأمانة، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نعمه التي لا تحصى، قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة:

من شاكر والله أعظم شاكر

ما كان من نعمى بني أيوب

طلب الهدى نصرأفقال وقد أتوا

حسبي فأنتم غاية المطلوب

حلبوا إلى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كرية
لو لم يجلبوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب
إن لم تظن الناس قشرا فرغاً
وهم الباب فأنت غير ليب

وللشهاب فتان الشاغوري من قصيدة يقول:
ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة
ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم
لديه رماح اشترعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا
وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم
ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونهم أسدا بأيديهم القنا
ويبضار قاقا أحكمتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب
ومن دونها اسد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم إذ ذاك فتحها
فخاف فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة
كأنهم ذلأ نعام جوافل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم
لتعصمهم مما رأوه المعاقل

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتا في صلاح الدين
تهنئة بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:
يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا
بجده صاعدا أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء في شرف
ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعت
لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصرييوسفها أضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط

قال العماد: ومما سيرته إلى صلاح الدين قصيدة منها:
كأن قلبي وحب مال كها
مصر وفيها المليك يوسفها
هذا سلب الفراد يظلمني
وهو بقتل الأعداء ينصفها
الملك الناصر الذي أبدا
بعز سلطانه يشرفها
قام بأحوالها يدبرها
حسنا وأثقالها يخففها
بعدله والصلاح يعمرها
وبالندي والجميل يكتفها
من دنس الغادرين يرحضها
ومن خباث العدى ينظفها
وإن مصر بملك يوسفها
جنة خلد يروى زخرفها

وإنه في السماح حاتمها
وإنه في الموقار أحفها
يوسف مصر الذي ملاحها
جاءت بأوصافه تعرفها
كتب التواريخ لايزينها
إلا بأيامه مصنفها
وحطت دميحاط إذ أحاط بها
من برجوم البلاء يقذفها
لاقت غواة الفرنج خيبتها
فزاد من حسرة تأسفها
أوردت قلب القلوب أرشيته
من القنال للدماء تنزفها
وليتها سفكها فعمامها
عاملها والسنان مشرفها
يمضي لك الله في قتالهم
عزيمة للجهاد ترهفها

وله فيه من أخرى:
قد استقرت أموري
فيه بحسب اقتراحي
كما استقر صلاح
دنيا بملك الصلاح
تنير شمس أيادي
في سماء السماح
وأمره مستفاد
من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكيان
المعروف بشاه أرمن قال: فلما كنت بهاردين كتبت إلى بعض المعارف :

قـدـنـزـنـاـفـيـجـوـارـك
وـطـلـبـنـاـقـسـربـدارك
وـسـرـيـنـاـفـيـالـدـيـاـجـي
فـهـدـاـنـاـضـوـنـاـرك
فـتـداركـأـمـرـنـاـالـيـو
مـبـطـولـمـتـدارك
وـتـفـردـبـاـغـتـاـمـالـ
شـكـرـمـنـغـيـرـمـشـاـرك

قال العماد : وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى داريا فأعاد عمارة
جامعها، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر وباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين
تقدّم بعضها يقول فيها:
صحت به مصر وكانت قبله
تشكروا مقامه لم يعن بطبيب
عجبا المعجزة أتت في عصره
والدهر ولا دل كل عجيب
ردّ الله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب
جاءته أخوته ووالده إلى
مصر على التدريس والترتيب
فاسعد بأكرم قادم بدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد : لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين
أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى
مصر بأهله وجماعته، وسبده ولبده، وخيم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح
جدده وسار في حفظ الله فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من
رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب وركب
لاستقباله، وزاد اقبال البلاد باقباله، ولما عزم على الرحيل إلى مصر شرع
في تفريق أملاكه وتوفير ماله في شركة على إشراكه، وما استصحب شيئا
من موجوده، وجعله نهبة لجوده.

قلت: ووقف رباطا داخل الدرب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعلی على روض الرضى سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجند في الجهاد حد اعتزامه، ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق تشييعه إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جنده وحاضره، وعب بحره وماج زاخره، ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان، ونزلنا أياماً باللقاء على عمان، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنتنا وبالله نستعين، فإننا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم أدركنا المراد، وملكنا البلاد، فرحلنا إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا وعاد نور الدين إلى حوران، فخيم بعشترًا وصام رمضان.

وقال ابن الاثير: كان سبب حصر نور الدين الكرك أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، فسير نور الدين معه عسكرياً فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لا يعدّ، فخاف نور الدين عليهم فسار إلى الكرك، فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين ومن معه سالمين، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأثاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفرى وفليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتها في المقدمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى نحوهما للقائهما ومن معها قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج وكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم من الراجل خلق كثير فلما قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج، وقصد نور الدين وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعشترًا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شدّاد: أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور

القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له فلا ينبغي. أن تغير موقع السعادة ، فحكمه في الخرائن بأسرها، وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد، ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طيّ الحلبى، أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير اقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمله رسالة منها: « وهذا أمر يجب المبادرة إليه ليحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكلية، وهو عنده من أهم أمنيته» وسار نجم الدين وأصبحه نور الدين هدية سنية للملك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهدته الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل وحمل إليه من القصر الألفاظ والتحف والهدايا، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار، وسار شمس الدولة إلى قوص وولاه شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل اقطاعها شمس الدولة قد سير رسلان بن دغمش لجباية خراجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة، وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علي وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدق بها بهر به العقول،

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم قد تقدّم بعضها:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعته
وكل أنبائه شهب فلا أفلوا
جاؤا كي عيوب والأسباط إذ وردوا
على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شيا ختته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الاثير: وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس
مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق
وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه
وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على
أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء، فلما أتى نور
الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان
لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها
وخلوها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص،
ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد
من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها

شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لا يقدرّون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة فلما عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وعمر جميع البلاد وجوامعها وأخرج من الأموال ما لا يقدرّ قدره.

وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبحرين ولحصن الأكراد وصافيتا والعريمة وعرقا في بحر الزلازل غرقى لاسيما حصن الأكراد فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليه فيه دحور وثبور، فشغلهم سوءهم عن سواه وكل اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الابهادهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرّها، فلقد خصتهم بالأمض الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأضحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) (١١٦)

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها:

هل لعافى الهوى من الأسر فادي
ولساري ليل الصبابة هادي
جنبوني خطب البعاد فسهل
كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من الين حتى
صاح يوم الاثيل بالين حادي
قد حلتكم من مهجتي في السويدا
ومن مقلتي محل السواد
وبخلتم من الوصال باسعا
في أماكتكم من الأجواد
وبعثكم نسيمكم يتلاقا
ني فعاد النسيم من عوادي
سمتموني تجلدا واشتياقا
ومحال تجمع الاضداد
ابقاء بعد الاحبة يا قلدا
سبي ما هذه شروط السواد
ذاب قلبي وسال في الدمع لما
دام من نار وجدته في اتقاد
ما الدموع التي تحدرها الاشدا
واقا لافئاة الأكباد
حبذا ساكنو فوادي وعهدي
بهم يسكنون سفوح الوادي
أتمنى بالشام أهلي ببغدا
دواين الشام من بغداد
ما اعتياضي من حبههم يعلم الله
تعالى إلا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العا
دل محمود الكريريم الجواد

أنا منه على سري سروري
راتع العيش في مراد مرادي
قيدتني بالشام منه الأيادي
والأيادي للحرك كالأقياد
قد وردت البحر الخضم وخلف
ست ملوك الدنيا به كالنهاد
هو نعم الملاذ من نائب الدهر
ورونعم المعاذ عند المعاد
جل زرع الفرنج فاستبدلوا منه
به بلبس الحديد لبس الحداد
فرّق العرب منه في أنفاس الكف
أر بين الأرواح والأجساد
سطوة زلت بسكانها الأر
ض وهدت قواعده الأطواد
أخذتهم بالحق رجعة بأس
تركتهم صرعى صروف الغوادي
خفضت من قلاعها كل عال
وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض
مظهر سر غيبه فهو وبادي
آية أثرت ذوي الشرك بالملل
بك وأهل التوحيد بالارشاد
والاعادي جرى عليهم من التد
مير ما قد جرى على قوم عاد
أشركت في الهلاك بين الفريقين
من دعاة الاشرار والاحاد
ولقد حاربوا القضاء فأمضى
حكمه فيهم بغير جلال

والاله الرؤوف في الشام عنا
دافع لطفه بلاء البلاد

قال العماد ومنها معنى متبكر أبتدعته في الزلزلة وهو:
وبحق أصيبت الأرض لما
اشتكت من مقام أهل الفساد
علمت أنها جنتت فعراها
حذرأمن سطاك شبه ارتعاد

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النورية، كنت مقرظاً للفضائل الشهرزوريه، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ابن قساضي قضاة الشام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان ، وهو ذو المكانة والامكان في بسط العدل والاحسان ومحيي الدين ولده ينوب عنه في القضاء بحلب وبلدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، وبحماه وحمص من بني الشهرزوري قاضيان وهما حاكمان متحكمان، وكان هذا محيي الدين من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب وشعر، وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النظامية منذ سنة خمس وثلاثين، والمدرس شيخنا معين الدين سعيد ابن الرزاز وكان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه بعلمه معلماً مذهب الطراز، وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اضطباره، وخلبت أفكاره، فكتبت إليه قصيدة مطلعها:

لو كان من شكوى الصبابة مشكياً
لعدا على عدوى الصبابة معدياً
مات الرجاء فإن أردت حياته
ونشوره فارج الإمام المحيياً

أقضى القضاة محمد بن محمد
من لست منه للفضائل محصيا
قاض به قضيت المظالم نجبها
وغدا على آثارهم من معفيا
يا كاشفاً للحق في أيامه
غرراً يندوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها
لو لم تجدك لطود حملك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها
نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتململت
عجل إجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت
أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع مسيل
إن لاقت الخطيب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها
من بعد غيم الغم جوامص حيا
أضحى لبهجتها معيدا بعد ما
ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لأمورها متدبرا لشتاتها
متألفا لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا
والحق عاد بظلاله مستذريا
والدهر لا ذبعفوه مستغفرا
مما جناه مطرقا مستحيا

فصل

في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابن الأثير: كان شهاب الدين محمد بن الياس بن ايلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهم مائتا فارس إلى الخدمة النورية، وهو بعشتر، فلما وصل إلى اللبوة، وهي من أعمال بعلبك ركب متصيداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا وصبر الفريقان لاسيما المسلمون لأن ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج، وكثر القتلى بينهم وانهمز الفرنج وعمهم القتل والأسرفلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به (ولو تواعدتم لاختلتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) (١١٧) وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاستبارية صاحب حصن الأكراد وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ولدينه عندهم ولأنه شجى في حلق المسلمين، وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فإزداد سروراً والله الحمد.

قال: وفيها في شوال توفي الملك قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، وكان لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود، وهو أكبر أولاده وأعزهم عليه وأحبهم إليه، وكان النائب عن قطب الدين حيثثد والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زنكي لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوج ابنته، وكان عزيزه وحبيبه، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ويلذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأمره، فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد

الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمر تاش زوجة قطب الدين، فردّوه عن هذا الرأي، فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي، وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة، وكان تام القامة كبير الوجه أسمر اللون واسع الجبهة جهوري الصوت، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، ولما توفي استقر سيف الدين غازي في الملك، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكيا ومستنصرا وكان عبد المسيح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه لأنه في عنقوان شبابه وعزة حدائته.

قال: وهذه حادثة تحث على العدل، كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقي يفصل بينهما دجلة لها بساتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلق منها، فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب، وكان لنا بها عدّة بساتين فحكى لي والدي قال: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة، وأنا حيثئذ أتولى ديوانها يأمر بأن تجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة، فشق ذلك علي لأجل أصحابها ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس وهم فقراء، فراجعته وقلت له : لا تظن أني أقول هذا لأجل ملكي لا والله، وإنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين، وأنا أمسح ملكي جميعه، قال : فأعاد الجواب بأمر المساحة، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن نطلق لك ما يكون عليه، فشرع النواب يمسحون، وكان بالعقيمة رجلان صالحان بيني وبينهما مودة اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة، فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال وسألاني المكاتبة في المعنى، فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابي فشكراني وقالوا: وأيضا

تعود تراجعته، فعاودت القول فأصرّ على المساحة فعرفتني الحال، فلما مضى عدّة أيام عدت يوماً إلى داري وإذا هما قد صادفاني على الباب فقلت لنفسي: عجباً لهذين الشيخين قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه، فقلت لهما: والله إني لاستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيف هو فقالا: صدقت ولم نحضر إلاّ لنعرفك أن حاجتنا قضيت، فظننت أنهما قد أرسلتا إلى الموصل من يشفع لهما، فدخلت إلى داري وأدخلتهما معي وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما، فقالا: إن رجلاً من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهم، قال: فوقع عندي من هذا، ولكن تارة أصدّقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما، وتارة أعجب من سلامة صدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعاً لاشك فيه، فلما كان بعد أيام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه باطلاق مساحة العقيمة، واطلاق كل مسجون وبالصدقة، فسألت القاصد عن السبب فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض قال: فأفكرت في قولهما، وتعجبت منه ثم توفي بعد يومين من هذا.

قال: ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالي في إكرامه ويحترمه ويقضي أشغاله واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك وأعفهم عن أموال رعيته، محسناً إليهم، كثير الانعام عليهم، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم حليماً عن المذنبين سريع الانفعال للخير، حدّثني والدي قال: استدعاني يوماً وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها فلامني في بعض الأمر فقلت: أخاف من الاستقصاء لو دعي على بعض هؤلاء الملوك وأومات إلى أولاده لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها، ولنا مواضع تحتل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعاف هذا، فقال: جزاك الله خيراً لقد نصحت وأديت

الأمانة فاشرع في عمارة هذه الأماكن، ففعلت وكبرت منزلتي عنده، ولم يزل يشني عليّ.

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه، لقد صبر من نوابه زين الدين، وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه، وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة والانجاء له بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها وفتح بانياس، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف، وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض، وكان ييغض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله.

قال: وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكي سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وحسن السيرة وعمارة البلاد والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها أذكر قول الشاعر:

من تلق منهم تقل لا قيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت: وقرأت بخط الشيخ عمر الملاء رحمه الله في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين، وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه: «يا أخي لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلت وأضجرت، غير أني أذكر لك ما خصه الله به من الأخلاق الصالحة، هو من أكثر الناس رحمة، وأشدّهم حياء وأعظمهم تواضعاً وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضا، وهو من هذه الأخلاق على حدّ أحبه أنا محبة لا أقدر أصفها، وبينى وبينه إخاء ومزاورة يزورني وأزوره».

فصل

قال ابن الاثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين، وملك ولده سيف الدين بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك، وكبر لديه وشق عليه، وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة، وكان نور الدين رحمه الله لنا رفيقا عادلاً فقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم، ثم سار من وقته فعبّر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ثم سلمها على شيء اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار إلى الخابور فملكة جميعه ثم ملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدة، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من الموصل، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ، وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم وأقام حتى ملك سنجار، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة ، وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران وغيرها يستنجد به، فأرسل أيلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهيه عن قصد الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته وكان بسنجار فسار إلى الموصل، وقال للرسول : قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلاتدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد

الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك وقال: لاسبيل إلى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فإني لم آت لأخذ البلاد من أولادي إنما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل إليه فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى، وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزداراً فيها، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة، ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسة، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام فقبل له: إنك تحب الموصل والمقام بها، وتراك أسرعت العود؟ فقال: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد، ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغير اسمه وسماه عبد الله، وأقطعه اقطاعاً كثيراً.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة، وقال لي: قد آنست بك وأمنت إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض لايبلغ فيه غيرك الغرض فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة وتؤدي عني

رسالة سديدة سعيدة، وتنتهي أي قصدت بيتي وبيت والدي ومغنى
طريفي. وتالدي وأنا كبيره ووارثه والذي له حديثه وحادثه، فامض وخذ
لي أذنًا فإني أعدّ كل جارحة لما أخاطب به أذنًا، وأمثلة ما يصلني من
المثال لدفع كل مكروه ركنا.

وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال
مأموني الصحبة، وسرت منها على البرية غربي الفرات بخفير من بني
خفاجه، فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة
المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار فأخذها وسلمها إلى ختته
ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي .

قال: ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد، واستوضح فيها الجدد،
ودل هناك في دجلة على مخاضه، وكان ذا أخلاق وهم مرتاضه،
فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظنّ مستصعباً، وسهل الله لنا ذلك
ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تركماني قدامنا، وهو يقطع دجلة تارة
طولاً وتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيطة واحد لانميل يميناً ولا يساراً
ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عبرنا من الجانب الغربي
إلى الجانب الشرقي برحالتنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية
ذلك اليوم حتى تم عبور القوم، ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها،
وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبة، وما خطر ببالهم أنا
نعبر بغير مراكب، وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون
مقهورون محسورون، وانقطعت عنهم السبل من الشرق، وتعذر عليهم
الرقع لاتساع الخرق، وبسط العطاء وكشف الغطاء وتكلم في
الصلحة والمصالحة الوسطاء، ومدّ الجسر وقضى الأمر، وأنعم نور الدين
على أولاد أخيه ومثلوا بناديه، وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه،
وألْبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء، ثم دخل قلعة
الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً وجدّد مناشير أهل المناصب

وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما، وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فمناه: «قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحققاً للحرام الحقيق بالملت، وبعداً لما يبعد من رضى الرب، ويقصبي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقذمتنا باسقاط كل مكس وضريبه في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبه، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة مظلمة فظيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاء كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولا يتنا جور جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إشاراً للشواب الأجل على الخطام العاجل، وهذا حق لله قضيناه، وواجب علينا أدينا، بل هي سنة حسنة سنناها، ومحجة واضحة بينها، وقاعدة محكمة مهندناها، وفائدة مغتمة أفدناها.»

فصل

قال العماد: وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملاء، سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره، وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المرید، وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية، وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، ويتمنون ببركته، وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل،

ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المحفل، وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيريه في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره، وكانت بالموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتاعها ورفع بنيانها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات، ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، ورتب فيه خطيباً ومدرساً، وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي من أصحاب الإمام محمد بن يحيى، فسأله أن يكون مدرساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية بالموصل، وكان دخولهم إياها في بحبوحة الشتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة منها:

ما يمنع الخادم من قصده الـ

خدمة غير الطرق والوحد

كأنما وصلكم مقطوع

ما يتدى فيه إلى وصل

وكل معروف بها منكسر

كما تراه ضيق السبل

وكل من حل بها لا يرى

في زمن الخصب سوى المحل

ومد دخلنا ما حصلنا بها

كرها على خرج بلا دخل

أصعب ما تلقاه من أهلها

قول بلا أهل ولا سهل

وكنيت أهواها ولكنني

لقيت منها كل ما يسلي

وأنت من أصبح احسانه
حلية هذا الزمن العطل

قال: وعاد نور الدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارها، ثم أتى حرّان وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونصيبين والخابور والمجدل، ووصل حلب في خامس رجب.

قال ابن شدّاد: دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته.

قال العماد: وفوّض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما صارت الموصل إلى سيف الدين بن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح، كان نصرانياً فأسلم، وقيل إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعة في داره وتتبع أرباب العلم والدين فشتتهم وأبعدهم، وأذى المسلمين، فبلغ نو الدين ذلك، وكتب له قصص في ذلك، فسار ونزل على الموصل من جانب الشط، والشط بينه وبينها وقال: لأقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهي لولدي، وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كتب إليّ في عبد المسيح كذا كذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وأنا مقصودي أزيل هذا النصراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبد المسيح يدير البلد ويدور فيه والأمر إليه، وبذل الصلح لنور الدين، فقال نور الدين أنا قد جئت ولا بدّ لي من دخول البلد فقال: نعم لا تدخل إلا من باب السرّ فقال نور الدين: ما أدخل إلا من باب السرّ، فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات إلى أن علم

أن نيته صالحة فصالحه في السر وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السوريين فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافل، فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه وقال له: أنت قد صالحت عمك وقد عملت ما عملت في حفظ بلدك ومالي طاقة بمقابلة نور الدين، فالله الله في دمي فقال له: مالي طاقة بدفعه عنك ولكن عليك بالشيخ عمر الملاء، فقال: والله لو مضيت إليه لم يفتح لي لعلمه بما جرى مني في حق المسلمين، ولكن تسير أنت إليه فأنفذ لسيف الدين إليه واستحضره، وكان معتكفاً فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه ، فوقف بين يديه يبكي فالتفت إليه الشيخ عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي، فقال : أنت آمن على دمك فقال: على مالي، فقال : وعلى مالك، فقال: وعلى أهلي؟ فقال: وعلى أهلك، وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حيثشد، فقال سيف الدين لعمر الملاء: تخرج تحلف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاء وأكرمه، فقال له عمر: الناس يعلمون حسن عقيدتك فيّ، وقد خرجت في كذا وكذا، وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين فقرأها وناولها لابن أبي عصرون فقال: نسخة جيدة، فقال له الشيخ عمر الملاء: أي شيء تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة، فقال إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى، فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك يشير إلى أن نور الدين كان يجري منه أيان في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيده عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ وأن قولي مسموع عندك وقد خرجت إليك ولا بد لي من ضيافة، فقال : كيف لي بذلك وأنت لاتأكل طعامي

ولا تقبل مني شيئاً؟ فقال تحلف لي بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ماجئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه، فقال الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين، فقال: قد أمنتته على نفسه، فقال: وعلى أهله، فقال: ومن أهله؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال وعلى ماله، فقال: ومن أين لهذا الكلب مال هذا مملوك لنا، فقال: قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنتته على ماله، فحلف له على ذلك جميعاً واستقرّ الصلح، وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين، فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها وانتقل إلى جانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مدة، ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الدين، فاستيقظ من منامه، وسار سحرة ذلك اليوم، ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله .

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله ونور الدين غييم بشرقي الموصل بتل توبه، وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس، وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لبني العباس كلهم
إن عدّدت بحساب الجمل الخلفا

وكان أسمى تام القامة، وطويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرة
مع الرعية، كان عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيراً ،
ولم يترك بالعراق مكساً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية
بالناس.

قال ابن الاثير: بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ،
ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه، فحضر بعض أصحابه يشفع فيه
وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار،
وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس.

وفي أيامه توفي شيخ الشيوخ اسماعيل بن أبي سعد، وصار بعده ابنه
صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسراني، وأحمد بن منير
الشاعران، وقد تقدّم ذلك. وفي سنة تسع وأربعين توفي الحكيم أبو
الحكم الشاعر الأندلسي، وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوأواء الشاعر
الخلبي، وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النجيب الصوفي الفقيه
الواعظ.

قال العماد: وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضيء،
واتفق ذلك يوم عبور دجلة، وركب يوم النزول على تل توبة في الأهبة
السوداء واليد البيضاء، وذلك بمراًى ومنظر من أهل الموصل الحداة، ثم
أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة
الإمام، ومما نظمه العماد فيه:

قد أضياء الزمان بالمستضيء
وارث البرد وابن عم النبي
جاء بالحق والشرعية والعد
ل فيا مرحبا بهذا المجي
فهنيئاً لأهل بغداد فازوا
بعد بؤس بكل عيش هنّي
ومضي إن كان في الزمن المظـ
لم فالعود في الزمان المضي

وله من قصيدة أخرى:
لهفي على زمن الشباب فلانني
بسوى التأسف عنه لم أتعرض
نقضت عهد الغانيات وإنها
لو لا نقباء شيتي لم تنقض
يا حسن أيام الصبا وكأنها
أيام مولانا الإمام المستضي
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها
والطلعة الغراء والوجه الوضي
قسم السعادة والشقاوة ربنا
في الخلق بين محبه والمبغض

ومنها:
فضل الخلائف والخلائق بالتقى
والفضل والافضال والخلق الرضي
فبأنعم أمير المؤمنين بدولة
ما تنتهي وسعادة ما تنقضي

قال: ووصل نور الدين رحمه الله تعالى إلى دمشق، وأدى فرض
الصيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سراقه إلى جسر الخشب،

وسرنا إلى عشترا، ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأرتقي باللوبة،
وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها
صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في
النصف من المحرم دار العزل، مدرسة للمالكية، وولى صدر الدين عبد
الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك في الثاني
والعشرين من جمادى الآخرة، ثم خرج إلى الغزاة وأغار على الرملة
وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع إلى القاهرة، ثم وصله الخبر
بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجتمع بها
شملة فخرج في النصف من ربيع الأول وكانت بإيلة قلعة في البحر قد
حصنها أهل الكفر فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال
وركبها الصنائع هناك، وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الأول من
ربيع الآخر واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد
والعدد، وحصنها بأهل الجلال والجلد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم
على سمت القاهرة، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الأولى
إليها، وسار إلى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها
ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها
بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها، وفي النصف من شعبان
اشتري تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وهو ابن أخي صلاح الدين منازل
العز بمصر وجعلها بمدرسة للشافعية، واشترى الروضة وحمام الذهب
وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار

شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان، ثم دخل القاهرة في
عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو
الحجاج يوسف بن الخلال، وكان من الأمثال الأفاضل، ولم يزل صاحب
ديوان الإنشاء إلى أن كبر، وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان
له، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله، وقال في الخريدة: هو ناظر
ديوان مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الانشاء، وله قوة
على الترسل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضر ولزم
بيته إلى أن تعوض منه القبر، ومن شعره:

يا أخا الغرة حسب الدهر من

عظمة المغرور ما أصبح يدي

تؤثر الدنياف هل نلت بها

لحظة تخلص من هم وكد

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن
الأثير الجزري في أول كتابه المسمى بالوشى المرقوم في حل المنظوم قال:
حدثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان
وثمانين وخسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غصاً
طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم
لسلطانه بقلمه سلطاناً، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا
نشأ له ولد وشذا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات
ليتعلم فن الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع، قال: فأرسلني والذي وكان
إذ ذاك قاضياً بغير عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد
خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في
تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين
يديه، وعرفته من أنا وما طلبني رحب بي وسهل ثم قال: ما الذي
أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء سوى أني

أحفظ القرآن العزيز، وكتاب الحماسة، فقال: وفي هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فترددت إليه، وتدرّبت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته.

وقال ابن أبي طي: في هذه السنة شرع السلطان — يعنى صلاح الدين — في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الأذان حي على خير العمل، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

قلت: وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السابق أول الكتاب : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) (١١٩)

وفيه: « توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المعلمة قد أيدتها جنود السماء المسومة، وصاحبنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهباً ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال بشهاب القذف ضارباً، فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران. ورملنا الرجال بالدم. وأرملنا النسوان، وزحفنا إلى أبراجه وهي

أبراج قد استعدت للبلاء جلباباً، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وباباً، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب. وتقدمت إليه نقابة الجليلة فباتت ليلتها تساوره وتراجع به بالسنة المعاول وتشاوره، وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه، وتيسر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً، وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القبضة وعجز من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق وتيسير السيل للقتال وتخليص الطريق هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر، وطهر الأرض منهم بالدم المائر، فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فارسه ورجله وراحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره، فركبنا مستبشرين بزحفة، موقنين بحتفه. ولقيناه فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطراد، وأحدقت به احداق الأغلال بالأجياد وانتظرت حملته التي كانت لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً، ولم يزل يخاتل، ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يطاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتني في عقابه حتى تحصل في الدير هو وخيله ورجله، ولم يبق له من ملك الشام إلا ما وطئته رجله. فناصرناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز ويخرج ولا يحاجز. فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضيين الله سبحانه لامغضيين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته، من الله متقربين. وواجهنا غزة بعساكرنا

المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بكرة لم تفتزعها الحوادث. وحصانا لم يطمئنها أمل طامث. هي معقل الديوية الذين هم جمة الشرك، وداهية الأفك، وأتى الله ببنينا من القواعد، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد، وفتحناها من عدة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمس الذهاب، فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها، فمن بين مواش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسومة كأنها لركوبنا أسرجت وأجمت، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت، وأساري المسلمين فكوا من القيد والقد، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد. فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن الفضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتذهب، وجرى منها ما به اضطرم وقد الجحيم وتلهب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاولة وينتقل، فهل ترى لهم من باقيه. أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاويه. وعراضاً من سكانها خالية. قد بقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر. وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر، ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك خذله الله راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حرّ النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه، فبتنا عليه والالسنه بفراره تعيره. واستتاره يقرّعه ويقرره. وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتلة ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله. والعدو قد غزي في عقره وعقر، وأذل في دار ملكه وأحتقر ووصلنا إلى مستقرّ سلطاننا في يوم الإثنين الحادي عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه تشريفه، واستقبال ركابه ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومجابه ما عظمت به النعم، وجلت به وزالت به وعشاء الطريق وتجلت، وجادتها سماء انعامه التي لم تزل تجودنا واستهلّت.

قلت: ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أولها:

(فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها:
لعل بني أيوب إن علموا بما
تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا
غزوا عقر دار المشركين بغزة
جهاراً وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بأرعن
يفيض إناء البر منه ويفهق
وكانت على ما شاهد الناس قبلهم
طرائق من شوك القنالييس تطرق
وما عصمتهم منك إلا معاقل
تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى
بوادره سور عليهم وخندق
وأخربت من أعماهم كل عامر
يمرّ به طيف الخيال فيفترق
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ
ـ خليل فأبشرت غاز موفوق
وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه إليك التشوق
تنشق من ملقائك أعظم نفحة
تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه
قريباً وإلا رائد ومطرّق
هو البيت إن تفتحته والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتحتها صلاح الدين رحمه الله باقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاها مادام لها من العصر.

وذكر العماد أيضا في أخبار سنة إشتين وسبعين كما سيأتى أن الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، وذكر ذلك أيضا ابن الديبشي في تاريخه، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

قال ابن الاثير : كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له، وضعف أمر العاضد، وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا إمثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر انسان أعجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدي بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح

الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه آله وأصحابه بذلك، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره، وعلى جميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش، وهو خصي لحفظه وجعله كاستاذدار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكّل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الأيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والامساء فاعتق البعض ووهب البعض وإباع البعض، وأخلّى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما أشد مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

قلت: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد، وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: وأحضرنا يعني أولاده وهم جماعة صغار فأوصاهم بما فالتزموا احترامنا واحترامنا رحمه الله، وأما ندم صلاح الدين فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السلطان للعزاء وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في اجمال أمره والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بها فيه من خزائنه ودفائنه، وكان مذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل، ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر، وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه، وأقامه، فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، ووهت المعاهد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين من عمومهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نقص عددهم وقلص مددهم، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن، وجمع الباقيات فوهبن وفرقهن وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مماليكه وأولياؤه من أخائر الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمه، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التبريه، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية والصواني

الصيني، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات
النضارية، والكراشم واليتائم والعقود والتائم والنقود والمنظوم والمنضود،
والحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدر والياقوت، والحلي
والوشى، والعبير والحبير والوثير والنشير، والعيني واللجيني، والبسط
والفرش، وما لا يعد احصاء، ولا يحمد استقصاء، فوقع فيها الفناء،
وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل
جديد وعتيق ولييس وسحيق وبال وأسما، ورخيص وغال، وكل منقول
ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع فيها مدة عشر سنين، وتنقلت
إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال: ولما وصل خبر موت العاضد
الذي كان بمصر في القصر، موسوما بالأمر في ليلة عاشورا، سنة سبع
وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بالله أمير المؤمنين، عملت هذه
الآيات فذكر قصيدة منها:

توفي العاضد الدعي فما
يفتح ذوب دعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا
يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمره الغواة وقد
باح من الشرك كلما اضطرمما
وصار شمل الصلاح ملتثما
بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بني الـ
عباس حقا والباطل اكثما
وبات داعي التوحيد منتصرا
ومن دعاة الاشرار منتقما

وظل أهل الضلال في ظلل
داجية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون في ظلم
لما أضلّاءت منابر العلماء
وعاد بـالمستضيء ممتهدا
بناء حق قد كان منه دما
واعتلّت الدولة التي اضطهدت
وانتصر الدين بعدم ما اهتضا
واهتز عطف الاسلام من جذل
واقترن غرر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا
فليقرع الكفر سننه ندما
عاد حرّيم الأعداء منتهك الـ
حصى وفيء الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور أخربها
عامرييت من الكمال سما
أزعج بعد السكون ساكنها
وممات ذلا وأنفسه رغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء، في بعض السنين: « كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره، ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالى الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما، فاضحى الدين واحداً بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخرؤا عليها إلا صبا وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامع، والمذلة في شيع الضلال شائعة، ذلك بأنهم اتحدوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا

أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار، فعجلت لهم نار الختوف، ونثرت أقلام الطبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آينهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم، ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافه وحل عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح وقلد مافتح ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتية التشريفات الشريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوه، وتتوصل غزوته بما وصل من عزوه، وترفع دونه الحجب المعترضة وترسل إليه السحب المروضه فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لا يصال ملطفاته، وتنجز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر وقام بالأمر قيام من بر. واستفتح بلباس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم أملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه».

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإريلي من قصيدة في مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى:
ملك من القوم الذين رماهم
دعائم هذا الدين في كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصراً مؤزراً
به عز في الآفاق كل موحد

وهم قهروا غلب الفرنج بياسهم
فدانوا لهم بالرغم لاعن ودد
وردوا إلى البيت المقدس نوره
وقد كان في ليل من الشرك أسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا
بها الركب خوف الكافر المتشدد
وقد ركب فرسانه بحر إيلة
يخوضون في بحر من الكيد مزيد
وهم رجعوا مصر إلى دعوة الهدى
بعزم ورأي في العظماء محصد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالذي
أعادوه من حق طريف ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها
وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عز المال كواكتفوا
بسمراء العوالي والعلاء المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم قضت
بمرّ مراد الله في كل أصيد
وضعف حديث العدل والبأس والندی
إذا كان عن أيامهم غير مسند

وقال ابن أبي طي الحلبي: قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين والحاخا
على صلاح الدين في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليه أباه
الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور
الدين في ذلك، ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نو الدين
فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضى به الأمر إلى أنه
اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك، ولما قدم
الأمير نجم الدين حده على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر

بعد وأمره مضطربة واعدائه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله، فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمس، ونكب أمراء المصريين وقطع أخبارهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع اقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكّل بها وبمن فيها قراقوش الخادم، وخلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ، ثم شرع وأبطل من الأذان «حي على خير العمل»، وأنكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب إليهم، فلما رأى أمره مواتيه وأعدائه قليلون، شرع حيثنذ في الخطبة لبني العباس، ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه، وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره، وإنما فعل الملك الناصر ذلك، ووكّل الأمر إلى غيره استظهار أو خوفاً من فادحة ربما طرأت أو عدو ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك، ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب، وقال له: إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك، فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي، فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد، لم يذكر أحداً لكنه دعا للائمة المهديين، وللسلطان الملك الناصر، ونزل فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة، قال: لمن خطب؟ قيل له: لم يخطب لأحد مسمى، قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى، واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهيم حتى مات، وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعللاً

خمسة أيام، ومات، وقيل أنه امتص فص خاتمته، وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر، قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه يرفع اسمه من الخطبة، فحكى أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت أشار إلى أن العاضد قتل نفسه، وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير، قال: إن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بالحن وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا فقالوا: قد استبدل الناس بامامهم قال: وكان الرجل استقبل القبلة، وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برّاً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس مكان اللحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيل في ذلك الزمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان، وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام:

ليهنك يا مولى الانام بشارة

بها سيف دين الله بالحق مرهف

ضربت بها هام الاعادي بهمة

تقاصر عنها السمهرى المثقف

بعثت إلى شرق البلاد وغربها

بغوثة امن الآراء تحيي وتلف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يعرف
ملكته به أقصى المغارب عنوة
وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحات تابعت
إليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصرأ وقد حال دونها
من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصابة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك ويدعة
أغرّ غريبا المكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانتي ليوسف مصره
وكانت الى عيائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصابة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طي: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبي
صلى الله عليه وسلم ويوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله
على سبيل الفأل ألا تراه قال بعد هذا البيت:
فشابهته خلقا وخلقوا عفة
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من
عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة ، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكي يحثه على التعرّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر، وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرك ذلك ما كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها، فسير إليها أسد الدين كما سبق ذكره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلّوهم، وصاروا لا يقدرّون على الظهور من دورهم وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الأقطار، وتحدّث به السمار، ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمرّ بها يقول فيها: (أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الاسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية، والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفه، وعلى افتتاحها موقوفه، وعزائمننا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضيه، والأقذار في الأزل بقضاء أرائنا ونجاز مواعدنا قاضيه حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين (١٢٠) سنة ممنوعة بدعوة المبطلين. مملوءة بحزب الشياطين. سابعة

ظلالها للضلال مقفرة المحل إلا من المحال. مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها. ونظرة ستدركها. رافعة يدها في أشكائها متظلمة إليه ليكفل بإعدادها على أعدائها، حتى أذن الله لغمتها بالإنفراج ولعلتها بالعلاج. وسببت قصد الفرنج لها وتوجههم إليها طمعا في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا في الأرض وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض، من إقامة الفرض، وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجد باب مالنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك. ويورد الأدعياء، ودعاة الإلحاد بها المهالك» وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد فخرج الموكب إلى تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده، ونثرت عليه دنائير الإنعام، وحبي بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتى ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين، وقد كان كاتبه نور الدين في شوال سنة ست وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصعبة، واقتراح بكر هذه القضية وفرع الرتبة، وأيقن أن أمره متبوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام، فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدم له بها من الإشاعة، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام في مدينة السلام، ثم ذكر نسخة الكتابين،

ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قد خطبنا المستضيء بمصر
نائب المصطفى أمام العصر
وخذلنا النصر العُضد العـ
ضاد والقاصر الذي بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء، قال العماد
في كتاب الخريدة: قصدت بالعضد والعاخذ المجانسة، ونصرة وزير
الخليفة كنصرته، ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس
فأستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعو ثورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطـ
بة لله شامي في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله
وهو وجلت عن كل عدّ وحصر
فاغتنى الدين ثابت الركن في مصر
مرحوظ الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العا
دل نور الدين الكريم الأغـ
ر وبنو الأصفر القوام منـ
ه بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر وكانوا
قبله بين منكر ومقر
قل لداعي الدعي حسبك فالـ
ه أقـر الحقوق خير مقر

هو فتح بكر ودون البرايا
خصنا الله بـ افتراع البكر
وحصلنا بالحمد والأجر والنصر
ورويب الشا وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السوداء قهراً
للعدي الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدياء حقوقاً
يدعي بينهم لزيد وعمر
والذي يدعي الإمامة بالقاهر
ة انحط في حضيض القهر
خانه الدهر في مناه ولا يطـ
مع ذو اللب في وفاء الدهر
ما يقام الإمام الأبحق
ماتحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سراة بني العـ
ساس والطيون أهل الطهر
بهم الدين ظافر مستقيم
ظاهر قوة قوي الظهر
كشموس الضحى كمثل بدور الـ
تم كالسحب كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد
وبلـوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثري الرجال من ملك الما
ل ولكننا أخوال اللب مثري
ولهذا لم ينتفع صاحب القصر
وقد شارف الدثور بدثر
دام نصر الهدى بملك بني العـ
ساس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد في ديوانه، ونقلته من خطه قال: ووصل الخبر بأن الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرين شهر رمضان لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وإقامة شعار بني العباس بها، فقلت ونحن نزول بجسر الخشب من دمشق في عاشر شوال وكتبته بها إلى بغداد، فذكر هذه القصيدة.

وقال في البرق: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين بن صندل، وهو من أكابر الخدم المقتفوية من ذوي الروية والهمة القوية، وتولي استاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين عضد الدين عنها، فأكرم نور الدين بارسال مثله، إليه، وعول في هذا الأمر المهم عليه، وهو أكرم رسول، وصل فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكماً معظماً مجماً بأهبة السوداء العراقية، وحلله الموشية، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل، وعين يوم يحضر فيه الرسول، ونصبوا على من يحضر في مجلس نور الدين، واغفلوا ذكر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسول له لما حضر، وقصد أن يعرفهم منزلته عنده، وناوله الكتاب ليقراه، قال: فتناوله مني الموفق بن القيسراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريته ومماريته وتركته يقرأ وأنا أرد عليه وأرشدته في التلاوة إلى ما لا يهتدي إليه حتى أنهاء وأنا على افتياته علي لا أنهاء، فأعجب نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل الثاني والتأتي واجتباب الأهبة، ولبس الفرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقها، وخرج وركب من داخل القلعة وهو حال بما عليه من الخلعة، واللواء منشور، والنضار منشور، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبه، والآخر بحليته مجنوبه.

قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين فقل لي هما للشام ومصر، وللجمع له بين البلادين، وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى

الميدان الأخضر، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمصدر، ليقفا بالأعظمين السرير والمنبر، وكان وزن الطوق مع اكرته ألف دينار من الذهب الأحمر، وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً رائعاً رائعاً لجماله وكماله لائقاً، لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجمل وأكمل، فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحظى به، وسير أيضاً بخلع من عنده يكرم بها أصحابه، ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وأنس من السعادة الدائمة بقبسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ورايات سود وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية، فسيرت إلى صلاح الدين، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى.

قال ابن أبي طي: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة، أمر بالقبض على القصور، وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جلييلة من ملابس وفرش وخيول وخيام، وكتب وجواهر، ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر هو قطعة واحدة، وكان سميت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج، ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المائع، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجواهر، فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرقه السلطان على نسائه، وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره لأنه ضرب به فحبق، وأما الأبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد، واحتاط السلطان على أهل العاصد وأولاده في

موضع في خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حراً وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع بالقصر مدة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير، حيث شغف بحبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألفها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد، واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري، ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتورا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

قال: وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه، ويجدّته عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور، وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم؟ قال: نعم طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه، وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقييتكم وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأخذت ذخائر القصر ففصلها، كما سبق، ثم قال: ومن جملتها الكتب فلما أخذت منها جملة في سنة إثنين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلده، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدي، وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام، وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره، وشرع كل من سكن في تخريب معمورة، وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرت سكناه فيه، وخطب لإمامنا المستضيء في قوص وأسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد، وشاعت البشائر، وذاعت المفخرة، وسار بها البادي والحاضر، وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم املكها أمراءه، وخص بها أوليائه، وباع أماكن، ووهب مساكن، وعفى الآثار القديمة، واستأنف السنن الكريمة.

وقال ابن الاثير : لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره، اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمرائه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيبي الزمرد، طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس، ومات العاضد، انقضت تلك الدولة، وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الدلة، واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه، وفيهم يقول العرقلة:
أصبح الملك بعد آل علي

مشرقا بالملوك من آل شاذي

وغدا الشرق يحسد الغرب للقبو

م ومصر تهزم وعلى بغداد

ما حووها إلا بحزم وعزم

صر صليل الفولاذ في الفولاذ

لا كفر عون والعز يزومن كا

ن بها كالخصيب والاستاذ (١٢١)

يعني بالاستاذ كافور الاخشيدي، وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، وأظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد

هذا من نسل القدّاح الملحد المجوسي، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سليمة من بلاد الشام، وكان حدّاداً و عبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علوي فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه، وهو ما قدّمنا ذكره، ثم ترقّت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهديّة بالمغرب، ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً عدوّاً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، متسترّاً به، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم وضلالتهم: (والله متم نوره ولو كره الكافرون (١٢٢)) ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرّون به إذا أمكنتهم الفرصة، وإلاّ أسروه والدعاة لهم منبشون في البلاد يضلّون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة، وفي أيامهم كثرت الرافضة، واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام، كالنصيرية والدرزية والحشيشية نوع منهم، وتمكّن دعائهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم، وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي، وتقدّمه مثل صلاح الدين، فاستردّوا البلاد وأزالوا هذه الدولة عن أرقاب العباد، وكانوا أربعة عشر مستخلفاً، ثلاثة منهم بإفريقية وهم الملقبون: بالمهدي، والقائم، والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون: بالمعز، والعزیز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاقد، يدعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة

العلوية، وإنما هي الدولة المجوسية واليهودية الباطنية الملحدة، ومن قباحتهم أنهم كانوا يأمرؤن الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها، وخطب عبدهم جوهر الذي أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية بنفسه خطبة طويلة قال فيها: « اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهديّة معد أبي تميم، الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتجبين الأئمة الراشدين، » كذب عدوّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولا في ذريته الباقين، والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل رحمة الله عليهم، وعلى مثاهم من الصدر الأول وقد بين نسبهم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلف من الأئمة والعلماء، وكل متورع منهم لا يسميهم إلا بني عبيد الأذعياء، أي يدعون من النسب بما ليس لهم، ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب فإنه كشف في أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه، وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه، دعي من الأذعياء ممخرق كذاب، وهو أصل دعاة القرامطة لعنهم الله، وأما القاضي عبد الجبار البصري فإنه استقصى الكلام في أصولها، وبينها بياناً شافياً في آخر كتاب تثبیت النبوة له، وقد نقلت كلامهما في ذلك وكلام غيرهما في مختصر تاريخ دمشق في ترجمة عبد الرحيم بن الياس، وهو من تلك الطائفة الذين هم بشس الناس، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الاسلام، وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشعر عند استماعها، ولكن لا بد من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لمن لعله يعتقد إمامتهم، ويخفى عنه محالهم ولم يعلم قباحتهم ومكابرتهم، وليعذر من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلل عدّتهم، وأفنى أمّتهم، وأطفأ جهرتهم، ذكر عبد الجبار أن الملقب بالمهدي لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبّحون في فرشهم،

وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين، وأكثر من الجور واستصفاة الأموال، وقتل الرجال، وكان له دعاة يلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم: « هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه » ويقولون لآخرين: « هو رسول الله وحجة الله ». ويقولون لآخرى: « هو الله الخالق الرازق » لإله إلا الله وحده لا شريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شر أبيه أضعافاً مضاعفة وجاهر بشتيم الأنبياء فكان ينادي في أسواق المهديّة وغيرها: « ألعنوا عائشة وبعلها، ألعنوا الغار وما حوى » اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين، وألعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين، وارحم من أزالهم، وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم، وأصلهم سعياء، ولقهم ثبورا، واسكنهم النار جمعا، واجعلهم ممن قلت فيهم: (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١٢٣)).

رجعنا إلى الأصل، وبعث إلى أبي طاهر القرمطي المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين، واحراق المساجد والمصاحف، وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مغلداً، الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذكره وسلخه وصلبه، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردّ مهم خوفاً من أن يشور عليه ناثر مثل أبي يزيد، وقام بعده ابنه الملقب بالمعز، فبث دعائه فكانوا يقولون هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم، واحتجب عن الناس أياماً، ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلات قلوب العامة والجهال منه، وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزية، واستدعى بفضيه الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي، ويعرف بابن

النبلسي فحمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسلخ حياً وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى.

قلت: وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشوارع والطرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب، ثم أمر بقلع ذلك، وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأمكنة العليا منقوراً في الحجر، ودلني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر، وفي أيامهم طوف بدمشق برجل مغربي نودي عليه: هذا جزاء من يحب أبابكر وعمر، ثم ضربت عنقه، وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل: قطع لسان، أبي القاسم الواسطي أحد الصالحين، وكان أذن بيت المقدس وقال في: أذانه حي على الفلاح، فأخذ وقطع لسانه، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النبلسي الحافظ أبو القاسم في تاريخه، وما كانت ولاية هؤلاء الملاحين إلاّ محنة من الله تعالى، ولهذا طالبت مدّتهم مع قلة عدّتهم، فإن عدّتهم عدّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيفاً وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانياً وستين سنة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم، وإبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورحم من بيّن مخزقتهم وكذبهم ومحالهم، وقد كشف أيضاً حالهم الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاشي في كتاب «الرد على الباطنية» وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده، ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها الإيضاح عن دعوة القذّاح أوّلها:

حي على مصر إلى خلع الرسن
فثم تعطيل فروض وسنن

وقال: لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو

الباطنية الملاعين، فإنهم من شر أعداء دين الاسلام، وقد خرجت من حدّ المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الاسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها، وضرر هؤلاء أشدّ على الاسلام وأهله من ضرر الكفار، إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

قلت: ثم إني لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردت كتاباً لذلك سمّيته « كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد »، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم، ووقفت على كتاب كبير صنّفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقب بالعزیز ثاني خلفاء مصر فبين فيه أصولهم أتم بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق، وما أحسن ما قال فيهم بعض من مدح بني أيوب بقصيدة منها:

أستم مزيلى دولة الكفر من بني
عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية
مجوس ومافى الصالحين لهم أصل
يسرون كفرًا يظهرون تشيعاً
ليستروا شيئاً وعمهم الجهل

أما ما فعله هؤلاء من الانتساب إلى علي رضوان الله عليه، والتستر بالتشيع قد فعله جماعة من القرامطة، وصاحب الزنج الخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عرف من سيرهم من وقف على أخبار الناس، وكلهم كذبة، في ذلك، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام

والجهال واستبأعهم لهم واستجلا بهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء، ولا يغتر بأييات الشريف الرضي في ذلك، وقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق، وقد صنف الشريف القائد [أخو محسن] الدمشقي رحمه الله كتاباً في أبطال، نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصل ذلك تفصيلاً حسناً وأطنب في ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شدّاد: واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها، ولا يبقى لنفسه شيئاً، وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقة، فأخذها نور الدين، ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الاثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمر
منها أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما، وكانت العادة
بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم،
وكان رضي الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردوا شيئاً، فجمع
العساكر من الشام والموصل والجزيرة، وبث السرايا في بلادهم بعضهم
نحو انطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب
ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيتا وعريمة،
فأخذهما عنوة، وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير،
وعادوا إليه وهو بعركة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس
يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا إلى انطاكية فلإنهم فعلوا في
ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس،
فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدد معهم الهدنة،
فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم،
فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلما نهبت
بلادهم وخربت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى
الناس أموالهم، لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع فكل
من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه، وكان في الناس من يأخذ ما
ليس له، وكان أحد هذين المضارين فيه أمانة، وكان نصرانيا فلم يأخذ
إلا ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا
السبب، وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد
إلينا سلم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خذ أنت الجميع
فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه، فلم يفعل فقال: خذ النصف وأنا
النصف واجتهد به والدي فلم يفعل، فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء
الغلام معه عدة من الأثواب السوسية وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد

حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه أن يردّها - يعني عليهم - و سأل عني وقد قصدي وهي معي، وحضر عندي الساعة وسلمها إليّ، وقال: قد تركت طريقي لتبراً ذمتي، فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والذي الرجل وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاّ يتجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده، قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعدته نور الدين أن يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم بالعزم الأجزم والرأي الأحزم، فاتفق للاجتماع عائق، ولم يقدر للإتفاق قدر موافق، فلقى في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قال ابن الاثير: في سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعاً هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رجيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برجيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك، فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح

الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها، فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام ابن أخيه تقي الدين عمر، وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وكيد وعقل وقال لتقي الدين: أقعد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال نجم الدين: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لا يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأتي حاجة به إلى المجيء يأمر بك كتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته، ويولي بلاده من يريد، وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا فنحن ممالك نور الدين وعبيده ويفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل، قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد، جعلك أهم الأمور إليه وأولاه بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا

المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين رحمه الله الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحمام

قال ابن الاثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين بالتحاذي للحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حدّ النوبة إلى باب همدان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور، فيلأن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها ولربيعها فوجد بها راحة كبيرة، كانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة من طائر إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فأنحفظت الثغور بذلك، حتى أنّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعث نور الدين

عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الريح والصيف محافظة على الثغر، وصونا من الحيف ليحامي البلاد من العدو بالسيف، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسب وتدريجها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدّم إليّ بكتب منشور لأربابها وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق نخيم بوادي اللوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادون على أهل العدوان، وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال: « هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعه. وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بآتم استطاعه. وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكائدها ومكائدها طائفة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها الميمونة المطار، مأمونة العشار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبا الكفار»

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة، وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بالطف من هذه الأوصاف

وأخصر فقال: « الطيور ملائكة الملوك » يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيها من الأمانة لا يتوهم من جهتها خيانة، فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف، رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر، قرىء على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الأمر وذلك المباشر، يقول فيه: « أما بعد فإننا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النصب عن عبادته، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده، وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقيير والفيتل، وأولانا من شجاعة السباحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النيل، فالبشائر في أيامنا تترى شفعا ووترأ، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، واسخطت الخيمة والصنایع، وأرضت المنبر والجامع، ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونظهر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرعية ضرهم الذي يتوجه إليهم، ونضع عنهم أصرهم

والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذهاب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فسيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركباً وظهراً، سراً وجهراً، لا يحل ما شدة، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمة، والذي اشتملت عليه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار مساحة لا يشوبها تأويل ولا يتخونها تحويل ولا يعتريها زوال، ولا يعتورها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيمة، من عارضها ردت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن أزالها زلت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لدينه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من خطبه، فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاية الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أوناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر، مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به.

وفيها توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقرئ النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى، وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين، وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيداب، ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النحاة الحسن بن صافي، وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء، قال: وكان نور الدين ذكياً المعيا فطنا لودعياً، لا يشتبه عليه الأحوال، ولا يتهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدّة من الأمتعة المستحسنة والآلات المثمّنة، وقطع البلور واليشم والأواني التي لا يتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخس أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلي مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار، فشكر نور الدين همته، وذكر بالكرم شميته، ووصف فضيلته وفضل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر، وتمثل بقول أبي تمام
لم ينفق الذهب المربى بكثرتة
على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد، فاستنزره وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدره من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طي: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام

أخبارها وارتفاعها، وأين صرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة، وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال، حدثني أبي قال: لم يخف حال نور الدين في كراهية الملك الناصر، ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء، وتحدث به العوام، ولاسيما حين أنفذ هذه الهدية واشتد بعد ذلك في مراسلته، وأنفذ ابن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بد من دخول مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مذ ملكت مصر، وتوجه له فيها النصر، يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلف الجهاد، وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدي من نفسه بما يريد، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده، فلما حمل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصله، تقدم إلى الموفق خالد بن القيسراني أن يمضي ويطلب، ويقتضي ويعمل أيضا بالأعمال المصرية جزازة، ولا يبقى في نفوس ديوانه من أمرها جزازة، وأرسل معه الهدايا والتحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الانشاء، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل

والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين وقوبلت بالاحسان والتحسين، ووصلت الحمارة، وكثرت لها النظارة، وأما الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسع وستين ونحن بحلب في الميدان الأخضر، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحفة الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين

إلى بغداد هدية للخليفة مع ما سيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمار العتابة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

فصل

في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرها من الحصون، فبرح بها وفرق عنها عربها، وخرب عماراتها، وشتت على أعمالها سراياه بغاراته، ووصل منه كتاب بالمثل الفاضلي: «سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه، ومد أبدأ إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانة، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنتهم، ويفلأ أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم، وأبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الايمان، وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً.» ثم ذكر باقي الكتاب.

قال ابن شدّاد: وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد

عنها، ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل ثواب القصد، وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بهسنى في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كنزها سمائها، وكل منا يمدحها ويحبها يمنحها، وكل منا يطربها، فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت:

ليس في الدنيا جميعا
بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها
في مسيل الله عشقي
والتقى الأصل ومن
يتركها يشقى ويشقى
كم رشيق شاغل عن
بسهم الغزور مشقى
وامتشاق اليأس يغني
عنه بالأقلام مشقى

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيات في معنى الجهاد على لسانه

فقلت:

للغز ونشاطي وإليه طربي
مالي في العيش غيره ممن أرب
بالجهاد وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لأراحة في العيش سوى أن أغز
وسيفي طربا إلى الطلى يهتز

في ذل ذوي الكفر يركون العز
والقدرة في غير جهاد عجز

وقلت أيضا:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب
والراحة في سواء عندي تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب
والعيش بلا جد جهاد لعب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على زرا من ناحية حوران وهم في جمع غلبت كثرت الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بسمسكين (١٢٥)، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى القوار ثم إلى السويداء ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين في عشترا، وقد سره ما جرى، فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتسم خلوتها، فأدلت تلك الليلة وحدثت في شن الغارة غدوتها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان، وثبت من ثبته الايمان، حتى عبرت السرية، وانفصلت تلك القضية، ورحل نور الدين من عشترا، فنزل بظاهر زرا، قال العماد:

وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى، فمدحته بقصيدة

عقدت بنصرك راية الايمان

وبدت لعصرك آية الاحسان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ
— صيد الليوث وفارس الفرسان
ياسالب التيجان من أربابها
حزت الفخار على ذوي التيجان
محمود المحمود ما بين السورى
في كل اقليم بكم كل لسان
يا واحد في الفضل غير مشارك
أقسمت مالك في البسيطة ثاني
أحلى أمانيك الجهاد وإنه
لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم بكر فتح أولدته ظباك من
حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها
قد سار في الأفاق والبلدان
قمصت قوم مصهم رداء من ردى
وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركهم
بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم
وسحبتهم هونا على الأذقان
إذ في السوابغ تحطم السمر القنا
واليض تخضب بالنجيع القاني
وعلى غنماء المشرفة في الطلى
والهام رقص عوالي المزان
وكان بين النقع لمع حديد لها
نارتألق من خلال دخان
في مازق ورد السورى دمكفل
فيه برى الصارم الظمان

غطى العجاج به نجوم سائه
لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا
طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
في حيرة وأتوا إلى حوران

ومنها:

وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً
والكفر منك مضطرب الأركان
قوضت أساس الضلال بعزمك الـ
ماضي وشدت مباني الأيمان
قال أين مثلك في الملوك مجاهد
لله في سر وفي إعلان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة
لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلاً بالذي
لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقا صيها إذا
حققت له لنفاذاً مـرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
مصر إلى قـوص إلى أسوان

لم تله عن باقي البلاد وإنما
الهالك فرض الغزو عن همدان
للروم والأفرنج منك مصائب
بالترك والأكراد والعربان
اذعنت لله المهيمن اذعنت
لك أوجه الاملاك بالاذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته
ملآن من عرف ومن عرفان
في بأس عمرو في بسالة حيدر
في نطق قس في تقى سلمان
سير لو أن الوحي ينزل أنزلت
في شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل العمر ممتد المدى
صيا في الحياة تخلص السلطان
وهي قصيدة طويلة وصف فيها امراءه الحاضرين الجهاد معه
ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبة وأراهم سطاه المروية، وفتح حصنا لهم يعرف بابريم، وكان لايريم، وهي بلاد عديمة الجدوى، عظيمة البلوى، ثم رجع بالسبي وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه في الغنائم السودان.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأمير كنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخرجوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى وأسر من وجده فيها، وهرب صاحبها، وكتب إلى السلطان بذلك، فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها:

فقدّم العزم فذا مبتداه

يقصر عن ملك الأرض منتهاه

واسحب ذيول الجيش حتى ترى
أنجمه طالعته عن دجائه
سواك من القى عصاه بها
قناعه لما استقرت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا
ج إذا شئت وتور انشاه
فقد غمدت إبرييم في ملكه
تبرم أمرا فيه كبت العداه
لابد للنوبة من نوبة
ترضى لسخط الكفر دين الاله
تظل من نوبة منسوبة
لعزمة كامننة في أنياه
تكسو الغزاة القاطني أرضها
مانسجت للحرب أيدي الغزاه
سودو وتحمر الظباج حولها
كأعين الرمد بدت للأساه
أولافهم ربحهم القنا
مثل دنان بزلتها السقاء
لله جيش منك لا يثنى
إلا بنصل دميت شفرته
ما بين عقبان ولكنهما
خيال وفرسان كمثل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم
أساور الطعن فهم كالخواه
تقلدوا الأنهار واستلأموا الاله
غدران فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته
أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم

فاقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة، حتى برّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدواً إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية، فكتب له جواب كتاب ماعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جواب إلا هذا، وجهاز معه رسولاً يعرف بمس ود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة وهي مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صبغار منه أدامهم، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عربيا، وقد التف في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر، قال: فأتيت فسلمت عليه، فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني، قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها اخصاص.

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلوا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدم ذكره، رحمهم الله.

قال القاضي ابن شدّاد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله، وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

مشهده الحسره، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبره، فيا له فقيداً،
فقد عليه العزاء، وهانت بعده الأرزاء، وانتشر شمل البركة بفقده فهي
بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفته يد الردى في غيبي
هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع

قال ابن أبي طي الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي،
ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي، وحدثني أبي رحمه الله قال: كان
تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول: شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابن أبي طي: وقد ادّعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن أنهم
من بني مروان بن محمد الجعدي المعروف بالحمار، يعني آخر خلفاء بني
أمية، قال: وقد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا
كذب، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جداً فوق شاذي، وكذلك أخبرني
السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي
بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي،
وابن سيف الاسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب
ابن شاذي إن أخي السلطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه،
وتعاضم إلى أن ولى نفسه الخلافة، وادّعى أنه من بني أمية، وعزم على
إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة،
وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير
من الشعراء بذلك، وزينوا له فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنسى أنا الهادي الخليفة والذي

أدوس رقاب الغلب بالضمم الجرد

ولا بد من بغداد أطوي ربوعها
وانشره ————— انشر السماسر للبرد
وانصب أعلامي على شرفاتها
وأحيي بها ما كان أسسه جدّي
ويخطب لي فيها على كل منبر
وأظهر دين الله في الغور والنجد

قال ابن أبي طي: وكان نجم الدين أيوب عدلاً مرضياً، كثيراً الصلاة والصلاة، غزير الصدقات والخيرات، يحب العلماء ويميل إلى الفضلاء، وكان ممدحاً مدحه العماد الكاتب بجملة قصائد، قال: وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ، وحدثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور، وربي في بلد الموصل، ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السلطان محمد بن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكرت، فقام في ولايتها أحسن قيام، وضبطها أكرم ضبط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث، حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها، فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكرت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق، وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر الأمير نجم الدين في ولاية تكرت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بهروز قلعة تكرت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومعذوقاً بهمته، وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة، وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه.

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرظة وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثرة خيره أشياء حسنة، وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني، وأمره بقتله فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني، ثم إن السلطان مسعود أحشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجرده عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد واتصل الخبر بقراجه الساقى وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدة جراحات، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه (١٢٦) إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقرباً إليه، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنها أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته، فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطفاء مدة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدة قطائع، وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً بأسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لا يفارق القلعة، ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة ممضية فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني، وأخذ النصراني

برجله فألقي من القلعة، وبلغ بهروز صاحب قلعة تكرت ما جرى، وحضر عنده من خوفه جراءة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربها كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين، وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، وأعظم أهل تكرت خروج نجم الدين من بين أظهرهم، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه، وأظهر البكاء والأسف على مفارقتهم، ولما اتصل باتابك زنكي قدومهما أفرجه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهرزور اقطاعاً سنياً، وقيل إنه أقطع أسد الدين بياالموزر، وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين، حتى قريهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار، وقتال الفرنج لعنهم الله، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفعلة الغراء، وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح، قال: حدثني حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوة بني العباس في أول سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر،

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول، فبينما الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر، ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين، وقال: صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل عليّ الخروج منها والتحوّل عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتشأمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم افرح به، ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن أذن له في الكلام، فأذنت له فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبها استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه، قلت ولعمارة في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله:
نغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العزم متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجاً ومعتمراً
كأنما حلل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر
فقار عوا عنه فهو اليوم منتظم
ومادري أحد من قبل رؤيتهم
أن الحظوظ بك هم الأرض تقتسم
نامت عيون الوري في عدل سيرتهم
كأن يقظتنا في عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة
إذا الحوادث لم يكشف لها غم
أعز بالأس والاحسان حوزتنا
فلم يلهم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك
تنحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال في مرثيته:
هي الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقهاها تضاعف أجره
أذم صباح الأربعاء فانه
تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة
تداعى سبائك الجؤ منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله
يراع بها نيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضيغم
فرى نابه أهل الصليب وظفره

فلما قضى نجبي حياة ودولة
بأمرك في ادراكها تسم أمره
تعاقتها مصر أعقاب وإبل
يبست بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها فحللتها
فمغناك مغناه وقطرك قطره
وواخيتيه في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القبر رار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما
وإلا فسكان الحجون وحجره
هنيئاً الملك مات والعز عزه
وقد رتبه فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده
ومأطال إلا في رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بني ابنائه ما يسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم
فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره
لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حى حوزة الاسلام والدين بعده
ثمانيئة من أجلهم عز نصره
فكيف بخيس آل أيوب أسده
لقديان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس إنه
أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى المقام الناصري فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضاً:

صفوا الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الموت لا ييقني ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا
فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس إذا ما الردي حيا الحياة بها
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لا قى الذل من يدها
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
في كل جيل وعصر من وقائعها
شعواء يقطر منها الناب والظفر
أودى علي وعثمان بمخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى في مصيبتها
فللسوري برسول الله معتبر
نجم هوى من سماء الدين متكدر
والنجم من أفقه يهوي وينكدر
منظومة أنجم الجوزاء من جزع
له وعقد الثريا منه منتشر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن
نعماه في كل عيش صالح أثر
جددت من أسبد الدين الشهيد لنا
حزنابه يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
إن فاح نشر كلام تمدحان به
مسكا فطرة أيوب هي العطر

تخفي ذبال مصاييح إذا طلعوا
صبحا وتنسي ملوك الأرض إن ذكروا
كأنما صور الله الكمال بهم
شخصا ويوسف منه السمع والبصر
لا شوبك منه معصوم ولا كرك
ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلاً إلا وساكنها
إمام باح حماء أودم هدر
مامات أيوب إلا بعد معجزة
في المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيداً من الدنيا وليس له
في رتبة أرب باق ولا وطر
وطول الله منه باع أربعة
منها الندى والتقى والملك والعمر
واشرف الملك ما امتدت مسافته
في صحبة أخوها العقل والكبر
ومن سعادته أن مات لاسام
يشكوه منه معانيه ولا ضجر

فصل

قال: العباد وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل
هناك من الأحوال، فسار إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل
في كل منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك
الروم، ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة، ثم فتح بهسنى، واتبع
في كل منهما الطريقة الحسنى، وكتب العباد إلى صديق له بدمشق، وكان
سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتابي فديتك من مرعش
وخوف نوابها مـر عشي
ومامـر في طرفها مبصر
صحيح النواظر إلا عشي
وما حل في أرضها أمن
من الضيم والضر إلا عشي
ترنحني نشوات الغرا
م كاني من كأسه منتشي
أسر وأعلن بـرح الجوى
فقلبي يسرود معي يـشي
بذلت مهجتي رشوة
فحاكم حاكم مـر عشي
وكيف يلذ الكرى مفرم
بنار الغرام حشاه حني
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونمي حديثها إلى نور الدين، قال: فاستنشدنيها فأنشدته إياها، ونحن سائرون في واد كبير، مع بيتين بدهت بهما في الحال وهما:
وبالملك العادل استأنست
نجاحا مني كل مستوحش
ومافي الأنام كـريم سوا
هـ فإن كنت تنكر ذافتش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونية وأقصر، عازما على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند،

صاحب ملطية وسيواس وغيرها من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعد النصر والسعى في ردّ ملكه إليه، وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر، وغيرها، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً ورفقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأثابه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: «إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام، وترك الروم وجهادهم وهادنتهم، فأما أن تكون تنجدي بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»، وذكر أموراً غيرها فلما سمع قليج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبتة إلى ما طلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عيد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق، وشرع نور الدين في انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا ما كان بناءه نور الدين، ومن بعده منها، وهو موضع المسجد والمحراب الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لانظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين، وقد وقف كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته رحمه الله.

قال العماد: وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية، ورغبه في المقام بالاحسان إليه بالشام، ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية، كان قد أنفذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه: « فلينظر في رباط السمسياطي،
وقبة الطواويس، ورباط الطاحونة وغيرها من ربط الصوفية بدمشق
المعمورة وبعلبك، ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل
الرحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين
الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

مـ ا ر ا ق د ا ت فـ ي ص ح ر و ن
م س ت و ط ن ا ت فـ ي س ك و ن
أ و ك الع ا ل ع ا ت ل فـ ي ال خ د و
ر ق د ا ع ت ق ل ن ع لـ ي د ي و ن
أ و ك ا ل ت م ا ت م ل ل ص ح ر ا
ف و م ا ن س ب ن إ لـ ي ج ن و ن
ص ر ع لـ ي و م ا د ا م ت ل ه ا
ي و م ا ر ح لـ ي ال ح ر ب ال ز ب و ن
ي ح ي ن ب ا ل ت غ ر ي ق ب ل
ي س م ن فـ ي ض ي ق ال س ج و ن
ن ض د ن ب ا ل ت ر ص ي ع فـ ي ال
ج ا م ا ت ك ا ل د ر الم ص و ن
و ق د ا ش ت م ل ن م ن الل ط ا
ث ف و ال ص ف ا ت ع لـ ي ف ن و ن
ي ج لـ ي أ م ث ا ل ع ر ا
ث س ب ي ن أ ب ك ا ر و ع ي و ن
ه ن الل ذ ي ذ ا ت الل و ا
ث ذ ب ا ل س ه و ل م ن ال ح ز و ن
ال س ك ر ي ا ت ال غ ر ي
ق ا ت ال غ ل ا ت ل و الش و ن
ل ل ف ن فـ ي أ ك ف ا ن ه ن
ع لـ ي الم ن س ل ل ل م ن و ن

- 1.98 -

المستطابات الظهـو
 والمستلذات البطـون
 المستقيبات الصفـوف
 وقفن كالخيـل الصفـون
 اسمع حديثي في انبـسا
 طي فالحديث أخـو شـجون

وهي أكثر من هذا

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدّم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوّته على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت أذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدّمي الروم ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه: «وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مرضي الامام»، وفي آخره «ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل الإسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السّؤال بعنقاء مغرب».

قلت: اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية، مع طائفة من الترك، فانضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهديّة وسفاقس وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: «ونسأل الله التوفيق لاستدناه قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتوح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجمع بلاده» وسير العماد معه قصيدة منها:

بالمستضيء أبي محمد الحسن
رجعت أمور المسلمين إلى السنن
في أرض مصر دعاه خطباؤها
وأنت لتخطب بكر خطبته عدن
فالمغرب الأقصى بذلك مشرق
وبنصر مصر محقق يمن اليمن
ورأى الاله المستضيء لشرعه
وعبداده نعم الأمين المؤمن
سر النبوة كما من فيه ومن
فطر الامامة مشرق نور الفطن
تقوى أبي بكر ومن عمر الهدى
وحياء عثمان وعلم أبي الحسن
وبجده عرفت مقالة حيدر
لامن دد أنا ولا مني السددن
كم من عدو ميت في جلده
رعبا وخوفا فهو حي في كفن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :
هل مثل محمود بن زنكي خلص
متوحد يبغي رضاك بكل فن
ورع لدى المحارب أروع محرب
في حالتيه إن أقام وإن ظعن
يمسي ويصبح في الجهاد وغيره
يضحي رضيع سلافة وضجيع دن
وبعزة الاسلام متصرا حرا
وبذلك الاشرار متفقا قم

قال ابن أبي طي: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد
ومعه توقيع لنور الدين بدر بن هارون وصريفين، وخمسين ديناراً من

دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديماً من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم في حقه فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثاله الشريف إليه، وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضاً يبنّيها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر والذكر الباقي على عمر الدهر، فقليل له ما ثم موضع يصلح لهذا إلا درار التمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الأمر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود ابن قفجاق صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجلد فسرّحهم بالعطاء الأجل، والسمت الأجل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفرة فتقبله مستخلف الأرمن بالبراق، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار، وعاد إلى حلب، وقد أنجح في كل ما طلب، وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتأث سره لالتياث سريته وحظي بمرض القلب لمرض جسم عظيته، وجرت شكايته شكاية جاريتة، فتصدّق عنها بألوف، والتزم الله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على يدي الرجال في خفة، وسارت على الطريق المهيح مع العسكر يحملها من الخدم والخواص العشر بعد العشر، فما تقرب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدّم بحق لازم من بخدمته شيعها، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه وأمراته المباحضين في ولايته، وتقدّم إلي أن أسايره في طريقه وأحاوره وأحاضره في منازل وأسامره، وسرنا على طريق قبة ابن ملاعب والمشهد وسلميه، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرقوا وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة، وعواد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغائه الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون، من جائزات الرسوم، وما نزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرى أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي

رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بضيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور، والعقبة ومزارعها الجارية في الاملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه واليم عقابه، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين».

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجه تورانشاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن، فملكها وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زيد، فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز من القلاع، ففتح اقلياً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بكراً، وشيع ذكراً.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين، رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته، وقوة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن انساناً

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق، سمعت منه — يعني من صلاح الدين رحمه الله — الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عمارة اليمن في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أمائل الناس، مثل بركات المقرئ وعلي بن محمد النيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن، وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وأدعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدث نفسه بالمسير إلى مكة فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه، وله شعر حسن يدل على علو همته (١٢٧).

قال ابن أبي طي: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته، ولا ينهض بمروته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أولها:

العلم مذكأن محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم ترك البيض في الأجفان ظامئة
إلى المواردي الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن
فلاترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سؤمها
من الفرات إلى مصر بلا سام
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به
إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الوري الحما على وضهم
وقد ترقى إلى أن امسكت يده
من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل
نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى:
أفتح أرض النيل وهي عظيمة
على كل راج فتحها ومؤمل
متى توقد النار التي أنت قاذح
بغمدان مشبوب أسناتها بمندل
وتفتح مابين الحصين وابين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من خلاف طرق وجعفر
نقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكاً لا يحيل بفخره
على أحد إلا على عزمك العلي

وله من أخرى:
قالوا إلى اليمن الميمون رحلته
فقلت ما دونه شيء سوى السفر
سير يسر بني الدنيا وطيب ثنا
وطول عمر كذا يحكى عن الخضر
لا توقدن لها النار التي خدت
خفض عليك نمل ما شئت بالشر
المال ملء يد والقوم ملك يد
ولا أطيل وهذا جملة الخبر

قال ابن أبي طي: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تحدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوّده فوق ما كان في نفسه، وأصبحه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عن سيرة من حلقتة، وسار في البر والبحر، في البر العساكر، وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن فوصل زبيد في أوائل شوال، فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني، وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم، وعدد كبير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل إلى عدن، وفي صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاهها عز الدين الزنجيلي، ثم سار إلى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلا شيخاً وامراً عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة.

فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان

شمس الدولة قد استناب بزييد الأمير سيف الدولة المبارك ابن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله، فقتله ابن منقذ بزييد، فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما حصل شمس الدولة في زييد انفذ إليه صاحب طمام (١٢٨) وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان وخوِّله من ملك الديار والبلدان، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على ابن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد هاهنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ، المستناب بزييد ووصفه بأنه من الكفاة والكرماء، والدهاة ذوي الآراء، وهو فاضل من أهل بيت فضل، كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتهها
مقبوسة في الليل من نبراسه
وكان ما في كأسه من خده
وكان ما في خده من كأسه
وكان لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائها
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقيني المدام وكلما
عاتبته رد الجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية، ما
أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأدق معنى أولها:
لك الخير عرج بي على ربهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

يقول فيها
مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين أحدهما فتح
اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية، ومقدمهم الدوقس كلمان، وكان
قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف
دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلساً، وسير معه أسرى من الروم، وذلك
في شعبان هذه السنة، ومما تضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة
آلاف غير عشرة (حمر مستنفرة. فرت من قسورة) »، وقبل ذلك بشهرين
سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد
أولها:

أطاع دمعني وصبري في الغرام عصي
والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وإن صفو حياتي ما يكدره
إلا اشتياقي إلى أحبابي الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا
وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها:
من ذا الذي سار سيري في ولائكم
غداة قال العدى لاسير عند عصا

قد نال عبدك محمود بها ظفراً
ما زال يرقبه من قبل مرتبصاً
من خوف سطوته إن العدو إذا
أم الثغور على أعقاب به نكصاً

وكلف نور الدين في هذه السنة بافادة الألفاف، والزيادة في الأوقاف،
وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النسوة والأيامى في أيامها،
وإغناء فقراء الرعية وإنجاءها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل
ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله، ثم ذكر ما قدّمنا ذكره في
أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على
العادة، وجلسنا نحن في ديوانه حافلين في إيوانه لبسط عدله وإحسانه،
وتنفيذ أوامر سلطانه، فجاءني من أخبرني أن نور الدين نزل إلى المدرسة
التي أتولاها، وبسط سجاده في قبلتها لسنة الضحى وصلّاها، فقامت في
الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدهليز خارجاً في أجر
العبادة ناجحاً، ولنهج السعادة ناهجاً، فلما رأي توقيف، ولقولي تشوّف،
فقلت له: إن الموضع قد تشرف، أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعث،
فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة، ثم
حملت له وجوه سكر وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبت معها هذه
الآيات:

عنـد سـليمان على قـدره
هـديـة النـملة مقبـوله
ويصغر المملوك عن نملة
عندك والرحمة مأمولة
رقي لمولانا وملكبي له
وذمتي بالشكر مشغولة

وكيف يقضي الحق ذو منة
ضعيفة بالعجز معلولة
وإنما شيمه مولى السورى
طاهرة بالخير مجبولة

قال: وكان رأى قبلة المدرسة غير مفصصة، وبالترخيم والتذهيب والتذهيب غير مخصصة، فأنفذ لي لعمارتها فصوصاً مذهبة وذهباً، ثم حم مقدور حمامه، وعاق القدر عن اتمامه، ودفعت إلى الموصل، فرأيت في المنام وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصلاة الصلاة، فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه للآن على هيئة الخراب، فكتبت إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسراني إلى الديار المصرية، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من المغل، فصعب على السلطان، وأراد شق العصا لو لا ما ناب إليه من السكينة والعقل فأمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: وقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني، وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة

بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب يانس، وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادي * ثلاثة أحجار بلعش: حجر وزنه إثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه إثنا عشرة مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف * ست قصبات زمرد قصبه وزنها ثلاثة عشرة مثقالاً وثلاث وربع، وقصبه وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبه وزنها مثقالان ونصف، وقصبه وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبه وزنها مثقالان وثلاث * وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل * وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس * مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً * خمسون قارورة دهن بلسان * عشرون قطعة بلور * أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها. إبريق يشم * طشت يشم * سقرق مينا مذهب * صحون صيني وزبادي وسكارج * أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار * كرتان وزن أحدهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى أحد وعشرون رطلاً * مائة ثوب أطلس * أربعة وعشرون بيقاراً مذهبة * أربعة وعشرون ثوبا حريري * أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض * حلة فللي مذهبة * حلة مرايش صفراء مذهبة، وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه، قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين، فأنفذ من ردها.

قال: وحديثي من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره.

وقال العماد: لما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد أطلعته على كل ما هو فيه، وأحصى له الطريف والتالد، وقال: هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم، وما يضبط مثل هذا الاقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها، فالموارد مشفوهة، والشدائد مكروهة، والمقاصد بردها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة، وشرع في جمع مال يسيره، ويحمله بجهد يبذله، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف مثله.

فصل

في طلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفيه، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير وتبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم، وكانوا قد أودعوا سرهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أذاعه، وأدخلوا عدّة من أنصار الدولة الناصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم، وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم، ويدخلهم في عزم خروجهم، مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدور والأملاك، وكادت أمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم وما سؤلوه من مراد مرادهم وطلب مالابن كامل الداعي من العقار والدور، وكل مما له من الموجود والمذخور، فبذل له السلطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغبه، ثم أمر السلطان باحضار مقدميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم ومات بموتهم الخبر عنهم، وكان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بابدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها والاطلاع عليها، وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام للاستعانة به على حماية ثغور الاسلام.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين

والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الدل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً ونجموا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، واعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكاتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر، وعرفه بجلية ما جرى، قال: فأحضرهم واحداً واحداً وقرره على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم، وقيل إن الذي أذاع سرهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع مال ابن الداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك، وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر، ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني، كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمنى الشاعر.

قلت: وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر لأن فيه قليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصره عنه.

قال العماد في الخريدة: وقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدّم ذكرها وأما البيت فهو هذا
قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى أن يدعو سيده الأمام

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء
مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله . (١٢٩)

قال: ولعمارة في مصلوب بمصر، يقال له طرخان، وكان خرج على
الصالح بن رزيك، فظفر به الصالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات
عمارة فيه وهي:

أراد علو مرتبة وقدر
فأصبح فوق جذع وهو عال
ومدّ على صليب الجذع منه
يمين لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعناب قلب
دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقال في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى
دمشق كتاب يتضمن هذه القضية، وهو بخط ابن قريش يعني المرتضى.

وقال ابن أبي طي: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً
شرح فيه قضية المصلين، فقال بعد مطلع الكتاب: « قصر هذه الخدمة
على متجدد سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره
على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة، إلا أنها اسفرت عن
النجاح، وأوائل كالليلة البهيمية، إلا أنها انفرجت عن الصبح، فالإسلام
ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطناً، بعد أن كان غريباً،

وضرب في البلاد بجراحه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله، وأظهر على سرها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر، لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء، وإن تعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام، وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكله، وخطراته في التحرز منهم مستعمله، لا تخلو سنة تمر، ولا شهر يكر، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يرمونها، ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج، خذلهم الله التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الاقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربة الاسلام خلع المرتد المخصوص، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون جبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضاتهم، سير جرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد وكتب إلى الفرنج تتجدد، ثم قال: « والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يسيطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلي سبيلهم، ولا يزيدهم العفو إلا ضلالة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتله لارسول مجامله، وحامل بلية لاحامل هدية، فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلاً ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها

نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلاهم وكتابهم، فدرسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسده، وطائفة من هذا الجنس متمرده، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فممنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنورزيك، وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدّم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى إيله ثارت حاشية القصر، وكافة الجند، وطائفة السودان وجموع الأرمن، وعامة الاسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي إن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحده، والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمه، ولا يجب به قعود عن نصره، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيله، أو يبيت له مكيدة وحيلة، (والله من ورائهم محيط) (١٣٠) وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن، هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبع لأتباعهم، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم، إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديدده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوافيه بقيت مادة لا تحسم الأطماع عنها، فإنه قبلة للضلال منصوبة، وبيعه للبدع محجوجة — قال المؤلف: لعلها محجوبة - ومما يطرف به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه أطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره، محتقراً شخصه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وإن أرباب المعاش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن، ووجدت في منزله بالاسكندرية، عند القبض له، والهجوم عليه

كتباً مجرّدة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع
يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وكان يدعي النسب إلى أهل
القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ونشأ على الضلالة كبيراً، وبالجملّة
فقد كفي الاسلام أمره، وحق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قصيدة عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه
الله ونقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى جناية
وبايع فيها بيعه وصليبا
وأسمى شريك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خيبت الملتقى إن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليبا
صليب سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله
ويسقى صديداً في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب،
والثالث من الصلابة، والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي بسقى
ما يسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وكان عمارة مستشعراً من الغز، وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع
الدولة المصرية، ومن انتفع بها، واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب
بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي
التحرز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن
مدحهم تكلف ذلك وصريح وعرض فيه بما في ضميره، وقد قال في كتاب
الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوى
بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم، وقال من قصيدة مدح بها
نجم الدين أيوب:

وكان لي في ملوك النيل قبلكم
مكانة عرفت بها العرب والعجم
وكان بيني وبين القوم ملحمة
في حربها ألسن الأديان تختصم
وماتزال إلى داري عوارفهم
يسعى إلي بها الإنعام والكرم
ترك قصيدك لما قيل إنك لا
تجود إلا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه
ولا لنزر من الاحسان أغتنم
ولا إلى صدقات المال أطلبها
ولا عمى نال أعضائي ولا صمم
وإنما أنا ضيف للملوك ولي
دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:
قررت لي أبناء رزيك رزقا
كان في عصرهم مستنما منها
وأنت بعدهم ملوك فسنوا
في ما كان صالح القوم سنا
ورعوني إما اقتداء بها ض
أولعننى فكلهم بي يعننى

وله فيه من أخرى
فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها
فلا تشبعوا منها ونحن جوع
إذا لم تريدونا فكونوا كمن مضى
ففي الناس أخبار لهم وسامع

وليس على مرّ الفطام إقامة
فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين:
هل تأذنون لمن أراد عتابكم
أم ليس في إعتابكم من مطمع
ضيعتم من حق ضيفكم الذي
ما زال قبل اليوم غير مضيع
وتغافل السلطان عني حين لم
أكشف قناع مذلة وتضرّع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده
فسمحت لي بشفاعة لم تنفع
وإذا نطاق الرزق ضاق بمجاليه
أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضاً:
تيممت مصرأأطلب الجاه والغنى
ففلتتهما في ظل عيش ممنوع
وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم
فأحمد مرتادي وأخصب مربعي
وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرفتني من يد عاضدية
سرت بين يقظى من عيون وهجع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
بما زاد عن مرمى رجائي ومطعمي
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
فخبرته مني بأكرم مودع

وليس آيادي شاور بذميمة
ولا عهد لها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوالي حرمة صار نبتها
هشياً رعته النائبات ومارعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني باعتقاد التشيع
فقل لصالح الدين والعدل شأنه
من الحاكم المصغي إلي فأدعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب عن لسانه
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
في أراعي الإسلام كيف تركتنا
فريقني ضياع من عرايا وجوع
دعوناك من قرب وبعد فهدب لنا
جوابك فالباري يجيب إذا دعي

وقال أيضاً:
أسفى على زمن الإمام العاضد
أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من
أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خللت
يابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكر الذي
كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فكبا وقصر عن صلاح الفاسد

فمضى الليالي أن تـردّ إليكم
مـاعودتكم من جميل عوائد

وقال أيضا:

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف
عليّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة
كلام العدى فيها عليّ كل يوم
وسامحه في قطع رزق بفضلـه
وصلت إليه والزمان ذميم
ألا هل له عطف عليّ فإنني
فقير إلى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله، وبلغني أن عبارة لما مروا به
ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقليل ليس
إليه طريق فقال:

عبد الرحيم قد احتجب
إن الخلاص هو العجب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج،
والخوض في فساد الدولة، بل المله، وتوضح عذر السلطان في قتله، وقتل
من شاركه في ذلك، وهي:

رمى يادهم كـف المجد بالشلل
وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعى في منهج الرأي العثور فمن
قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت ما رنك الأقفى فأنفك لا
ينفك ما بين نقص الشين والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلاً ما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلافتها
من المكارم ما أرى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألف ومن
كما لها أنها جاءت ولم أسـل
وكنـت من وزراء الدسـت حيث سما
رأس الحصان تهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش نكرمة
وخلعة حرسـت من عارض الخلل
ياعاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين وابك معي
عليهما لا على صفين والجمـل
وقل لأهلها والله ما التحمت
فيكم قروحي ولا جرحي بمنـدمل
ماذا ترى ك انت الأفرنج فاعلة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتـم عليها واسـم جدكم
محمد وأبيكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعادي ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسف دمعي غداة خللت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ماترات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديدا عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجميل
وأول العام والعيدان كان لكم
فيه من وبلى جود ليس بالوشل
والارض تهتز في عيد الغدير يا
تهتز ما بين قصر يكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية
مثل العرائس في حل وفي حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت روايتكم للذمتين وللضيـ
ف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدق في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها
منكم ووضحت بكم محلوله العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العليا، والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدتهم، وعضد عاضدهم، وأخلت منهم مصرهم. وأجلي عنهم قصرهم، فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشدة منهم، فأمال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تحيلوه من المقاصد وسؤلوه من المكاييد. فأثمرت بجشهم الجدوع. وأقفرت من جسومهم الربوع. وأحكمت في لحومهم النسوع. وهذا أول من ضمه حبل الصليب. وأمه فاقره الصليب. وهذا صنع الله فيمن ألد وكفر النعمة وحجد. وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة، سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره. وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب. ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء. وأنشدهما للملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يارافيا خرق كل ثوب

ويارشاحبه اعتقادي

عسى بكف الوصال ترفو

ما مزق الهجر من فؤادي (١٣١)

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن اليميني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب — يعني كتاب البرق الشامي — لمعاً من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو

محمد بن مصال:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي
لملكته وكظمت غيظ الأدمع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق
بالكظم:

قلب كفاك من الصبابة أنه
لبى نداء الظاعنين ومادعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي
بعد اليقين بقاءه في أضلعي
ما لقلب أول غادر فألومه
هي شيمة الأيام مذ خلقت معي
ملك إذا قابلت بشر جبينه
فأرقت له والبشر فسوق جبينني
وإذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوك يمينني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ
يقول:

لي في هوى الرشاء العذري أعذار
لم يبق لي مذ أقر الدمع انكار
لي في القصد ودوفي لثم الخدود وفي
ضمم النهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق أن رضيت به
أولاً فدعني وما أهوى واختار
لني جزافاً وسامحني مصارفة
فالناس في درجات الحب أطوار
وخل عذلي ففني داري ودائرتي
من المهادة قلبي لها دار

قلت: ويروي: «وخل غيري ففي أسري ودائرتي» والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب، وكان عمارة هذا عريباً فقيهاً أدبياً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن. وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بدم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلماً بيت شعري، فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهج أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح — يعني ابن رزيك — بيتي شعري، فاقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت متأولاً قول الله عز وجل: (ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (١٣٢) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (١٣٣) قال: ولم يكن شيء غير هذا

وحجبت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسائة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم ابن فليته، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزميني السفارة عنه، والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمس، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمداً يقوم بها أولت من النعم

لا أجحد الحق عندي للركاب يد
تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العزم من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفدأ إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أني بعد زورته
ماسرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها
بين النقيضين من عفو ومن نقم
ولإمامة أنوار مقدسة
تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلام تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى ألسن تثني محامدها
على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها
يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغم
اللابس الفخر لم تنسج غائله
إلا بيد الصنعتين السيف والقلم
وجوده أو جد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعدم

قد ملكته العوالي رق مملكة
تغير أنف الثريا غرة الشمم
أرى مقام أعظم الشان أوهمني
في يقظتي أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل
ولا ترقبت إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنولي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
تري الوزارة فيه وهي باذلة
عند الخلافة نصحا غير منهم
عواطف أعلمتنا أن بينهما
قراية من جميل الرأي لا الرحم
خليفة ووزير مدد لها
ظلا على مفرق الاسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضها
فما عسى يتعاطى منة السديم

قال: وعهدي بالصالح وهو يستعيد في حال النشيد مرارا
والاستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم
أفيضت عليّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة، ودفع إليّ الصالح خمسمائة
دينار، وإذا بعض الاستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الامام
الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معي إلى منزلي، واطلقت لي
من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي، وتهادني أمراء الدولة إلى
منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجالسة، ونظمني في سلك أهل
المؤانسة، واثالت عليّ صلاته، وغمرني بره، ووجدت بحضرته من أعيان
أهل الأدب الشيخ المجلس أبا المعالي ابن الجباب، والموفق أبا الحجاج
يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس،
والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وغيرهم، وما من هذه الحلقة أحد الا

ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الانسانية بأوفر نصيب،
ومازلت أأخذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم وقلت:
ليالي بالفسطاط من شاطئ مصر
سقى عهدك الماضي عهداً من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما
مضى في سواها لا يعد من العمر
أفادتني الأقدار فيها مواليا
صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد إرادتي
ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:
ولو لم يكن أدري بما جهل السورى
من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان مناقب قوس فيينا
فراسخ من إجلاله ومراحل

قال: وأنشدت الصالح، وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:
دعوا كل برق شمتهم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحى فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها
فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء، ولفيف
الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك، وضرغام نائب الباب، ويحيى بن

الخياط الاسفهلار فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم
وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرفت
والحمد والحمد فيهما غير منصرم
كأن صالحهم يوم ما وعاد لهم
في صدر ذال الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مائمة
بأن ذلك جمع غير منهم — زم
فمذ وقعت وقوع النسر خائهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم
ولم يكونوا عدوا ذل جانبه
ولما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك فاعذري ولا تلم
ولو شكوت لياليهم محافظة
لعهدهم لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوم ما بذمهم
لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي
والله يأمر بالاحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم
قال: فشكرني شاوور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندني في قوله: « الحمد للعيس » وإن
كانت القصيدة فائقة، ثغرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: « الحمد

- ٨١٢٩ -

الله « ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل، فله الحمد، وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدسة، وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر، وغدونا أياما، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها:

عيـدان فـطـر و طـهـر
فتـح قـرـيـب ونـصـر
كـلـهـما لـك فـيـه
حـقـا هـنـاء وأجـر
وفـيـهـا بـالـتـهـنـيـات
رـسـم لـنـا مـسـتـمـر
طـهـرة طـاب مـنـهـا
أصـل وفـرع وذـكـر
نـجـل عـلـى الطـهـر نـمـام
زكـا لـه مـنـك نـجـر
عـمـودا لـلـمـلـك العـمـاد
لـكـر يـم الأـغـر
وبـابـنـه المـلـك الصـا
لـح العـيـون تـقـر
مـولـى بـه اشـتـدّ لـلـديـر
نـور تـجـلـى عـيـانـا
مـادونـه الـيـوم سـتر
أضـحـت مـسـاعـيـك غـرا
كـما أـيـادـيـك غـزر

وكل قصـدك رشـد
وكل فعلـك بـر
وإن حبـك ديـن
وإن بغضـك كفـر
لنـا بيـمناك يمـن
كما يسـراك يسـر
وللمـ واليـن نفـع
وللمعـ اديـن ضر
وللسـاء سـحـاب
وسـحـب كـفـيـك عـشـر
نـاديـك بـالـرفـد رـحـب
نـداك للـوفـد بـحـر
للـبـحـر مـدـو جـزر
ومـا الجـودك جـزر
عـدل عـمـي و جـود
غـمـر و يسـر و بـشـر
وفي العـطيـة حـلـو
وفي الحـمـيـة مـر
قـنـدا مـتـو يـ منـك تـقـوى
الإلـه سـر و جـه
تقـاك و المـلـك عـنـد الـ
قـيـاس عـقـد و نـحـر
يـا أعـظـم النـاس قـدراً
وهـل لـغـيـرك قـدر
وسـامـر أـحـيـن نـامـوا
وقـنـا أـحـيـن قـروا
مـا اعتـدت إلـا و فـاء
وعـادة القـوم غـادر

وفعلك السد هر غزو
 للمشركين وقه
 فعل غيرك ظل
 للمسلمين وقس
 يفتر من كل ثغر
 إلى ابتسامك ثغر
 روم به وفتر
 في سفحه لم لك وت
 حرب عوان وفت
 على مرادك بك
 بنوا الا صافر من خش
 ية انتقامك صفر
 لم يبق للكفر ظفر
 لا كان للكفر ظفر
 وما دجى ليل خطب
 إلا وعزمك فجبر
 أصبحت بالغزو صبا
 وعنه مالك صبر
 لكسر كل يتيم
 اسعاف ببرك جبر
 في كل قلب حسود
 من حرب بأسك جبر
 تمل تطهير ملك
 له الملك وكبح
 بزهي سريرو وتاج
 به ودست وصد

وكيف يعمل للطلا
 هـ المظـهـر طـهـر
 هـ ذا الطـهـر ورظـهـر
 على الزمان وأمر
 وذا الختـان ختـام
 بمسكـهـ طـابـنـشـر
 رزقت عمراً طويلاً
 ما طال للدهر عمر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشاهي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان مسجد صلاته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرائش قاضي العسكر بعد أن صلى به وذكر، وعاد إلى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب العطايا والإنعام على رسم الأتراك وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاص والانتقاص، وما أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحك سنه، وأبرك يمنه، وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب، وجلل الموكب، وكان الفلك بنيره جار، والطود الثابت بمرور السحاب في وقار، وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته سائر بين سيارته، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهاء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أول دولته والي حلب، وقد جرب الدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل: هل نكون بعد شهر فإن السنة بعيده فجرى على منطقتها ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى

العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه البرره، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يرنقش، وقال له: باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل فبقي اسبوعا في منزله مشغولا بنازله، مغلوبا عن عاجله، بحديث أجله، والناس من الختان لاهون بأوطارهم في الاوطان، فهذا يروح بجوده، وذلك يجود بروحه، فما انتهت تلك الافراح إلا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين وكانت له صفة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه، ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح، فدفن في ذلك البيت الذي اتته حمى من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالإهدام، قال العماد وقلت في ذلك:

عجبت من الموت كيف أتى
إلى ملك في سجاياملك
كيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والأرض وسط الفلك

وله فيه رحمهما الله تعالى
يا ملكا يامه لم تزل
لفضله فاضلة فآخرة
غاضت بحار الجود مذغيبت
أنملك الفائضة الزاخرة

ملكست دنيالك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخرة

قال ابن شدّاد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترتة عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاة رحمه الله ورضي عنه.

قال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر لتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدد في غزوهم بجهد وطاقته، فلما رأى اختلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه تجهيز بالمسير إليه فأناه أمر الله الذي لا يرد.

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخّر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليّة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي وهو من حذاق الأطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت

الخوانيق منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.

قال ابن الاثير: وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جداً فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية، واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمعتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً، كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين، ويواخيهم، ويזור مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم بماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بأنائهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله باسقاط المنزلة

والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

ثم قال بعد كلام كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه لعلو القدر، ومولده على ما ذكر لي كاتبه أبو اليسر شاذان بن عبد الله وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:
ومدرسة سيـدرس كل شيء
وتبقى في حمى علم ونسك
تسوع ذكرها شرقا وغربا
بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق
بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي
وهذي في المدارس بيت ملكي (١٣٤)

ولما اشتهر من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامة له وقد سئل في بغداد عن نور الدين: «هو سهم للدولة شديد وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تساعد الأفلاك، وتعصده الجيوش والأملاك، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل،

وبالمحل الجديد للشاعر الاديب فما يريز ولا يعزى، ولا لشاعر عنده
من نعمة تجزى (١٣٥) واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله ؛
سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكم مش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي وفيها الجوع والعطش ١٣٦

قلت: رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد، وما يعود
نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز وهو من
سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدثنا ضمرة عن
الشياني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه فذكر ابن
محيريز في مجلسه، فقال رجل: كان بخيلاً، فغضب ابن الديلمي وقال:
كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون (١٣٧)

وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور
الدين رحمه الله:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون السورى
نار ان نار قرى ونار جهاد
أبدأ يصرفه انداء وبأسه
فالعام جمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيد منة
أبى من الأطواق في الاجياد
أعلى الملوك يداً وأمنعهم حمى
وأمدهم كفأ يبذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبرعاً
من غير مسألة ولا ميعاد

لا زال في سعادته وملئك دأئهم
ما دامت الدنيا بغير نفاذ (١٣٨)

وقد تقدّم من شعر ابن منير، وابن القيسراني، والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه يرد قول الوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقذ قد ردّدنا شعره بشعره كما تراه وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى في وصف قوم: (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منه إذا هم يسخطون) (١٣٩) وما كل وقت ينفق العطاء، ويفعل الله ما يشاء .

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي نور الدين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك، وحلف له ولم يبلغ الحلم، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق، وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها وضرب السكة باسمه فيها، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل. وهو مجزوز الذوائب، مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجسوه في الإيوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش، فوقف الناس يضطرمون، ويضطربون، ويتلهفون، ويلتهبون، ولما كفن بحلة الكرامه، ودفن في روضة بابها إلى باب رضوان من دار المقامه، وقضوا الجزع، وقوضوا الفزع، وغيبوا الدمعه، واحضروا الربعة، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدّم،

وجمال الدولة ريجان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقده، وأن ابن المقدم مقدم العسكر وإليه المرجع والمصدر.

قال : وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته « اسماعيل بن محمود ».

وفيه : « أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، ندب الشام، بل الاسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد، مقتني فضيلته، ومؤدي فريضته، ومحبي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر ويقسم الفكر إلا أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد آذخره لكفايات النوائب، وأعدّه لحسم أدواء المضلات اللوازم، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله إلا صورة، والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمع، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم، والنكاية فيهم على البدار، ويجري على العادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد بتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا ».

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتابا بالمثل الفاضلي فيه: « ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبت، وأعوز

الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذي عم، فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، واعضاداً متساعداً، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنامل، فالعدة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيوان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أتيت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه، وإن اسفر الخبر عن معافاه، فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب».

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدين بالمشال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره: «وأما العدو خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجائمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبهه يوم الخادم أمس في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، عالماً أن الجماعة رحمه ، والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشجيده، ومضاعفة ملكه ومزيده،

وييسر منال كل أمر صالح، وتقريب بعیده إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرض لمراسمها، والرفع لكلماتها، والإيالة لعسكرها، والتحقيق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقب لأن يؤمر فيمثل، ويكلف فيحتمل، وأن يرمى به في نحر العدو فيتسدد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده».

قال العماد: ولما توفي نور الدين اختل أمري، واعتل سري، وعلت حسادي، وبلغ مرادهم أضدادني، وكان الملك الصالح صغيراً فصار العدل ابن العجمي له وزيراً، وتصرف المتحالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرفوا ونقصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة محروم الدعوة من الإجابة، وممانظته في مرثية نور الدين قصيدة منها:

لفقد الملك العدا

دلبي كي الملك والعدل
وقد أظلمت الأفقا

قلاشمس ولا ظلال
ولما غاب نور الدي

من عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير

روزاد الشر والمحل
ومسات البأس والجو

دوعاش اليأس والبخل
وعز النقص لماها

نأهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العل

مإذا مانفقا الجهل
وما كان لنور الدي

نلولا نجله مثل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبيان اليأس، وذلك أن شمس الدين بن المقدّم خرج وراسل الفرنج، وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدّة من أسارهم استطلقوها، وثمت المصالحة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام، ومن جملتها كتاب بالمشال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل، « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف، وتجرد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدّى وتمرد»، وفي آخره: « وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح، لولا أن الثريا تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح، وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله بالغاً أسنى المراد وأفضله».

وقال ابن الاثير : ولما توفي نور الدين قال الأمراء منهم شمس الدين ابن المقدّم، وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعه، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، قال: فلم يمض

غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية، وعليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته، ويمنعه، وكتب إلى الأمراء يقول: «إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يشق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته سواي وأراكم قد تفرّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده».

فأقام الصالح بدمشق، ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لثلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه، وكان هو وأخوته بحلب وأمرها إليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: «إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب، ولا نقوى على منعه». فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية

كالموصل وغيرها استدعى العساكر منها فصار سيف الدين، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشجن إلى الحابور، فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام، ثم أخذها وملك الرها والرقه وسروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر، فقال له فخر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين ظناً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولاً — فلم يجن ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء: ليس بالشام من يمنعك، فاعبر الفرات وأملك البلاد، فأشار أمير آخر معه، وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة أن تعود، فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الاثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان، فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك، فذهب بركه ودوابه، وسار إلى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح، فسار إلى دمشق فأخرج إليه ابن المقدم عسكرياً لينهبه، فعاد منهزماً إلى حلب فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه، وجهازه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها فلما وصلها

وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الاثير: ولو لا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق، فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ من يده، وبقي الملك الصالح بحلب، وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

قال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، وخرج وسار مرحلتين، وسمع النعي، فأغذ السير والسعي، ونجا بهالة وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله، وكانت عنده بوفاة عمه بشاره، وظهرت على صفحاته منها أماره، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مذكياً، وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمر، وإزالة المحظور، واسقاط المكوس، واعداد اقساط البوس، فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ليلاً ونهاراً، وزال العرف وعاد النكر، وأنشد قول ابن هاني: « ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر ».

وقيل أخذ المنادي على يده دنا وعليه قدح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغني ويشرب، وعادت الضرائب، وضربت العوائد، فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد أن جرى ما جرى،

ومثل: «عنده الصباح يحمد القوم السرى»، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين علي بن السداية وأخوته أخوه مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين، وقد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده من طريقه وتالده، وحكمه في الملك، ونظمه في السلك، فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه، وكانت حصونه محصنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحا ومساء إذا طلب، وشيّر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوابه فيها، وهو يصونها ويحميها، ولما توفي جرت أخوته في القرب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدولة وأعضاها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه، فأقام شمس الدين علي وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل قلعة حلب وبها والياشاذبخت، وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح، وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيداً من الدهاء، فاستقر الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه، ويقدموا به عليه، وهو يتسلم ممالكه، ويكون أتابكه، ووصل كمشتكين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبروه من المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمي واسماعيل الخازن، فبغتوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدّم الشيعة فسفكوا دمه، وأقام شمس الدين ابن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدّماً، وفي مصالحها محكّماً، وجمال الدين ريجان والي القلعة والشحن من قبله والأمر إليه بتفصياه وجمله، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الحاكم النافذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمه، وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث

والعشرين من ذي الحجة، وغازى صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين، وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر، وقبض أصحابه الذي بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر، وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له، وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها، وابن المقدم إلى دمشق، واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام، وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عسرون: « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقيّة بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدوّ لهما واحد، وصرف مال الله الذي أعدّ لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعة في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحى الأمّة، وكان مذخوراً لكشف الغمّة، فصار عوناً، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده، دفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعة، فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورد والصدر، وإن أتمنا ظن بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوّ من بقيّة الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمر ربنا عجز فيه عن الاستدراك، وإن العدوّ طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصه، مجدّ لا يميل إلى الرخصه، فإن كانت الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير ولا تمسك

في الأول فتعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار الله ونغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفرق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجتمعون لا يمكنه أن يزایل مراكزه، ولا يبادر مناهزه».

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النوري، وكان شمس الدين علي أخو مجد الدين بن الداية إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية، وكان بيده ويد أخوته جميع المعامل التي حول حلب، فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة، وكان مقعداً، واضطرب البلد، ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود إليهم، وترددت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب أهل السنة مع بني الداية، والشيعية مع ابن الخشاب، وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن

الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب، واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب في الثالث والعشرين من ذي الحجة، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك واسماعيل الخازن، وسابق الدين عثمان بن الداية، وقد وكلت الجماعة به، وهو لا يعلم، وساروا إلى حلب، وخرج الناس إلى لقائهم وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفاً، وقبض سابق الدين أخوه في الحال، وتخطفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم وساروا مجددين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها وقبضوا على شمس الدين علي بن الداية من فراشه وحمل إلى بين يدي الملك الصالح، فاستقبله أحد مماليك نور

الدين المعروف بالجفينة فركله برجله ركلة دحائها على وجهه، فانشقت
جبهته، ثم صفدوا جميعاً وحبسوا في جب القلعة، وقبضوا على جميع
الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلت: وفي آخر هذه السنة توفي مري الفرنجي الملك الذي كان
حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الديار المصرية، وفي كتاب فاضلي: «
ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة
هلك مري ملك الفرنج لعنه الله، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً،
وأقدمه على نار (تلظى لا يصلاها إلا الأشقى) (١٤٠)

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: ففي أولها ضمن القطب ابن العجمي أبو صالح، وابن أمين الدولة لجرديك إن قتل ابن الخشاب، ردّوا عليه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة، فدخل على الملك الصالح، وتحدّث معه وأخذ خاتمه أمانا لابن الخشاب، ونودي عليه فحضر وركب إلى القلعة، فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقي الملك الصالح في قلعة حلب، ومضى العماد الكاتب إلى الموصل، قال: « وعزمت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح فأصلح بين ابني العم، وعلق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم بتسليم الحصون، وتقديم الرهون إلى أن غصبوا دورهم، وخربوا معمرهم ».

قال: وكان الموفق خالد بن القيسراني قد وصل ونحن بدمشق من مصر، فلزم داره، ولم يدخل مع القوم، فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه ذلك وقال: أنا أحق برعي العهود، والسعي المحمود فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمع، وضاعت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الاسلام، وكتب إلى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة، وكيف اجتروا على أعضاء الدولة وأركانها، بل أهلها وأخوانها، وإنه يلزمه أمرهم وأمرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول له: « لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وأصفى مشربك، وأصفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دسته أجلسك، فما يليق بحالك، ومحاسن

أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك». فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي « إنا لانؤثر للاسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم، ولليت الأتابكي أعلاه الله إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاء، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة أنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قاذح، ولمن ألقى السلاح إنك جارج».

فصل

قال العماد: ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر فاعترضه أمران: أحدهما وصول اسطول صقلية إلى الاسكندرية وإدراكه، والثاني نوبة الكثر ونفاقه وهلاكه، أما وصول الاسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهمز في أول المحرم سنة سبعين، ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال، وحاصله أن أول الأسطول وصل وقت الظهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر، وروع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية، وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية، فشوهد في الثغر من وفور عدته، وكثرة عدته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتد به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البر، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكن الأسطول النزول فاستنزلوا خيولهم من الطرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل

الخيـل، وكان معهم مائتا شينى فى كل شينى مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدّة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدّة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركباً، وفيها من الراجل المتفرق وغلـمان الخيالة، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتمم خمسين ألف رجل، ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر فى وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرح وجذفت مراكب الفرنج داخلـة إلى المينا، وكان به مراكب مقاتله، ومراكب مسافره، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر، وكان عدّتهم ثلاثمائة، فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وتعجب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها، وأما الدبابات فلإنها تشبه الأبراج فى جفاء أخشابها وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور، ولجوا فى القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط، احترازاً عليها واحتياطاً فى أمرها وخوفاً من مخالفة العدو إليها، واستمرّ القتال وقدمت الدبابات وضربت المنجنيقات، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أمـاج البحر، وأهاج الدور، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السور ويتركوها معلقة بالقشور، ثم فتحوا الأبواب وتكاثر صالح أهل الثغر من كل الجهات فأحرقوا الدبابات المنصوبة، وصدّقوا عندها من القتال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهر، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وقر

حربهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهرب والمبادرة، ثم كر المسلمون عليهم بغتة، وقد كاد يختلط الظلام فهاجمهم في الخيام، فتسلموها بما فيها وفتكوا في الرجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربة، وجاءتها أحكام الله الغالبة، وبقي العدو بين قتل وغرق، وأسر وفرق، واحتسمى ثلاثمائة فارس منهم في رأس تل، فأخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شدّاد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراة وبطسة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنتر فقال ابن شدّاد: الكنتر انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد، ويعيد الدولة المصرية، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير، وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرد له عسكرياً عظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقبهم بمصاف

فكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شافتهم، وأخذ نائرتهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقرت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أول سنة سبعين مستهلها قام المعروف بالكنز في الصعيد، وجمع من كان في البلاد من السودان والعييد، وعدا ودعا القريب والبعيد، وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المنقطعين، فغارت حمية أخيه، وثار للثأر، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طود، فاحتمت عليهم وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها، ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوءه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.

وقال ابن أبي طي: واتفق أيضاً أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع له العساكر وأوقع به وبدد شمله، وفض جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

في توجه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول

قال العماد: لما خلا باله مما تقدم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلييس ثالث عشر ربيع الأول، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين بن المقدم عنده تستوري في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده، وسار على صدر وائله، ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلی نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بصرى وشدّ أزره، وسدّد أمره، واستضاف إلى بصرى صرخد، وتفرّد بالسبق إلى الخدمة وتوحد، وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر، وسار في موكب قوي بالعدد والعدد وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الاطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق، وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها، ودخل إلى دار العقريقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريجان الخادم في القلعة على تأبيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نواله، وتملك المدينة والقلعة، ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدم داره وكل ما حواليتها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها، وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصالح، وحفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه، واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية اسرارها واعلانها، وأصبح وهو سلطانها، وزاره القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري فوفاه حقه من الإحترام وأوفر له حظ التبجيل والاعظام، ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر.

وفي بعضها: «يوم وصولنا إلى بصرى وقبله وفدت وهاجرت وتزاحمت وتكاثرت وتوافت الأمراء والأجناد الأتراك والأكراد والعربان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال، وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنة القياد مدعنة إلى المراد، وأما الفرنج خذلهم الله فإننا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وعيونهم متناومة، وجننا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صغرى، ومررنا وعيشهم مر، والله يزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غلاً، وفي أعناقهم غلاً».

وفي كتاب آخر: «وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها، ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه، وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابن أنر في يوم السبت السابع والعشرين، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، والأجناد الدمشقية إلينا متوافيه، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلّا من أبقى وجهه، وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبة، ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم، ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قرية عيوننا مستقرا سكون الرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس، وإزالة المكوس، وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدية قد امتدّت إلى أحوالهم وأجحفّت، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها».

قال ابن الاثير: لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الداية

راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه، فلم يجيبهم فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقر بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه، وجرت أمور آخرها أنه اصطالح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الاسلام، فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح، واختلفت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقيين ممن فعل ذلك، وسبباً لتغيير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح فيكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أول دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهروا الفرح به وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جهادى الأولى ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سلخ جهادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل

واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل إن ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنها خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، وبجواب ممض ورد من ابن المقدم، ولما تيقن ابن المقدم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعدته تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهنّ يا أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندي
أجرا وذكرا من ذلك الشكر في الـ
دنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدى وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا
ومار أين اغزا الفرنج من الـ
ملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فاللائكة الـ
أبرار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير إليك يا أمل أن
تصلح بالعدل منه ما فسا

والله يعطيك فيه عاقبة الـ
نصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك الـ
عدل وأعطاك ما ملكت سدى (١٤١)

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها:
قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام أن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له
فجثتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتهم مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبها
هذا الذي نصر الاسلام فاتضح
سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاوور والايان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدرك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقبها

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب

قال ابن أبي طي: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه وإنعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حوت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعمّا تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين، ومن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولا تلقاه بموكبه وبمنفسه، وبالبخ في إكرامه والاحسان إليه، ثم أحضره بعد ثلاثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التسويهاات العاطلة، لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا، ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه احسانا وتجاويا، وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له: يا هذا اعلم إنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الاسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد، وإيتام الأولاد، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله باقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص، فتسلم البلد وقاتل القلعة، ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها

من يحصرها ورحل إلى جهة حماه فلما وصل إلى الرستن، خرج صاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن، وأقام عنده يوما وليله، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب، وبقي أخو جرديك بقلعة حماه.

قال: وسار جرديك إلى حلب وهو ظان أنه قد فعل شيئا، وحصل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتهمه الأمراء بالمخامرة، وردوا مشورته، وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح وليج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الحب الذي فيه أولاد الداية.

قال: ولما قدّم جرديك وشدّ في وسطه الحبل ودلي إلى الحب، وأحسن به أولاد الداية قام إليه منه حسن وشمته أقبح شتم وسبه ألام سب، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلته، فامتنعوا من تدليته، فأعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الحب وصاح على حسن وشمته وتوعده، فسكن حسن وأمسك وأنزل جرديك الحب، فكان عند أولاد الداية، واسمعه حسن كل مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:
بنو فلانة أعوان الضلالة قد
قضى بذلهم الأفلاك والقدر
واصبحوا بعد عز الملك في صفد
وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجرد الدهر في جرديك عزمته
والدهر لا ملجأ منه ولا وذر

قال: ولم يزل السلطان مقبياً على الرستن، ثم طال عليه الأمر فصار إلى جباب التركمان فلقبوه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل وصعد السلطان إلى قلعة حماه واعتبر أحوالها وولاهها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جمادى الآخرة، وسار السلطان إلى حلب، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر، وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدي، وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت فخافوا من الحلبين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطيب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه: أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد، قال: وحنقته العبرة وسبقته الدمعة، وعلا نسيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والعيول وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يجهر بحيي على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على

أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشياء كثيرة اقترحوها، مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحمي علي خير العمل، وصلى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه.

فصل

قال ابن أبي طي: وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائجة الأهوية، وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسبباً يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية، وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرض بطلب الصلح، فامتنع كمشتكين، فاشتد حيثد السلطان في قتال البلد، وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لاتنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان، والفكرة في مخاتلته، وإرسال المكروه إليه، فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية في إرضاء المتالف للسلطان، وإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعدة من القرى، فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاءوا إلى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر فعرفهم صاحب أبو قبيس، لأنه كان مشاعراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم

كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه؟ فخافوا غائلته، فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم، وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم ويده سكين مشهورة ليقتصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية، كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، وفكك ألف أسير، واتفق في أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجدوم، فعظم شأنه وزاد خطرته، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاقدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان لست بمن يهرب بتألب الفرنج، وها أنا سائر إليهم، ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا، فقصد القمص جهة حمص، فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل إلى حمص، فتسلم القلعة ورتب فيها والياً من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتي:
إياب ابن أيوب نحو الشأ
م على كل ما يرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامه
تقر العيون وتشفى الصدور

رأت منك حصن لها كافيًا
فواتاك منها القوي العسير

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص: «والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب، وعقاباً في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامه، عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه، فاكتنفت بها عقارب، منجنقات لا تطبع طبع حصن في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحدّ إلاّ وقد أثرت فيها جدر يا يضرها، ولم تصل السابع إلا والبحران منذر نقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعداها عن الطالع إلى مولد هو إليها الطالع، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً (وسيرت الجبال) بها (فكانت سرايا) (١٤٢) فهنالک بدت نقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل: «قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العد، وبعد أن نرتب أحوال حمص حرسها الله، نتوجه إلى حماه، والله المعين على ما ننويه من الرشاد، وننظفه من طرق الجهاد».

وقال العماد: لما سمع المدبرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم، سقط في أيديهم، وراسلوا المواصله، وكاتبوهم وأرسلوا إلى صلاح الدين بالاغلاظ والاحفاظ، وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان، وقال له: هذه السيوف التي ملكتك مصر، وأشار إلى

سيفه، إليها تردك، وعما تصدّيت له تصدّك، فحلم عنه السلطان، واحتمله وتغافل كرمًا وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور وتهذيب الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ أخوة مجد الدين، فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أسك، فارجع حيث جئت أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطمع، ونال من تقطيب القطب ينال كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم، وأخفى الاهتمام، ثم إنه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها، ورحل إلى حمّاه فأخذها مستهل جمادى الآخرة، ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر، فلما اشتدّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات من فتاكهم كل عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمار تكين صاحب أبو قبيس، وكان مشاغراً للاسماعيلية، فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتكم، فقتلوه وجاء من يدفع عنه فأثنخوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت، حتى وصل إليه فشمّل بالسيف رأسه، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى من لا قاهم شدّة، وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشية، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قمص طرابلس، وقد كان في أسر نور الدين مذكرة حارم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكّك ألف أسير، فتوجه في الافرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصاً على عقبيه مخوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: « قد اعلما المجلس أن العدو خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستصالوا على الاسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماه، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقائه، فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله، متفحصاً بحيله، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدو قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكس صلياً كانت ترفعه شياطينه».

وقال العماد في الخريدة: لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أولها:

مانام بعدالين يستحلي الكرى
إلا يطرقه الخيال إذا سرى

كلف بقربكم فلما عاقيه
بعد المدي سلك الطريق الأخصرا
ومودع أمر التفريق دمعته
ونته رقبته كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:
تردي الكتاب كتبه فإذا غدت
لم يدرا أنفساً أسطرراً أم عسكراً
لم يحسن الأثراب فوق سطورها
إلا لأن الجيش يعقده عثرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول: « والشعر ما زال عند الترك متروكا » فعجل جائزته لتكذيب قوله، وتصديق ظنه،

فشرفه وجمع له بين الخلعة والصنعة، وعن الفاضل ما قاله في قصيدة
في مدح الصالح بن رزيك التي أولها : « أما كفاك تلافي في تلافيكا ».

يقول فيها
يا كعبة الجود إن الفقر أقعدني
ورقة الحال عن مفروض حجيك
من أرمني يا كريم الدهر ينعشني
جدواه إن خاب سعي في رجائيكا
أمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر ما زال عند الترك متروكا
أم أمدح السوق النوكى لرفدهم
واضيعتا إن تخطتني أياديكا
لا تتركني وما أملت في سفري
سواك أقفل نحو الأهل صعلوكا

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمان وخمسين،
وسياتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين، وما
أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من
قصيدة أولها :

إذا لاح برق من جنابك لامع
أضاء لواء ما تجن الأضالع

يقول فيها:
ثمادى بنا في جاهلية نحلها
وقد قام بالمعروف في الناس شارع
ونحسب ليل الشح يمتدّ بعدما
بدا طالعا شمس السخاء طالع (١٤٣)

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الأفرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد حجة من أطراف المغرب، وإقامه الخطبة العباسية بها يقول في أوله للرسول : «إذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد و ليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً، منها لعله يشرح منا صدراً، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سراً.

ومن الغرائب أن تسير غرائب

في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى

والماء فوق ظهورهم محمول

فإننا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبت الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا، وغيرنا يدعي التصدير، ولا بد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلّا أنا كنا نتنظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق، وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعاكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدو كسر، أو مصاف للاسلام معه ضرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يححد عدونا أنا نصطي الجمره، ونملك الكره، وننقدّم الجماعه، ونرتب المقاتله، وندير

التعبيه إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون
لغيرنا ذكرها، وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من
سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وإن النظام بها قد
فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامة كل من قام وقعد، والفرنج قد
احتاج من يدبرها إلى أن يقطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وإن
كلمة السنة بها وإن كانت مجموعته فإنها مقموعه، وأحكام الشريعة وإن
كانت مسماها فإنها متحاماها، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك
الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب
قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد
من دون الله وتعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غره
تقلب الذين كفروا في البلاد، فسمت همتنا دون هم أهل الأرض إلى أن
نستفتح مقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته
منها، فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمه، وبأموال انتهكت
الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذمنا وكسب أيدينا،
وئمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا، فعرضت عوارض منعت،
وتوجهت للمصريين رسل باستنجد الفرنج قطعت (لكل أجل كتاب)
(١٤٤)، ولكل أمل باب، وكان في تقدير الله أنا نملكها على الوجه
الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الممكن، فغدر الفرنج بالمصريين
غدره في هدنة عظم خطبها وخطبها، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام
محطها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان كما كاتبنا بالعساكر
المجموعة والأمراء والأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرر لنا
في القلوب ودان: الأول ما علموه من إثارتنا للمذهب الأقوم، وإحياء
الحق الأقدم، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم، وإقالة عثارهم، ففعل
الله ما هو أهله، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله، وضائق به سبله،
وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورسايقها وبلادها وأقاليمها قد
نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من

أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلا كالانعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتشال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخذام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره، وتخريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، وتحييفهم تحيف الليل والنهار، فعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهز، والحشد الأوفز، وخصوصاً في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يياكرونها ويراوحنها ويصابحنها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من مكان قريب، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد

فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بالأمور الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجردة وبالنار المحرقة، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه، وتمزقت بدعه، وخفتت دعوته، وخفيت ضلالتة، فهناك تم لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته، ولما خلا ذرعنا، ورحب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها براً وبحراً مركباً وظهراً إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها مذ أخذت من أيديهم، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر ايلة، كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقة من لا يدين بما جاء به من الإسلام، فأخذت هذه القلعة، وصارت معقلاً للجهاد وموئلاً لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد.

ثم قال: «وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد المبدع المتمرد، وله آثار في الاسلام وثار طالبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعه، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها، وأحل الفروج المحرمة وأباحها، فانفضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة، واسلحة رائعة، وسار فأخذناه والله الحمد، وأنجز الله فيه القصد،

والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند ساميه، وإلى ما يفتض الاسلام
عذرته متماديته، ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها
مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد
اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لاتطاق، وأمرهم لا
يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على
شهر، وسيرنا إليها عسكرياً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد
المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصه، قسطليله، توزر، كل هذا تقام
فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه،
ولا عهد للاسلام باقامتها وتنفيذ فيها الاحكام بعلمها المنتصور وعلامتها،
وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهدته وفود الامصار، ورموه بأسماع
وأبصار مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو
منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت
إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر
والأقضية، فأما الأعداء المحدثون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا
بالمالك العظام، والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينيه، وهو
الطاغية الأكبر، والجالوت الأكبر، وصاحب المملكة التي أكلت على
الدهر وشريت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها
وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحريه، ومناقلات ظاهرة وسريه، ولم نخرج
من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد
منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معادة إلى
مهاده، ومن مفاضحة إلى مناصحه، حتى أنه انذر بصاحب صقلية
وأساطيله التي ترد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها، ومن هؤلاء
الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب
قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن
يظهر قوته المستقلة فعمر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن
خمس سنين تكثر عدته وتتنخب عدته، إلى أن وصل منها في السنة

الخالية إلى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم يقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لو لا أن الله خذله، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبه، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قرّرت معهم المواصله، وانتظمت معهم المسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون، ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لو لا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الاخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتخفون بها الأطراف الاسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميه، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، والمماليك إلا عماد الدين خلقوا للأطراف لا للصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر إن لم نجرد العزم في قلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمه، وهم القادرين بالقعود دائمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوّه، وإذا جاورناه كانت المصلحة باديه، والمنفعة

جامعه، واليد قادره، والبلاد قريه، والغزوة ممكنه، والميرة متسعه، والخييل مستريحه، والعساكر كثيره المجموع، والأوقات مساعده، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتله، وأمور مختله، وأراء فاسده، وأمراء متحاسده، وأطباع غالبه، وعقول غائبه، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فما نابه أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه، والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الالفه، ويضمن الرأفه، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق الاسم العباسي كل ما تطبقه العهد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام، وكلما تشتمل عليه الولاية النورية وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيم من أخ أو ولد من بعدنا تقليداً يضمن للنعمه تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك، وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يملوا، وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه عبده».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي: « والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دّوخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الاتحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رخصها، وحجج الزندقة التي دحضها فله عليه المنه فيه إذ أهله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور، وما تحركت للفلك في قلعه نابضه، وغيرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضه، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منهما أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار، وقد عاد الاسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضرأ دمنه».

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه: « حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من الله في سخطه رضا، وجعل وجهه لآسي السواد مبيضاً، فأدرك لهم بشار نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور».

ومن كتاب آخر: « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الاعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أدياناً، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألواناً».

ومن كتاب آخر: « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعد كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في أن يتجاوزا طرقي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفورقت المحاج القاصده، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب، ومن كسى مذابحهم بقمامه، وهذدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القديسين، وقالوا: إن وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والاساطيل القوية،

وللاسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر
حقاً، وهو يعبد خالقاً، وهم يعبدون خلقاً».

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فستلت نظم مرثية في نور الدين، فنظمت
بعد عودي إلى دمشق في رجب:
الدين في ظلم لغيبة نوره
والدهر في غمم لفقد أميره
فليندب الاسلام حامي أهله
والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في اخطاره
إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من
قرت نواظرهم بفقد نظيره
ما أغوص الانسان في نسيانه
أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانيها
الله طوعاً عن خلوص ضميره
من ينصر الاسلام في غزواته
فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرننج ومن لأسر ملوكها
من للهدى يبغى فكالك أسيره
من للخطوب مذللاً لجماحها
من للزمان سهلاً لسووره
من كاشف للمعضلات برأيه
من مشرق في السداجيات بنوره

- ٨١٧٩ -

من للكريم ومن لنعش عثاره
من لليتيم ومن للجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبكارها
يرواحه في غدوه وبكوره
من للعلی وعهودها من للندي
ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نوردين محمد
يخبو ويليل الشرك في ديجوره
أعزز عليّ بليت غاب للهدى
يخلو الشرام من زوره وزيره
أعزز عليّ بأن آراه مغيباً
عن محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنها
مذغيت غاض الندي ببهوره
ولقد أتى من كنت تجري رسمه
فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه
وقع له بالأمن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه
فأدم له التقريب في تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه
فاركب لتبصره أو ان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصر للروم رميت بقصره
ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر
بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره
أوما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وطهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدى
وتقدس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه انشقتهم
من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامى بعده
هلا وفيست وسرت عنسد مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيا بادروره
ولبست رضوان المهيم من ساحبا
أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين
بقرب دمشق بالكسوة، وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة،

متى نجتد السري بالقـريتين
خوامـص أثـر فيهـا الهـجير
ونحو الجليـجل أزجي المطـي
لقد جـل هـذا المـرام الخـطير
تـراني أنيـخ بـأدنـى ضمير
مطـايا بـراهما الـوجـا والضمـور
وعنـد القـطيفـة والمـشتهـاة
قـطـوف بهـا الـلأـمـاني سـفـور
ومنـهـا بـكـوري نـحو القصـير
ومنيـة عـمـري ذاك البـكـور
ويـاطـيب بـشـراي مـن جـلق
إذا جـاءني بـالنـجـاح البـشير
ويـسـتـبـشـر الأصـدقـاء الكـرام
هـنـالك بي وتـوفـي العـنـذور
تـرى بـالـسـلامـة يـومـايـكون
بـبـاب السـلامـة مـني عبـور
وإن جــوازي بـبـاب الصـغير
لـعمـري مـن العـمر حـظ كـبير
وما جـنـة الخـلد إلـآ دـمـشق
وفي القـلب شـوق إلـيـهـا سـعير
مـيـادينـها الخـضر فيـح الرـحـاب
وسـلسـالـها العـذب صـاف نـمير
وجـامعـها الرـحب والقـبة الـ
مـنيـة والفـلك المـسـتـديـر
وفي قـبـة النـسـري سـادة
بـهم للـمـكـارم أفـسـق مـنير
وبـاب الفـراديـس فـردوسـها
وسـكـانـها أحـسن النـاس حـور

والارزه فالسهم فالنير بان
فجنات مزتها فالكفور
كان الجواسق مأهولة
بروج تطلع منها البدور
بنيرها تستير الهموم
بربريوتها يتربى السرور
وما غرّ في الربوة العاشق
سين بالحسن إلا الربيب الغرير
وعند المغارة يوم الخميس
أغار على القلب مني مغير
وعند المنيع عين الحياة
مدى الدهر نابغة ماتغور
بجسر ابن شواش ثم السكون
لنفسى بنفسى تلك الجسور
وما أنس لا أنس أنس العبور
على جسر جسر ين إني جسور
وكم بت ألهو بقرب الحبيب
في بيت لهما ونام الغيور
فأين اغتباطي بالغوطتين
وتلك الليالي وتلك العصور
وأشجار سطر ابدت كالسطو
رنمقهن من البليغ البصير
وأين تأملت فللك يدور
وعين تفور وبحر يرمور
وأين نظرت نسيم يرق
وزهر يروق وروض نضير
إلام القساوة يا قاسيون
وبين السنن يا يتجلى سنير

ومنذ ثوى نور دين الاله
لم يبق للدين والشام نور
وللناس بالملك الناصر الـ
صالح صلاح ونصر وخير
هو الشمس أفلاكه في البلاد
ومطلعته سرجه والسرير
إذا ما سطا أوجبى واحتبى
فما الليث ما حاتم ماثير
بيوسف مصر وأيامه
تقر العيون وتشفى الصدور
ملكك فاسجح فما للبلاد
سواك مجير ومولى نصير
وفي معصم الملك للعز منـ
كسوار ومنك على الدين سور
لك الله في كل ما تبغى
به بحق ظهير ونعم الظهير
أما المفسدون بمصر عصوك
وهذي ديارهم اليوم قور
أما الادعياء بها إذ نشطت
لأبعادهم زال منك الفتور
ويوم الفرنج إذا ما القوك
عبوس برغمهم قمطريـ
نهوضاً إلى القدس يشفى الغليـ
ل بفتح الفتوح وماذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطو
بفهو على كل شيء قدير
إليك هجرت ملوك الزمان
فما لك والله فيهم نظير

وفجرك فيه القرى والقرآن
جميعاً وفجرا الجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرنج
وعندهم لا تراق الخمرور

فصل

في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حصص وحصنها سار إلى بعلبك
فتسلمها في رابع شهر رمضان

قال ابن أبي طي: وكان بها خادماً يقال له يمن، فلما شاهد كثرة
عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر،
فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها :
بفتح روح عصرك يفخر الاسلام
وبنور نصرك تشرق الايام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبست
هذي الممالك واستقام الشام
وبكى الحسود وما وثغر الثغر من
فرح بنصرك للهدى بسام
فتح تسنى في الصيام كأننا
شكرألما منح الإله صيام
من ذارأى في الصوم عيد سعادة
حلت لنا والفطر فيه حرام

أسدى صلاح الدين والدنيايدا
بنوا لها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلی حتی يدوم نظامها
واسلم يعزز بنصرك الاسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله، وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسنت قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدثين ما منهم إلا من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والأرجاني والصالح ابن رزيك، وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري: (١٤٥)

«لن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا»

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها:

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرهط
قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وختتم
خيانتكم ما هكذا السود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم
مخطأ فعنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودتي
كأن لم يكن في البين معرفة قسط

فدت مهجتي من لا يذم لمهجتي
إذا حاكمته وهو في الحكم مشتط
وما كنت أدري قبل سطوة طرفه
بان ضعيفا فاترا مثله يسطو
وأهيف للاشفاق من ضعف خصره
يجل نطاقا للقلوب به ربط
يلازم قلبي في الهوى القبض مثلما
يلازم كف الناصر الملك البسط
ملك حوى الملك العقيم بضبطه
كريم ومال المال في يده ضبط
إذا ثمت أيدي الملوك فعنده
مدى الدهر إجلاله تلثم البسط
عناك طوعا نيل مصر ودجلة الـ
عراق ودان الغرب والعجم والقبط
وللنيل شط ينتهي سبيه به
ونيلك للراجين نيل ولا شط
عدوك مثل الشمع في نار حقه
له عنق اصلاح فاسده القسط

وهي ثمانية وثمانون بيتاً، ولسعادة الأعمى قصيدة طائية في السلطان
سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلت إلى السلطان ورغبت منه في الاحسان وجدته
لأمري مغفلاً، ولشغلي مهملاً، ثم عرفت أن حسادي قالوا له: متى
أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد،
وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق
صدره، وتشعث سره، فلما عرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي
لأنه به يعني، فقام بأمرى، ونوّه بقدرى وأراح سري وشدّ أزمى.

فصل

فيما جرى للمواصلة والحليين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعلت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكرياً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً و ساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، وانضم إليه من كان بحلب من العسكري، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماء وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يصالحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكريين، ففضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماء في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عقيب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

قال العماد: لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص، وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل إلى حلب نجدة، ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماء فحاصروها وراسلوا في الصلح فقدم السلطان في خوف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا وأن يرّد عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله مخاطباً، وعلى الانتفاء إليه مواظباً، وأن يرّد كل ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة، فلما رأوه يجيباً لكل ما يلتمس منه، وهو في عسكر خفيف قالوا: ما خبره

صحيح فشرعوا في الاشتطاط، فطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكيف ألحق به في رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصاف، وعزم الانتصاف، فعبر السلطان إلى سفح قرون حماء خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه، ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدمين، منهم: فرخشاه وأخوه تقي الدين، والتقوا فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: وبما نظمت في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها غناء وبلاء حسن منها:

ولقد ألفت نفارها وهويتها
إذ ليس ينكر للظباء نفار
يا جارة للقلب جائرة دعي
ظلمي وإلا قلت جارا لجار
قلبي كطرفك ما يفيق افاقة
سكران ما دارت عليه عقار
صب بصب الدمع محترق الحشا
خطرت ببال بلائه الاخطار
لم يخش من خطر الهوى حتى حمى
ذاك القوام شبيهه الخفار
يلذري الدموع كأنهن عوارف
لابن الملك شيركوه غزار
من آل شاذي الشائدين بنا العلى
أركبناهم لهادم وشفار
حسنتم بهم للدولة الأيام والـ
أعمال والأحوال والآثار
قد حاز ملك الشام يوسف الذي
في مصر تغبط عصره الأعصار

نصر الهدى فتوسط دالاسلام في
أيامه وتضعضع الكفار

ومنها :

لما قيست جموعهم منظمومة
صيرت ذاك النظم وهو نثار

ومنها:

في حالي جود وبأس لم يزل
للتبر والأعداء منك تبار
تهب الألف ولا تهاب ألفهم
هنا العدو عليك والدينار
لما جرى العصي هنالك طائعا
بدمائهم فجرت به الأنهار
وتحطمت عند القرون قرونها
بل كلت الأنساب والأظفار
عبروا المعرة مالكين معرة
والعمار يملك تارة ويعار
أو ما كفاهم يوم حمص وكفهم
في بعلبك بمثلها الانذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب
بقصيدة منها:

لا تفن من فرق الفراق الأدمع
فهو الشهود على الغرام المدعى
واستبق صبرك ما استطعت فإنه
عون لقلبك إن هما أثبتا معا

قلب أصابته العيون ولم يزل
من مسها بالهاجسات مروّعا
ما باله قد صدّ عند صدودهم
عني ولما ودّعوني ودّعنا
ومن التحير أنني أبصرتّه
في ظعنهم وسألت عنه الأضلعنا
أصبحت إذ شيعتهم لثلاثة
صبري وغمضي والفؤاد مشيعنا

ومنها:

أوما اتقيتم حين رعتهم مربّه
فيه تقي الدين ذاك الأروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر
أركان ملك الشام حين تضععنا
خضع العدو وذل بعد تعزز
لكم وحق عدوكم أن يخضعنا
من معشر غريرون جميع ما
لم يذلوه في السماح مضيعنا
في مصر واليمن اجتلينا منهم
في عصرنا تبعنا ليوسف تبعنا
الخواويجان بملك مصر ومكة
والشام واليمن الخطايا الأربعة
لما عصى الأعداء بالعاصي جرى
بدمائهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبي طي: لما تسلم السلطان بعلبك، وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخي سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح، وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلاً على حلب أجمعوا آراءهم، وكتبوا

سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه، وأخبروه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل، وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشميا خطيب حلب، وقطب الدين ينال بن حسان، وغرس الدين قليج، وكان سيف الدين منازلًا لسنجاري، وفيها أخوه عماد الدين زنكي، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره، فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ يجيهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك، فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيموا على حماه، وأخذوا في حصارها، واتصل بالسلطان ذلك، فرحل من بعلبك إلى حمص، وبلغ عز الدين، فعاد عن حماه، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شيزر، وراسل النائب بحماه علي بن أبي الفوارس يقول له: إنما وصلت في إصلاح الحال، ووضع أوزار القتال، وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة، ويلم شعب الفرقة، فكتب ابن أبي الفوارس بذلك إلى السلطان، وحسن له الصلح، وتلطف في ذلك غاية التلطف، وقدم أبو صالح ابن العجمي، وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح فأجابهما السلطان إلى ما أرادوا وتقرر الأمر على أنه يرده إليهم جميع الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدها، ويكون نائباً للملك الصالح، فلما عاين سعد الدين اجابة السلطان إلى الصلح والنزول عن جميع الحصون التي أخذها حمص وحماه وبعلبك طمع في جانب السلطان وتجاوز الحد في الإقتراح، وطلب الرحبة وأعمالها فقال: هي لابن عمي ولا سبيل إلى أخذها، فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعد نازلاً على حماه وحدثه ما دار بينه وبين السلطان، وهون عليه أبو صالح أمر السلطان، وأخبره بقله من معه، وكان

السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خوف من أصحابه فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعولوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره، فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماء، وأخذ في مدافعة الأيام، حتى يقدم عليه باقي عسكره، وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجح فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها تسويفاً للأوقات، وتقطيعاً للزمان حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيئته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد، فتجمع أصحاب السلطان كردوساً واحداً وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر، وضري عسكر حلب والعسكر الموصل على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام السعادة للسلطان، فإنه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عاملين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهرب، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في اليمين واليسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضععتهم، وكان السلطان في هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه وحمل إليهم الأموال وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره وإلا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة، فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان، بل كانوا مشبطين مخوفين لمن قرب منهم، ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه أن لا يوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ولا يذففوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم، ثم سار من وقته مجداً حتى نزل بمرج قرا حصاره، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة، وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماه، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرة وكفر طاب فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيها وعليها خطه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدو حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه، ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمرأؤه، عاد السلطان قاصداً دمشق، فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:
يا أيها الملك العزيز فضله

لقد غدوت بسال على مليا
كفى أمير المؤمنين شرفا
أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى
فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة
لم يولها قبلك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة
حتى حكته رونقا وريا

قال: ورحل السلطان من حماه إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام، وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نزل السلطان قرا حصار بنية الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماه ولا تشتموا بنا العداة فاستزدنا عليهم كفر طاب والمعزة، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرة، وسألهم في المعتقلين أخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتم الصلح، وعم النجح، ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماه يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات والتقليد بما أراد من الولايات، وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين رحمه الله، ثم تسلم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوال، وأقطع مدينة حماه لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين

قال العماد: وأذكر أنا عبرنا نهر العاصي عائدين، وقد انكسفت الشمس وادلهم النهار، وغلب على القلوب الاستشعار وطاحت الأنوار وخفيت الرسوم وظهرت النجوم، وجئنا حمص، ثم بعلبك ثم البقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر ما قرره حسادي في خاطر السلطان، وقالوا: شغله المكاتبه وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل، وهذا تصرفه برفد جزيل، ووجه جميل، والسلطان مع شدة رغبته، متوقف، وإلى ظهور وجه النجاح في أمري متشوّف، وكنت قد أنست مدّة مقامي بالعسكر بذي المجد والمفخر ومورد الكرم والمصدر الأمير نجم الدين بن مصال، وهو ذو فضل وأفضال، وقبول واقبال، وله

من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إلى فضله
ونباهته ونبله، وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرداً بسودده
ومجده، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقوى والورع والعفاف والطاعة،
وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده
الاحسان والبر لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصوراً، وكان احسانه
مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً، فلما ملك أحبه، واختار قربه، فلزمت
له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج
والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشعراً، فمن
ذلك ما كتبت إليه:

لعل نجم الدين ذا الفضل
يذكر الفاضل في شغلي
إن أجل الناس قد رافقي
بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلي
ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان
منها:

عائنت طود سكينه ورأيت شمس
س فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة صاحباً
بيانه ذييل الفخار لسوائل
أبصرت قسافي الفصاحة معجزاً
فعرفت أني في فهامة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقوى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل

وجميع ما في الأرض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل
في كفه قلم يعجل جريسه
ما كان من أجل ورزق أجل
يجري ولا جري الحسام إذا جرى
حداه بل جري القضاء النازل
نابت كتابته مغاب كتيبة
كفلت بهزم كتائب وجحافل
فعدوه في عدوه وولييه
في عدله أكرم بعباد عادل
ريان من ماء التقى صاد إلى
كسب المحامد وهي خير مناهل
يا واحد العصر الذي بد الورى
فضلاً بغير مشابه ومشاكل
مالي وجاه الجاهلين فأغنتني
عنهم كفيتهم وجدد بجاهلي
أرجوك معتنياً لدى السلطان بي
كرماً فمثلك يعتني بأمثالي
قرر لي الشغل المبجل مخلصاً
بالي من الهم المقيم الشاغل

قال: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرفه أنه في راغب، وقال: أنا لا
يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا
تستغني في الملك عن عقد الملطفات، وحل التراجم، والعماد يفني بذلك،
ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره، وأخذ لي خط السلطان
بما قرره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي.

قال وخدمت أمير المؤمنين المستضيء بالله في ذي القعدة مع الرسل
بهذه القصيدة:

أصبح عقود الغانيات مريضها
وأفتك ألحاظ الحسان غضيضها

يقول في مديحها:
ومن عجب صلت لقبله بأسهم
رؤوس أعاد من ظبأهم مخيضها

قال ابن أبي طي: وظهر في مشغرا قرية من قرى دمشق رجل ادّعى النبوة، وكان من أهل المغرب، وأظهر من التخييل والتمويهات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى افساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة والتخييل، وهوى امرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوة.

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الارتقي، صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

ثم دخلت سنة احدى وسبعين

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جذباء، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يرشاً
فنسأل رب العلى أن تعيشاً
من الناس بالبرصت الكرا
م وبالبأس في البرصت الوحوشا
وكم سرت من مصر نحو العريش
شش فهذمت للمشركين العروشا
سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العدا
ة كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال: ومدحت مستهل ربيع الأول تقي الدين بقصيدة موسومة، وكان قد فوّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما، ولم أسبق إليهما وهما:

يفيد العاقل اليقظ التنابي
ليدرك في الغنى حظ الغبي
ولم تصب السهام على اعتدال
بها لولا اعوجاج في القسي
فقل للدهر يقصر عن عنادي
أما هو يتقي بأس التقى

حلفت برب مكة والمصل
وثاوي ترب طيبه والغري^(١٤٦)
لأنتم يا بني أيوب خير الـ
ورى بعد الامام المستضي

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد لموافقة قطب الدين قاياز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان والاحتراز، وكان قاياز هذا محكماً في الدولة الامامية، من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافه ورام اتلافه حتى استعاذ منه برباط صدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به، ثم إن قاياز خالف الخليفة، وشق العصى وعن له حصار الدار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لما احيط بداره إلا بفتح باب في جداره، وانهمز فوصل إلى الحلة في أوائل ذي القعدة سنة سبعين وهو في موسم الحج فجمع رجاله وتوجه إلى الموصل وخانه أخوانه ونخله أصحابه فتوفي في بعض قرى الموصل، وتفرق أصحابه في البلاد، فممنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشام منهم: حسام الدين تمريك، وعز الدين اقبودي بن ازغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريماً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخلص ماله، واستقامة حاله، وكان ذا خزائن مملوءة، وخيل مسومة، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قاياز مما يقبل الصفح، وكان اقبودي زوج أخت السلطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتب المحررة عن السلطان إلى وزير بغداد بالمثل الفاضلي: «وما نحسب أنا مع الموالات المتناصرة المستظهرة والمساعي التي كانت لشارات هذه الدولة بالغة ولأعدائهم دافعة، ولتنازعهم الأمر

قاصمه، ولمجازيهم الحق واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه، وكوننا ما أعنا منهم بنجدة من رجال ولا بهادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال، يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربي لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالاجبار عندنا واسعه، والأعواض لدينا غير متعذره، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنيه، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا أثر غير سلطانه سلطاناً، وله إعدار لا بأس أن نعيه فيها لساناً وبياناً، ثم ذكرها، ثم قال: «وهذا الأمير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصياً وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا، وعن بقية الجماعة، فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للإسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التدبير».

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً و يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين:

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحاً لما
نجيت يوم نداءه من طوفانها
سمح يروح إلى الندى براحة
قد أعشب المعروف بين بناتها
وفتى إذا زخرت بحار نواله
غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرففات بكفه
أمضى على الأيام من حدثانها

- ٨٢٠٢ -

ملك إذا جليت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فأسلم صلاح الدين وأبق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حرانها

وهي طويلة.

قال: وقام اليوم الذي يليه وقد جلس السلطان للعدل، فأنشده قصيدة منها:

هل بعد جلق إلا أن ترى حلبا
وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أئتت كمتختار طائفة
وقد عنالك منها الحصن والبلد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك الناصر، فمدحه بقصيدة طائيه فأعطاه ألف دينار، فمنها يصف غارته على غزه، وعوده من ذلك الغزو بالعزة:

فتى مدغزبا الخيل والرجل غزة
نأى عن نواحيها الرضى ودنا السخط
رماها بأسد ما هن مرابض
ولا أجسم إلا الذي تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب
من الترك لا نوب طعام ولا قبط

وله في السلطان قصائد (١٤٧) أخرى

قال: وقام البهاء السنجاري وأنشد الملك الناصر قصيدة في دار

العدل بدمشق سنة احدى وسبعين في شعبان منها:

يا ظيية الهرمين من مصر على الـ

ـ ربيع السلام اذا تقووض أو عفا

اصبـو إلى عصر تقـادم عهـده

فأزيد من وله عليه تلهفا

أحبنا بالقصر لو قصرتم الـ

ـ هجران ما شمت الحسود ولا اشتفى

أشكو إلى الوادي فيحنو بانه

من رقة الشكوى علي تعطفنا

ومنها:

وجرى بي الأمل الطمـوح فأمـ بي

سلطان أرض الله طـرا يوسـفا

الناهب الأرواح في طلب العلى

والواهب الآجال في حسن الوفا (١٤٨)

فصل

فيما تجدد للمواصلة والحلبين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحلبين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق الخزم، فحملوهم على النقض والنكث، وأنفذوا من أخذ عليهم الموائيق، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده، فلما خلا به، طالبه السلطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كفه نسخة يمين الحلبين لهم وناولها إياه، فتأملها وأخفى سره وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه

وردها إليه، وقال: لعلها قد تبدلت، فعرف الرسول أنه قد غلط ولم يمكنه تلافي ما فرط وقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم، وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض، وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الربيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر يعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليل إلى بغداد عن السلطان « يطالع بأن الحلبيين والموصلين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكرات إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها، وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وأمرأ مشهده يميناً جعل الله فيها حكماً، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله لسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصلين والحلبيين، مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حزبنا، والتساعده على إزالة خطبنا، والإستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا، وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجه، وأردت عمراً وأراد الله خارجه، وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله أن يكون اسمه معرضاً للحنث العظيم، والنكث الذميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والأخذ قدير، والمواقف الشريفة النبوية أعلاها الله مستخرجة الأوامر إلى الموصلية إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضيق خناقة».

ثم ذكر أمر الفرنج ثم قال: «والمملوك بين عدو اسلام يشاركونه في

هذا الاسم لفظاً ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهم إلا أجناده»، ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الاطراف « أن يكونوا للمملوك على المشركين أعواناً، وأن يمثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوها إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرفته، فإن قعدت بهم العزائم وأخذتهم في الله لومة لائم، فلا أقل من أن لا يكونوا أعواناً عليه، يلقنونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه»

قال ابن شدّاد: لما وقعت الواقعة الأولى مع الحلبين والمواصلة، كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله في طاعته، وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين، واعتصم بذلك، واشتدّ سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سورته ثلث كثيرة وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشدّ أمره ويقوي جأشه، فراسله في الصلح فصالحه، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر، والانفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقرّ قاعدة يصل عليها إليهم، فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كبيرة عزم فيها على العود مراراً حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب، وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه وضمه إليه وبكى، ثم أمره بالعود إلى القلعة، فعاد إليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم، وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزاً، ونزل وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار

بكر، والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر، وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير، حتى وصل عسكر مصر ففسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليك، ووجهوا من كشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرق عسكره يسقي، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال، وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمن عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزائنه، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسار مسارعين، فما عرجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد، ونزلنا الغسولة، وجزنا حماه وخيمنا في مرج بوقبيس، وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوة وشدة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس، فرتب السلطان عسكره، وقوى بقوة قلبه قلبه، وأمد الله بحزب ملائكته حزبه

ولما وصل المواصلة إلى حلب أطلقوا من كان في الأسر من ملوك

الفرنج منهم أرناط ابرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك، فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبّرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر وأعدنا الائتقال إلى حماه.

ثم وصف الواقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مئتهم وآلافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بهائمهم، ووكل بسراق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدّاه، ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدمين، ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماه، وأطلقهم ثم نزل في السراق السيفي، فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك، أسدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود، ورأى في بيت الشراب، بل في السراق الخاص طيوراً من القماري والبلابل والهزاز والبيغا في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فأنسه وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه، وسلم منا عليه، وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحدث.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض، فتبعجت خيولهم، وتوجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويخلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها، وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعه، وجاوز في سوقه الاستطاعه، وفرق وفارق الجماعة

وفي كتاب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرك إلى جانبها ليكون رداء لها ومدداً فظن باقي العسكر أنه قد انهزم، فانهزموا

فحقق ما كان وهماً، فسار على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوهم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسير جواريه وحظاياه إلى حلب وأرسل إليه بالأقفاص، وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها الذم من مقاساة الحرب، ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمر والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره، واستعاذ من هذه البلية، وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماء، ثم ردهم وخلع عليهم، وأرسلهم إلى حلب، وهنا العباد للسلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي أفضاله

حلوا الجنى عالي السنا وضاحه

عاد العدو بظلمة من ظلمه

في ليل ويل قد خبا مصباحه

وجنا عليه جهله بوقوعه

في قبضة البازي ففيض جناحه

حمل السلاح إلى القتال ومادى

أن الذي يجني عليه سلاحه

أضحى يريد مواصليه صدوده

وغدا يجيد رثاءه مداحه

إن أفسد الدين الغلاة بحثهم

فالناصر الملك الصلاح صلاحه

قد كان عزمك للإله مصمما

فيهم فلاح كما رأيت فلاحه

وكانني بالساحل الأقصى وقد
ساحت بنحردم الفرنجة ساحه
فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الـ
— موت الأجاج فقد طمى طفاحه
لتفك من أيديهم رهن الرها
عجلا ويدرك ليلها إصباحه
وابغوا الحران الخلاص فكـم بها
حران قلب نحوكم ملتاحه
نجوا البلاد من البلاء بعد لكم
فالظلم باد في الجميع صراحه
واستفتحوا ما كان من مستغلق
فيها فربكم لكم فتاحه
أنتم رجال الدهر بل فرسانه
ولدى الخلوم الطائشات رجاحه
فتأكسه نساكسه ضراره
نفاعه مناعه مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه
مطعانه مقدمه جحججاحه
وإذا انتدى في محفل فحميه
وإذا غدا في جحفل فوقاحه

قال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء وهو محب
للفضل وأهله، باعث للخواطر على مدحه ببذله، فنظمت فيه قصيدة
منها:

نصر أنار الملككم برهانه
وعلا لذة شائتيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبو المظفر يوسف سلطانه

الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه
والدهر لا يأتي بغير مرادكم
فهل القضاء لأجلكم جريانه
وكانا لله في أحكامه
فلك على إشاركم دورانه
فخر أبني أيوب إن فخاركم
بذل الملوك السابقين رهانه
يكفي حسودكم اعتقالاتهم
فكانا أشجانه أشجانه
الدين عز الدين عز بنصركم
والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان جيشكم كبحر زاهر
واللابسون جواشنأحيتانه
فطما لهلكهم عليهم بحركم
بأسا وغرق فللكم طوفانه
فضل الملوك الأكرمين بفضله
فعلا زمانهم البهيج زمانه
في فضله في عدله في حلمه
صدّيقه فاروقه عثمانه
هو في السماح وفي اللقاء عليه
هو في العفاف وفي التقى سلمانه
من آل شاذي الشائدين لمجده
بنييه بيتا عاليا بنيانه
بيت من العلاء سام شاهق
ينسي على كيوانها أيوانه
ياسالب التيجان من أربابها
ومن الثناء مصوغة تيجانه

والحمد لمال أنتم بـذاله
والمال حمد أنتم خزانه

قال: ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته، وواصل لذته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسقط في أيديهم حين أفرطوا في تعذيبهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلدوا، وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يهنيء بها السلطان بهذه الكسرة:

وما شك قوم حين قمت عليهم
غداة التقى الجمعان أنك غالب
ولو لم تقدر تلك المقانب لا غتدى
لنفسك في نفس العدو مقانب

قال ابن أبي طي: وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة إلى بزاعة، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل، وصار باقي عسكر حلب إلى حلب في سابع شوال في أقبح حال وأسوئه، عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الأيمان والعهود، وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان وخيم عليها أياما، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والمعازل والقلاع، فنفتحها فإننا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها فصوبوا رأيه، فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالأمان وولاهها عز الدين خشتين الكردي.

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالى حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في الثاني والعشرين من شوال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به احسان، بل كان في جر عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولا يياذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره فسلم القلعة بما فيها، وقوم ما كان سلمه ثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات، وسامه على أن يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره، وذهب ما جمعه، ومضى إلى صاحب الموصل فاقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين، قال العماد:

نـزولـك في منبـج

ج على الظفر المبهـج

ونجحـك في المرتـجى

ج وفتحـك للمـرتـج

دليل على نجـحـمـا

ج تحاول أو تـرتـجى

أمـورك فيما تـرو

ج م واضحـة المنهـج

وشأنـك دامـي الشـؤ

ج ن منك شقـي شـجـي

ومـن كان في حصنـه

ج ومـن قبـل لم يـخرج

يقـال لـه لـيس ذا

ج بعشـك قـم فـادرـج

فرأىـك يستـنزل الـ

ج نـجـوم مـن الأبرـج

فَعَجَلَ عِبْرَ الْفَرَا
تِ وَأَسْرَ وَسَرَّ وَأَدْلَجَ
وَعَجَجَ نَحْوَ تَلَكِ الْبَلَا
دُوعِنَ غَيْرِهَا عَجَجَ
فَحَرَّانَ وَالْقَرَقَا
نَ تِلْكَ الْيَتَامَى مَنِجَجَ
وَجَلَّ عَنِ الْمُسْلِمِ
يُنَ لَيْلَهُمُ الْمَدْجِي

قال ابن أبي طيِّ : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله، ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفانة فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقليل له ولد يحببه ويؤثره اسمه يوسف كان يتدخّر هذه الأموال له، فقال السلطان أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي فتعجب الناس من ذلك.

قال: ولما فرغ من منبج نزل على عزاز، ونصب عليها عدّة مجانيق، وجدّه في القتال، وبدل الأموال.

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن عزاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز، وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً، وكان السلطان قد أشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج فإن الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين رحمه الله في أسرهم، فرجى السلطان أن يحتاط على المعقل ويصونها صون العقائل، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد مدّة حصارها المذكورة، وقال العماد قصيدة منها:

أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في أعزازها
حاز العلى بيأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها
بحدّه أفنى كنوز أفنى الـ
ملوك في الجذّ على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرارومها
أرمنها أفرنجها أبخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه
تفاخر الفرس بأبروازها
تهن من فتح عزاز نصرة
أوقعت العداة في اهتزازها
واليوم ذلت حلب فلإنها
كانت تنال العزم من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيامها
برزت في نصر الهدى بحجّة
وضوح نهج الحق في أبرازها
كم حامل للرمح عاد مبدى
عجز عجز الحى عن عكازها
أرفع حظوظي من حضيض نقصها
وعدّ عن همازها المازها
والشعر لا بدّ له من باعث
كحاجة الخيل إلى مهمازها

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدّة مقامنا على عزاز
فأخذوا على غرة وغفلة ما تعجلوه وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم فما
أدركوا إلا فارسا واحداً، فأمر السلطان بقطع يده، بحكم جرده، فقلت
للمأمور وذلك بمسمع من السلطان: تمهل ساعة لعله يقبل مني

شفاعه، ثم قلت: هذا لا يجل، وقدرك بل دينك عن هذا يجل، وما زلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم، وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه، وسرني سلامة نفسه، ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: ما هذا الفشل والونا وإن سكتم أنتم فما أسكت أنا، ودمدم وزمجر، وغضب وزار، وقال: لم لا يقتل هذا الرجل، ولماذا اعتقل، فوعظه السلطان واستعطفه، وسكن غضبه وتعطفه، وتلا عليه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (١٤٩) وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه.

فصل

في وثوب الحشيشية علي السلطان مرة ثانية علي عزاز وكانت الأولى علي حلب

قال العماد: وفي حبادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية علي السلطان ليلة الأحد، وهو نازل علي عزاز وكان للأمير جاويي الأسدي خيمة قريبة من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث علي القتال، وهو بار بيت أبيادي، قار علي الدهر بكف عوادي، والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة فعاقته صفائح الحديد المدفونة في لمتة عن تمكينه ولفحت المدية خذّه فخدشته، فقوى السلطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشي وبضعة وقطعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطينه، وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من

الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب فنادى، اقتلونى معه فقد قتلنى وأذهب قوّتى وأذهلنى، فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه، وخرج آخر من الخيمة منهزماً، وعلى الفتك بمن يعارضه مقدماً، فثار عليه أهل السوق فقطعوه، وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزثيره قسوري، ودم خده سائل، وعطف روعه مائل، وطوق كزأغنده بتلك الضربة مفكوك ونهج

سلامته مسلوكة، وكان سلا سلامته، وأقام القوم قيامته، ومن بعد ذلك رعب ورهب واحترز واحتجب، وضرب حول سرادقه على مثل خشب الخركاه تآزيراً، ووقفه تحجيراً، وجلس في بيت الخشب، وبرز للناس كالمحتجب وما صرف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صرفه، وإذا ركب وأبصر من لا يعرفه في موكبه أبعده، ثم سأل عنه فإن كان مستشفعاً أو مستسعداً أسعفه واسعده، ومن كتاب فاضلي إلى العادل: «السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصله، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها والركوب على رسمه، والحصار لعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً، ولا ما يشغل سرّاً».

وقال ابن أبي طي: لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعازل والقلاع، فعادوا إلى عاداتهم في نصب الخبائل للسلطان، فكاتبوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على انفاذ من يفتك بالسلطان، فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاءوا بزي الأجناد ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب، وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها، فبينما السلطان يوماً جالساً في خيمة جاوولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محتزماً خائفاً من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن

رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينة إلى خدّ السلطان فجرحه، وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك، ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعها على الأرض وركبه لينحره، وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضراً، فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله، وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام، وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح علي اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركروه فطعن بطن الباطني بسيفه وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً فلقبه الأمير شهاب الدين محمود خال السلطان، فتتكب الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف، وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراز والاحتراز، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر، وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها، وسألوا الأمان فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها واصلح ما تهدم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر، وكانت عزاز أولاً للجفينة غلام نور الدين،

فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقواها لعله يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك، ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحجة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد، وكان سعد الدين كمشتكين في حارم، وكانت أقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها، وكان سبب خروجه إليها أن السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجاً في حارم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم، فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول : لو فسح لي في الدخول إلى حلب لسارعت في الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل أيضاً الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجاً، وقد بلغتني أمور ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له، وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضا الخطيب، والعماد كاتب الانشاء وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينة نصره الدين بن زنكي.

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأي العدل ابن العجمي وجعلنا في بيت، ومنع منا غلماننا، ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح، وبتنا في أنكد عيش، وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبي المضا إلى مجلس الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود، وجماعة من

قال ابن أبي طي: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها، وأمر للعساكر بها أنعم الله به عليه من النعم والأموال.

قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكا صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزور عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة يبق لكم، واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضرا يحاصره، فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك، قال: كأنه هو، قال: بأي شيء استحققت منك هذا، وقد قرّبت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل اقليمك، وأراه الكتاب، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ولا يعرفه ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره، فلم يصدّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل بين يديه صبراً، فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة، ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن، وتوجه إلى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون وكان مقامه بشبام، واستمرّ الكردي بها مدّة، ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد، واستقام أمره، وولى شمس الدولة ثغر تعز بمسلوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولى قلعة تعكر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلّة

وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر، وأعطاه السلطان سراق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد، قتله ابن أخيه وملك بعده بصرى وصرخد شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على ما يريد من إقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريد ليحلف عليه، فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجوه التأويل، فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأويل عليه شمس الدولة في اليمين، وقبضه ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أن قتله.

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فأنفذ إليه من حلب عسكرياً فحاصروه أياماً وسلم الحصن وصلحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأخبر أن قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عمرت وسكنها أجناد أقوىاء شجعان ملكت برقة، وإذا ملكت برقة ملك ما وراءها، فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش، وقدمه على جماعة من أجناده وماليكه، فصار إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها، واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد الجريد وفزان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغبه في الدخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان

يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة، فلقية صاحبها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها، ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرق على رجاله عشرين ألفاً، وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيريه وطيب هوائه، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم، فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلاً من أصحابه يقال له صباح، ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة، واتفق أن صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلد، ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشي قراقوش أن يقيم وحده، فرجع معهم، فلما حصل بمصر طاب له المقام، وثقل عليه العود، وزوجه تقي الدين باحدى جواريه، وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال وأعدو إليكم.

قال ابن الاثير: وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير رحمهما الله تعالى، وقد مكنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الأمور، والاطلاع على دقائق الحسابات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية، والانشاء حيرت العقول، ووضع في كتابة الانشاء وضعاً لم يعرفوه، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد، وكان قد زوجه بنته، فأطلق وسار إليه وبقي بآمد يسيراً مريضاً، ثم فارقتها وتوفي

بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ورد إليه أزمة الأمور في الحل والعقد والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي لقبه أيضاً زين الدين، فكان البلد لولد زين الدين اسماً لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي ابن الحسن بن عساكر، صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التنوخي الجهازي الصوفي بن الصوفي، ذكره العماد في الخريدة، وقال: كان صديقي وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدين، وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد، وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها في الحقائق وأنشدها في مجلسه:

يا مالكا مهجتي يا منتهى أمني
يا حاضرأشاهدأني القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالق
حتى إذا صرت تمثالا من الصور
أجريت في قالب روح منورة
ترفيه كجري الماء في الشجر
جمعت بين صفاروح منورة
وهيكل صغته من معدن كدر

- ٨٢٢٤ -

إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي
وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري
أواحتجبت فسري منك في وله
وإن خطررت فقلبي منك في خطر
تبدو فتمحور سومي ثم تثبتها
وإن تغيبت عني عشت بالأثر

ثم دخلت سنة إثنين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولادوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرأ كل عشرة لهم وأقالها، وأراد له الاعزاز فردّ عليه عزاز.

وقال ابن شدّاد: أخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة، سألت منه عزاز، فوهبها إياها .

قال ابن أبي طي: لما تم الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بانفاذ أخته، وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه، فقام قائما وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يرده عليهم عزاز فقال: سمعا وطاعة، فأعطاه إياها، وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا، واتفق مع الملك الصالح أن له من حماه وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما اسخطه، وكان الصلح عاما لهم، وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت في نسخة اليمين: أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بها عليه حالف، كان الباؤون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة حتى يفى إلى الوفاء

والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق، فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عند الاسماعيلية، وكيف قصده بتلك البلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلاً وأسراً وساق أنفارهم، وخرب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وهو متولى بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طي: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان، وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدة في الأسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، ووصل السلطان إلى حماه، وقد استكمل الظفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الأخوان في المخيم بالميدان، وتحدّثا في الحداث، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقتة بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجم

المصري أولها:

الشوق أولس بالقلوب وأوجع
فعلام أدفع منه مالا يدفع

ومنها

وهملت من وجد الأجابة مفرداً
ماليس تحمله الأجابة أجمع
لا يستقر بي النوى في موضع
الا تقاضاني الترحيل موضع
فإلى صلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضى الجوانح موجه
جزعاً بعد الدار منه ولم أكن
لولا هسواه لبعده دار أجزع
فلأركبن إليه متن عزائي
ويجب بي ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها أصبح السعادة يطلع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها،
فقلت: فذكر قصيدة منها:

مولاي شمس الدولة الملك الذي
شمس السيادة من مناه تطلع
مالي سواك من الحوادث ملجأ
مالي سواك من النوائب مفرج
ولأنت فخر الدين فخري في العلى
وملاذ آمالي وركني الأرفع
الابخد متك المجلة موقعي
والله مال الملك عندي موقع

وبغير قريبك كلما أرجوه من
درك المنى متعذر متمنع
للنصر إن أقبلت نحووي مقبل
واليمن إن أسرعت نحووي مسرع

قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك
دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم إلى مصر السفر.

فصل

في ذكر جماعة من الاعيان تجدد لهم ما اقتضى ذكره في
هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين
ابن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين
وأربعمائة، وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح
الدين إذ ذاك يتولى الشحنة بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده
بتوجيه الاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه
ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماعه بحلمه
وراضه، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنة إلى الملك، وصار
كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه ما
فيه، وما فرمته فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم
يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه
واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده
وييديه، وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد
هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك

إرادته بإدارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفر حظه من الذهب، وملكه داراً بالقاهرة نفيسة جميلة جليلة جليته، ورتب له وظائف، وخصه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشام وأمره جار على النظام، ولما اشتد بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جوهره العرض، أراد أن يبقى القضاء في ذويه، فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علماً منه بأن السلطان يمضي حكمه لأجل سؤاليه، ويجعله عنده من عوائد عوارفه، ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله، باراً بالأبرار، مختاراً للاخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام، وقد قواه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه، وسدد مرامي مرامه، وهو الذي سن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان، فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان، وتوفي ونحن بحلب محاصرون، وذكر العباد في الخريدة لابنه محيي الدين قصيدة في مريته منها

الموا بسفحي قاسيون فسلموا
على جدت بادي السنات وترحوا
وبالرغم مني أن أناجيه بالمني
واسأل مع بعد المدى من يسلم
لقد عدمت منك البرية والدا
أحسن من الأم الرؤوف وأرحم
ولاسيما أخوان صدق بجلق
هم في سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم
فما كان فيهم من يضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفواً ورحمة
كما كنت تعفو ما حييت وترحم (١٥٠)

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن احسانه، وأبقى نواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه، وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الاحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا، والسلطان يؤثر أن يفوض إليه منصب القضاء ولا يرى عزل الضياء، فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك.

قال العماد: وأول ما اشترت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الايام النورية، فملكته في الايام الصلاحية.

قلت: قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وستائة بسبب الحصار، واستمر خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي، وكان ينوب عن كمال الدين في أمره فأمره السلطان أن يجري على رسمه ويتصرف في حكمه، وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عدته مناج، ففوض إليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على أن يتولى يحيى الدين أبو

المعالى محمد بن زكي الدين والأوحد قاضيين في دمشق يحكماهما وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء منفرداً بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملك المعظم فخر الدين، فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره، وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدرة، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه، واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صرف واستقل به ابن زكي الدين، فأقام في مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين ابن الزكي فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاه بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله، وعلى من هو مدرسههم بهذا الموضع، من أصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النسابوري رحمه الله، ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله « الحمد لله وبه توفيقى »

قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول إلى دمشق توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق وهو أول خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية، وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء، ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرب

ولده وجبر بتربيته يتمه، ثم تعين ضياء الدين ابن الشهرزوري بعده للرسالة إلى الديوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السلطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشام فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبة، وهو متوّد إلى بصفاء المحبة.

وفيهما في آخر صفر تزوّج السلطان بالخاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله، فلما توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر مستقلة بأمرها، كثيرة الصدقات، والأعمال الصالحات، فأراد السلطان حفظ حرمتها وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين ابن أبي عصرون وعدوله وزوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، بإذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها، وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام، ولم يزل بنو منقذ ملاك شيزر وقد جمعوا السيادة والمفخر، ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه لم يرد أن يكون معه فيه سواه، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسة وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد، وكلهم من الأجواد الأجداد وما فيهم إلا ذو فضل وبذل، واحسان وعدل، وما منهم إلا من له نظم مطبوع، وشعر مصنوع ومن له قصيدة، وله مقطوع، وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم بالأدب، وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر وقتل عباس

وزيرهم أخوته وإقامة المنعوت بالفائز، وما ردف ذلك من الهزاهز، فعاد
مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها، ولما سمع بالملك
الصلاحي جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال:

حمدت على طول عمري المشييا
وإن كنت أكثر في الذنوبيا
لأنني حيت إلى أن لقيت بـ
عدو صديقاً حبيباً

قال: وكنت أسمع بفضلله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبه، وأنشدني له
مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين، وهما
من مبتكرات معانيه في سنّ قلعه:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفسي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه منذ تصاحبنا فحين بدا
لنا ظري افترقنا فرقة الأبد

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه، مع كثير من
شعره المبتكر من جنسه.

قلت: ومن عجيب ما اتفق أي وجدت هذين البيتين مع بيتين
آخرين، المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير
الاطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قرأت في ديوانه
وقال في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يسعى لنفسي وأجني ضره بيدي
أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري
ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو بيثي من خال بوجته
مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال: « لم ألقه مذ تصاحبنا «البيت، فالأشبه أن ابن منير أخذهما، وزاد عليهما، ولهذا غير فيهما كلمات، وقد وجدت هذا البيت الأول على صورة أخرى حسنة: « وصاحب ناصح لي في معاملتي»، ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً فنسباً إليه لما كان مظنة ذلك، ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله اعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفاً، وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به يفضل على جميع الدواوين ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر، فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعرة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإداراً، وإذا كان بدمشق جالسه وأنسه، وذاكره في الأدب ودارسه، وكان ذا رأي وتجربة وحنكة مهذبة، فهو يستشير في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحل مشكلاته، وبلغ عمره ستاً وتسعين سنة فلما مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدم من أخباره في قتل الأسد في شببته أيام كونه بشير، وذكر أيضاً له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول

قال العماد: لما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أحملت من بعده من جود جود السحاب، وتقدمه الأمراء والملوك، وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصفر، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت منزلاً إلا نظمت أبياتاً فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره:

أقول للركب بالخياره نزل
أثيروا فإلي في المقام خيـار
هم رحلوا عنك الغداة وما دروا
بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه
وفي القلب من نار الغرام أوار
أجروا من البلوى فؤادي فعندكم
ذمام له ياسادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع
رأيتني بالفقيع منفردا
أضيع من فقع قاعها الضائع
بعث بمصر دمشق عن غرر
مني فياغبن صفقة البائع
صبري والقلب عاصيان وما
غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفوار:

تحذر بالفوار دمعني على الفور
فقلت لجيراني أجيروا من الجور
وأصعب ما لاقيت أني قانع
من الطيف مذبتهم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:

ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا
أنامل تدمي حيرة للتندم
أعدت لك يا زرقاء حمراء إنني
بكيك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبي عندهم متخلفا
وخالفتهم في عزمتي والتقدم
فياليت شعري هل أعود إليهم
وهل ليت شعري نافع للمتم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قرية من قلعة الشوبك، وفيها
تختطف الأفرنج القاصدين إلى مصر
طريق مصر ضيق المسلك
سالكه لاشك في مهلك
وحسب مصر صار حبالا
أوقعه في شبك الشوبك
لكننا من دونها كعبنة
محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يشكي الذي
إليه من أيامه يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل
بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب، واتفق أن السلطان سير إلى مصر

الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعي من شاديه إلا إنشاده، ويطرب لسماعها ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي، وهي هذه :
هجرتكم لا عن ملال ولا غدر
ولكن لقدور أتيج من الأده
وأعلم أنني مخطيء في فراقكم
وعذري في ذنبي وذنبني في عذري
أرى نوبال للدهر تحصي ولا أرى
أشد من الهجران في ثوب الد
بعيني إلى لقياس سواكم غشاوة
وسمعي عن نجوى سواكم لدو
وقلبي وصبري فارقاني لبعديكم
فلا صبر في قلبي ولا قلب في صبر
وإني على العهد الذي تعهدونه
وسري لكم سري وجهري لكم جه
تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم
وها أنا في صحوي نزيف من الس
وإن زمانا ليس يعمر موطني
بسكنناكم فيه فليس من العدم
وأقسم لو لم يقسم الين بيننا
جوى الهم ما أمسيت مقتسم الف
أسير لآل مصر وقلبي أسيركم
ومن عجب أسري وقلبي في
أخلائي قد شط المزار فأرسلوا الس
سخيال وزوروا في الكرى وأربحوا أج
تذكرت أحبابي بخلق بعد ما
ترحلت والمشتاق يأنس بالذ
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فأسبلت دمعي للبكاء على ص

ولما قصدنا من دمشق غباغباً
وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعي
ففاضت وباحت بالمكتم من سري
سرينا إلى الزرقاء منها ومن يصب
أواماً يسر حتى يرى الورد أو يسري
تذكرت حمام القصير وأهله
وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من
مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي ياسة الثرى
بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمدا الحصى
ومن يرتجى ريامن الثمد النزر
فقلت اشرحني بالخمس صدر أمطيتي
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة أننا
إلى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عيني على فيض عبدة
أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا إلى أرض الديروجنة
هنالك من طلع نضيد ومن صدر

وجينا الفلا حتى أصبنا مباركا
على بركة الجب المبشر بالقصر
ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي
بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلي
فيا خجلتي من أم عمرو ومن عمرو
تقول إلى مصر تصير تعجبا
وماذا الذي تبغي ومن لك في مصر
فقلت: ملاذي الناصر الملك الذي
حصلت بجدواه على الملك والنصر
فقلت أقم لا تعدم الخير عندنا
فقلت وهل تغني السواقي عن البحر
ثقي برجوع يضم من الله نجحه
ولا يقتضي أن نبذل العسر باليسر
عطيته قد ضاعفت منه الرجا
ونعمته قد أضعفت منه الشكر

قال: وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول
بالزي الأجل، والعز الأكمل، وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل
سيف الدين إلى صدر، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسر وتلقانا حيز
مصر، ووصلت إلينا ثمراتها، وجليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها

وزاد اغتباطها، ودخل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إirاده
واصداره، وكانت قد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها لقلّة الوثوق بآني
أحصل بمثلها، فنظمت يوم خروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد
ابن شيركوه منها:

بمهجتي خنت العطف

فمستلذ الدلال

يقول لي بانكسار
ورققة واعتلال
معاتبنا بحديث
أصفى من السلسال
مما مصر مثل دمشق
بعبت الهدى بالضلال
فقلت عننت أمور
عجيبه الأشكال
أسير في طلب الـ
عز مثل سير الهلال
لم يبلغ البدر لولا الـ
مسير أوج الكمال
وكيف أتى شرك شغلي
وإنه رأس مالي
صلاح حالي صلاح الـ
لدين الغزير النوا
مالي أفارق ملكا
ملكته أمالي
ياناصر الدين قلبي
عليه في بلال

ثم ذكر العباد المحسنين إليه بالقاهرة وسيدهم المولى الأجل الفاضل،
وقد مدحه بقصيدة منها:

كيف لا يغتدي لي الدهر عبداً
وأنا عبد عبد عبد الرحيم
بدوام الأجل سيدنا الفا
ضل يادولة الأفاضل دومي
إذا راه ينوب عني لدى الـ
ملك مناب الأرواح عند الجسم

ومنها
فرَّغَ الكنز من ذخائر مال
مالثام من نفائس الحمد كنزه
همة مستهامة بالمعالي
للدنيا يا أيية مشمته

قال العماد: وتوفرنّا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزه في الجزيرة والجزء، والأماكن العزيزة، ومنازل العز والروضة، ودار الملك والنيل والمقياس ومرامي السفن ومجاري الفلك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين ابن الشهر ووزوري أن يفرجنا في الاهرام، فقد شغفنا بأخبارها في الشام، فخرج بنا إليها ودار بنا حوالها ودرنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري، وأحمدنا المقار والمقاري، وهالنا أبو الهول، وضاق في وصفه مجال القول، ورأينا العجائب، وروينا الغرائب، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكل يأتي في وصفها بما نقله لا بما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهم حدوده، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان، انقضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسار الأخبار بذكر حديث أحداث عاده وثمروده، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه في بأسه وجوده، وأن في الأرض الهرمين، كما أن في السماء الفرقدين وهما كالطودين الراسخين، وكالجبليين الشاخين، قد فنيت الدهور، وهما باقيان، وتقاصرت القصور، وهما راقيان، وكأنها لأم الأرض ثديان، وعلى ترائب التراب نهذان، ولسلطان العالم علمان، وإلى مراقي الأملاك سلمان، وهما لليل والنهار رقيبان، ولرضوى ولشمام نسيبان، ومن

زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان،
ولشخص الكرة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولثله من
الفضلاء والأعيان، فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان، وله دار
مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة
قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دار أيضاً على شاطئ
النيل يرسم ضيافة من نزل به، قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية
من بعده وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده.

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع
بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف،
مفهرسة بالمعروف، فليل للأمر بهاء الدين قراقوش متولي القصر، والحال
والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث، وتساوى سمينها
والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى
أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا درية له بأسفار الأدب، وكان
مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها، ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي
أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغربت من مساكنها، وخربت أوكارها،
وزهبت أنوارها، وشتت شملها، وبت جبلها، واختلط أدبيها بنجومها
وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها
بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات
الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً، إذا فقد
منها جزء لا يخلف أبداً، فاختلفت واختبطت، فكان الدلال يخرج عشرة

عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بالدون، وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدة، وما فيها من عدة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتاباً قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بهائة.

قال: فلما رأيت الأمر حضرت القصر، واشتريت كما اشتروا، ومريت الأطباء كما مروا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم علي بها وأبرأ ذمتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة، انتقيت له من القصر، وهو ينظر في بعضها، وبسط يدي لقبضها، قال: وكنت طلبت كتباً عيبتها فقال: وهل في هذه شيء منها؟ فقلت: كلها وما استغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال: وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب وتكمل فيه الحساب، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعاً، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنتان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بجبل

مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل، وأعطاهما حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دار في القصر ببيمارستانا للمرضى، وأستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهب إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأذاها.

فصل

في خروج السلطان إلى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزیز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية، ثم وصلنا إلى ثغر الاسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبتها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر، وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

قال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناعات أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:
يوماً بحىّ ويوماً في دمشق وبألـ
فسطاط يوماً ويوماً بالعراقيـ
كان جسمي وقلبي الصب ما خلقت
إلا ليقتسماً بالشـوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:
يا باخلاً عند الوداع بوقفة
لو سامني روعي بهالم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل
ترك ألفاً بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته
مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسر مـرحلاً فسي أسرا هو
قلبي ليدك مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادي المبلى
إذ كنت أنت معذبي والمبلى

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود:
نزلت بأرض المنيتين ومنيتي
لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي
سأبلى ولا تبلى سريرة وذكـم
وتؤنسني إن مست في وحشة اللحد

قال: وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر
بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وإنشائه،
وإفاضة الجود وإغزائه، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم
وأخباره، وإشاعه العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعار الشرع وإظهاره
وابقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائح في السلطان ما أنشدته إياه سادس شوال:
فديتك من ظالم منصف
وناهيك من باخل مسرف
ومنها:

أبلغ دهري قصدي وقد
قصدت بمصر ذرايوسف
ويوسف مصر بغير التقى
وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به
دماء متى تجرها ينظف
وإهد إلى الاستار البتة
روهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا
ديخلصك الله في الموقف

وفيها وصل رسل المواصله، وصاحب الحصن وماردين إلى دمشق،
فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم
قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طي: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال
الدين بن الشهرزوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمه
السلطان واحترمه، وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان، ورسول
صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان
بمصر، فاعترضهم الفرنج فأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر
حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع
إلى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح
بلاد فزان بأسرها.

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لإرهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص، واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة فقلت:

مولاي عز الدين فرخشاه
الدهر من برجك لا يخشه

ومنها:

تلقياه سمح الكف دفاقها
طلق المحيا كرمابشه
إن شئت فوتا بالردى فالقه
أوشئت فوزاً بالعلي فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيدي في
حزى لها والعدي بطشه
كم ملك عاد اكم لم ييت
إلا جعلتم عرشه نعشه
خوفتم الشرك فلا قمصه
أمتتم يوم ما ولا فنشه
أورثك السؤدد يا ابن العلي
والدك السيد شاهنشاه

وقال في الخريدة: كنا نخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عذّة من وصل في قيد الاسار، فحضر ابن رواحة منشداً مهتثاً بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضاً بما وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد قصيدة منها:

لقد خبر التجارب منه حزم
وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل برأ
وأدركهم على بحر بسف
وقد جلب الجوارى بالجوارى
يمدّن بكل قدم مرجح
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً
فمريان ييروح على مرن
زهت اسكندرية يوم سيقوا
ودمياط إلى المينابغين
يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجموا أتاهاهم بعدوه من
أبادهم تخوفه فأمسى
مناهم لو تبتههم بأمن
تملك حولهم شرقاً وغرباً
فصاروا لاقتناص تحت رهـن
أقام بآل أيوب رباطاً
رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجاء أقصى الملوك السلم منهم
ولم ير جهده في البأس يغني (١٥١)

وفيها أبطل السلطان، المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره
في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين — يعني —
قايماز دزدار قلعة الموصل في عمارة جامع بظاهر الموصل بباب الجسر،
وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان،
وكلاهما متجاوران، قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس
وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية،

وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وأعيد إلى ولايتها بعد الافراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصله من أعمال شبختان، وأخذ منها وهو طفل، وكان عاقلاً خيراً ديناً فاضلاً، تعلم الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصوم، وله ورد يصليه كل ليلة، ويكثر الصدقة وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عدة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: تنزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد بن مماتي إليّ قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كـريـم الخيـم في الخيـم
أهـيف كـالـريـم ذو شـمـم
عـجـبـي للشمـس إذا طـلـعت
مـنـه في داج مـن الظـلـم
كـيـف لا تصمـي لـوا حـظـه
ورمـاة الطـرف في العـجـم
لا تصـد قلب المحـب لـكـم
لا يـجـل الصيـد في الحـرم
يا صـلاح الـدين يا مـلـكـا
مـذ بـراه الله لـأـمـم
أضـحـت الكفـار في نـقـم
وغـدا الأسـلام في نـعـم
إن يـك الشـطرنـج مشـغـلة
لـعلي القـدر والهمـم

فهـي في ناديك تذكرة
لأمـور الحرب والكمـرم
فلكم ضاعفت عدتها
بالعطاء الجسم لا القلم
ونصبت الحرب نصبتها
فأثنت كفاك بالقلم
فأبـق لـا قـدار ترفـعها
وأمر الـا قـدار كـالخدم (١٥٢)

وفيهـا توفي بالاسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني
الديباجي، من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن
عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي الياس، من بيت القضاء والعلم،
وكان واسع الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية قيميا بالأدب، متصرفاً في
النظم والنثر إلا أنه مقل من النظم، أوجد عصره في علم الشروط وقوله
المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة (١٥٣)

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسلطان نخيم بمرج فاقوس، فنظم العباد في الأجل الفاضل قصيدة
ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أولها:

ريـم هـضيـم يـروم هـضمـي
مـن سـقم عـينـيـه عـين سـقـمـي
إن رمت باعاذي صلاحـي
فخلني والهوـى وزعمـي
لو مسك يدكـي الغرام قل لي
أنت نصـحـي أم أنت خصـمـي
أيـازمـانـي الغـشـوم أقـصر
إنـك لا تـسـطـيع غـشـمـي
عـبـد الـرـجـيـم أضـحـي
عـوـني عـلى خـطـبـك المـلـم
الـفـاضـل الأفضـل الأجـ
لـلـمـفضـل الأشرف الـلـأشـم
غـيـث غـيـاث وجـود جـود
وبـحـر عـلـم وطـود حـلـم
يـرـاعـه في الـيـمـين مـنـه
تـسـتـخـرج الـدـر مـن خـضـم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرم علم الدين الشاتاني، وهو
من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وقد سنة اثنتين
وسبعين إلى مصر وأهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين فرخشاه،
وأنزله في جواره، وجمع له من رفته ومن الأمراء ألف دينار، فمدح
السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها:

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فسر وافتح الدنيا فأنت بها أخرى (١٥٤)

قلت: لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم
مقام قصائد كثيرة، والشاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في
تاريخ دمشق، وذكره العماد في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة
يمينك فيها اليمن واليسر في اليسر
فبشرى لمن يرجو الندى منها بشرى

قال العماد: وكانت الاعلام السلطانية صفراء لا يفارق نشرها نصراً

قلت: وفيها يقول بعض الفضلاء:
وأسود خطب دوننه الموت أحمر
أتت بالأيدي البيض أعلامه الصفر
فمذ ظهرت منصوبة جزمتم بها
ظهور العدى من رفعها انخفض الكفر
واضححت تجوز الأرض شرقاً ومغرباً
ولله في إعلاء رتبته سر

وقال العماد: عاد السلطان إلى القاهرة، وأقام بها ثم اهتمت بالغزاة
هتته إلى غزة وعسقلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد
الصلاة، وخيم بظاهر بلبيس في خامسه بخميسه، ثم تقدّما منه إلى
السدير، وخيمنا بالمبرز ثم نودي خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة
للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياح، وقد أخذ السعر في
الارتفاع، فقلت لغلامي قد بدا لي وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي،
فاعرض للبيع أجمالي وأثقالى، وانتهاز فرصة هذا السعر الغالي، وأنا
صاحب قلم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من
عاقبة ندم، والمدى بعيد، والخطب شديد، وهذه نوبة السيوف لا نوبة
الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الاسلام، والواجب على كل منا أن يلزم

عظم الله فيها من النبوة، وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة،
والسعادات فيها مجددة، وكنت لما فارقته القاهرة استوحشت وتشوقت
إلى أصدقائي وتشوّشت، وكتبت من المخيم ببليس إلى القاضي شمس
الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وقد أقام بالقاهرة
وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان،
فكتب في الجواب: رافقه ولا تفارقه، فكرهت رأيه فكتبت إليه:

إذا رضيتم بمكروهي فذاك رضا
لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضاً
وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي
فإنني مستطيب ذلك المرضاً
أنتم أشرتُم بتعديبي فصرت له
متعديباً استلذاهم والمضضاً
أصبحت ممتعظاً من أجل أني لا
أرى صديقاً لما ألقاه ممتعضاً
إن رمتُم عوذاً بي في محبتكم
فحاش لله أن أبغي بكم عوذاً
لله عيش تقضى عندهم ومضى
وكان مثل سحاب برقه ومضى
العيش دان جناه الغض عندهم
والقلب محترق منسي بجمر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
حسبت أن ودادي عندهم رفضاً
قد أظلم الأفق في عيني لغيبكم
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا
ولست أول صب من أحبته
لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بها شئتُم من محنة وأذى
فقد رأيتم أمثال الأمر مفترضا

طوبى لكم مصر والدار التي قضيت
فيها المأرب والعيش الذي خفضا
بعيشكم إن خلوتم بانيساطكم
تذكروا ضجراً بالعيش منقبضا
رضيتم سفري عنكم واعهدكم
بسفرتي عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتكم قولاً أسربه
هيهات جوهركم قد عاد لي عرضا
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم
أو فاشرحوا لي ذا المعنى الذي غمضا

فكتب إلي في جوابها أبياتا منها:

لاتنسبوني إلى ايثار بعدكم
فلسست أرضى إذا فارقتمكم عوضا
ولي وداد تولى الصديق عقده
فما تراه على الأيام متقضا
يلقاك قلبي على سبل العتاب له
بصحة ليس يخشى بعدهما مرضا
صرت كالدهر يجني أهله أسفا
ويلتقي من عتاب المذنب المضضا

قال: ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

فصل

في نوبة كسرة الرمله وكانت على المسلمين بالجملة وذلك
يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه

ورحل السلطان بعساكره، فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع
والعشرين من جمادى الأولى فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر
وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسارى، فضرب أعناقهم،
وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون
استرسلوا وانبسطوا، وتوسط السلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة
مستهل جمادى الآخرة بالرمله راحلاً لقصد بعض المعقل، فاعترضه نهر
عليه تل الصافيه، فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه، فما
شعروا إلا بالفرنج طالبة بأطلاها، حازبة باحزابها، ذابة بذئابها، عاوية
بكلاها، وقد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم، وسرايا المسلمين في الضياع مغيره،
ولرعى الحرب عليهم في دورهم مديره، فوقف الملك المظفر تقي الدين
وتلقاهم وياشرهم ببيضه وسمره، فاستشهد من أصحابه عدّة من الكرام،
انتقلوا إلى نعيم دار المقام، وهلك من الفرنج أضعافها، وكان لتقي
الدين ولد يقال له أحمد أول ماطر شارب، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع في أسر
الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه، وقال له نجيء
إلى الملك وهو يعطيك الملك، وزوّر له كتاباً فسكن إلى صدقه، وخرج
معه فلما تفرد به شدّ وثاقه وغله وقيده وحمله إلى الداوية، وأخذ به مالا،
وجدد عندهم حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى
فكه السلطان بهال كثير، وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير،
فغلظ القلب التقوي على ذلك الولد جر هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة
زرناه للتعزية فيه، قال: ولو أن لتقي الدين رداء لأردى القوم، لكن

الناس تفرقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحاهم وصوب العدو بجملتهم حملتهم على السلطان، فثبت ووقف على مقدمة من تخلف، وسمعتة يوماً يصف تلك النبوة، ويشكر من جماعته الصعبة، ويقول: رأيت فارساً يحث نحوى حصانه، وقد صوّب إلى نحري سنامه، فكاد يبلغني طعانه، ومعه آخران قد جعلاً شأنهما شأنه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكثوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر، وشجعان المعشر، واتفق لسعادة السلطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه، وما فارقوه وقارعوا العدو دونه وضايقوه، فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه يتخلف، ودخل الليل، وسلك الرمل، ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل، وتعسفوا السلوك في تلك الرمال والأوعاث والأوعار، وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا إلى الديار، وأذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الأصحاب، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر، وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير، ومن كان في صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقرب الأعداء فأكمنوا في مغاره وانتظروا من يدهم من بلد الاسلام على عماره، فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا وما خلاص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين بستين أو سبعين ألف دينار، وفكك جماعة من الكفار.

قال: وما اشتدت هذه النبوة بكسره ولا عدم نصره، فإن النكاية في العدو وبلاده بلغت منتهاها وأدركت كل نفس مؤمنة مشتتها، لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل، وأوعر السهل، وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل، وبما قدره الله تعالى من أسباب السلامة، والهداية إلى الاستقامة أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء فلما وقعت

الواقعة خرج بدوابه وغلمايه وأصحابه وأدلائه وأثقاله، وبث أصحابه في تلك الرمال والوهاد والتلال، حتى أخذ خبر السلطان، وقصده وأوضح بأدلائه جددته، وفرّق ما كان معه من الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين، فسهل ذلك الوعر وأنس بعد الوحشة القفر، وجبر الكسر، وكان الناس في مبدأ توجه السلطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ريباً تحدّثوا وقالوا: لو قعد وتخلّف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه، ثم عرف أن السلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه، وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا وأشيع بأن السلطان نصره الله، وأن الفرنج كسروا وغلّبوا، فركبت لأسمع حديث النجابين، وكيف نصر الله المسلمين، وإذا هم يقولون: أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقلت لرفيقي: ما بشر بسلامة السلطان إلّا وقد تمت كره، وما ثم سوى سلامته نصره، ولما قرب خرجنا لتلقيه، وشكرنا الله على ما يسره من ترقيه وتوقيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامته مناب الدهر، وسيرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقتها الطائر لإخراس السنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبتها هائلة، ووقعها غائلة.

قال القاضي ابن شدّاد: خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقدّم الفرنج البرنس أرناط، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله، وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين، ولقد حكى السلطان قلّس الله روحه صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبئة الحرب فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهة القلب ليكون حال اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفرنج، وقدّر الله كسرهم، فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن

لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق، وتبددوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى، وكان وهنا عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، والله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين، فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها:

سقى الله العراق وساكنيه
وحياه حيا الغيث المتهتون
وجيرانا أمننت الجور منهم
ومأفاهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدماء
وفوا بالعهد في الزمان الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك منهم
بحليلة سودد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا
لخير رعية في خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم
معنونة مصححة المتون
بنو أيوب مثل قريش مجداً
وأنت لها كأنزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذعر منهم
يرى قبل الولادة في الجنين
ويوم الرملة المرهوب بأسا
تركك الشرك منزعج القطين
وكنيت لعسكر الاسلام كهفا
أوى منه إلى حصن حصين

وقد عرف الفرنج سطاك لما
رأوا آثـار هـاعين اليقين
وأنت ثبت دون السدين تحمي
هماه أوان ولي كـل ديين

قال: واهتم السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود،
وانتقاد الناس بالنقود، والسنايا الصادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك
الأسير، وتوفير العدد وتكثير المدد، وتعويض ما نفق من الدواب، فسلوا
ما ناهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طي: وقال ابن سعدان الحلبي يمدح السلطان: ويذكر ما
فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة :
قريت من عسقلان كل نائبة
باتت تقل بوكاف من الاسل
فاض النجيع عليها وهي محلة
فأصبحت مرتعا للخيـل والإبل
قل للفرنجية الخلدى رويدكم
بالشار أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الفوارط العلة
خوارق الأرض تمحورونق الاصل
كأنني بنواصيهـن يقدمها
كأس من الجود عريان من البخل
حسب العدايا صلاح الدين حسبهم
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس
مرت على أصبعيه لذة العسل

فصل

في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان، وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم، وأوقعوا به لأجلها العظام، فكتب إلى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوفوه بالصرعة فلما طال أمره قصر عمره، واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجرد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الاثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه فعلق منكوساً ودخن تحت أذنه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم أنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شدّاد: أما الملك الصالح فإنه تخبّط أمره، وقبض كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع

الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل
عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية، ولما رأى أهل القلعة خطرها
من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الآخر من شهر
رمضان، ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالين بلادهم، ثم
عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى
جانب السلطان قدس الله روحه.

قال العماد: ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير
يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خلو الشام من ناصري
الاسلام، ومن جملة شروط هدنة الفرنج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير
ما لهم في دفعة تدبير أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويخالفونه ولا يخالفونه،
فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت، وهانت الشدة ولا نت، وبحكم هذا
الشرط حشدوا الحشود، وجندوا الجنود، ونزلوا على حماه في العشرين من
جمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريض ونائب
السلطان بدمشق يومئذ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون
بلذاتهم، وكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب بالقرب فدخلها
وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب، وجرت ضرب من
الحروب، وكادت الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدروب، ونصر الله
أهل الاسلام بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاحين، ونزلوا على
حصن حارم كما تقدّم ذكره، فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصار
أربعة أشهر.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: « خرج الكفار إلى البلاد الشامية
فاسخين لعقد كان محكماً، غادرين غداً صريحاً، مقدّرين أن يجهزوا على
الشام لما كان بالجذب جريحاً، ونزلوا على ظاهر حماه يوم الاثنين الحادي
والعشرين من جمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم
أصحابنا، وتضمن كتاب سيف الدين — يعني المشطوب — أن القتل

من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصدور، ورزق عليهم النصر والظهور، ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الأصباب، مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة، كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب .

قال العماد: وتسامع الحلبيون بيوم رحيلنا من مصر، لقصد الشام، لنصرة الاسلام، وقالوا: أول ما يصل صلاح الدين نسلم حارم، فراسلوا الفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبوهم، وقالوا لهم: صلاح الدين واصل، ومالككم بعد حصوله عندكم حاصل، فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها، وعدة من الأسارى خلصوها، ثم توفي خال السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش ابن خال السلطان قبله بثلاثة أيام، وذلك أوان وقعة الرملة، ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل إيلة في عاشر الشهر، واستناب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنية الحج في السنة القابلة، ووصل السلطان إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوال، ومما نظمه العماد في التشوق إلى مصر قوله:

ساكني مصر هناكم طيبها
إن عيشي بعدكم لم يطيب
لأعدمتهم راحة من قربها
فأنا من بعدهم في تعب
بعد العهد بأخباركم
فابعثوا أخباركم في الكتب
ليت مصر أعرفت أني وإن
غبت عنها فاهوى لم يغيب

ومن ذلك قوله

تذكرت في جلق داركم
بمصر ويا بعد ما بيننا
وما أتمنى سوى قربكم
وذلك والله كل المنى
لكم بالجنان وطيب المقام
م وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك أيضا
يا ساكني مصر قد فقم بفضلكم
ذوي الفضائل من سكان أمصار
لله دركم من عصابة كرم
ودر مصركم الغناء من دار

ومن ذلك أيضا
يا حباذا مصر ويا
كتها وصدور العريش
فهناك أملاك كي الذي
من سمت بعزمهم العروش

قال: ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه أن العدو خذله الله نهض،
ووصل إلى صدر، وقاتل القلعة ولم يتم له أمر، فصرف الله شره، وكفى
أمره، ووصل من الفرنج مستأمن، وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس،
فاستقلوا أنفسهم، وعرجوا وذكر أنهم مضوا بنية تجديد الحشد، ومعاودة
القصد.

قال: وأما نوبة العدو في الرملة، فقد كانت عشرة علينا ظاهرها، وعلى
الكفار باطنها، ولزمتنا ما نسي من اسمها، ولزمهم ما بقي من عزمها، ولا
دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام

نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة، والحشود الكبيرة، والحريم المستور،
والمال العظيم الموفور.

قال العماد: ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا
بأسباب العاطفة والرافة، وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين
أبوبكر منصور بن نصر العطار، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في
الايراد والاصدار، وقد توفر على محبة السلطان، وتربية رجائه، وتلبية
دعائه، ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونور البصائر.

فصل

في ذكر أولاد السلطان

قال العماد: وفي هذه السنة ولد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود، وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول: «إنه ولد لسبع بقين من ذي القعدة، وهذا الولد المبارك هو الموفي لاثني عشر ولداً بل لاثني عشر نجماً متوقداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة، ورأى تلك الأنجم حلماً، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجدوا، وهو قادر سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم أباء وجدوداً».

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده، وجرى ذكر أولاده، واعتضاده بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها لأنشأت رسالة على نظامها، فذكر لي ما أثبتته على ترتيب أسنانهم:

— الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر، سنة خمس وستين وخمسمائة.

— العزيز أبو الفتح عثمان، عماد الدين، ولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين.

— الظافر أبو العباس خضر مظفر الدين، ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه

— الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين.

— المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبعين.

— المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه.

— الأعز أبو يوسف يعقوب شرف الدين، ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو أخو العزيز لأمه.

— الزاهر أبو سليمان داود مجير الدين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين، وهو أخو الظاهر لأمه.

— المفضل أبو موسى قطب الدين، ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الأفضل لأمه.

— الأشرف أبو عبد الله محمد عزيز الدين، ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسة.

— المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وهو لأم الأشرف.

— المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين.

قلت: ومات سنة ثمان وخمسين، وهي السنة التي أخرج العدو من التار خذلهم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم.

— الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعز.

— الغالب أبو الفتح ملكشاه نصير الدين، مولده بالشام في رجب سنة ثمان وسبعين وهو لأم المعظم.

— المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظم لأبويه، ولد بخران بعد وفاة السلطان.

قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العباد في هذا الموضع، وقال في آخر كتاب الفتح القدسي، على ما سنذكره في آخر هذا الكتاب أن السلطان، لما توفي خلف سبعة عشر ولداً وابنة صغيرة، فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شاذي لأم ولد، ونصرة الدين مروان لأم ولد، وأما البنت فهي مؤسسة خاتون تزوجها الملك الكامل محمد على ما سنذكره، وهو ابن عمها الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته كالملك المنصور حسن وسيأتي ذكر وفاته والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقة بقوله:

أي هلال كسفا

وأي غصن قصفا
كان سراجاً قد طفى
على الورى ثم انطفأ
لم يركب الخيل ولم
يقلدوه مرففا
قل للنحاة ويحكم
أحمد لم قد صرفا
صبرا صلاح الدين يا
رب السما والوفى (١٥٥)

قال العباد: وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين، يذكر فيه فصولاً متعددة منها: للمولى أولاد وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد للقلاع رجالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً،

وقيل القلاع أنوف من حلها شمش بها « ما في الرجال على النساء أمين »
ومنها أبيات في ذكر السلام:
مملوك مولانا ومملوك ابنه
وأخيه وأبى أخيه والجيران
طي الكتاب إليه منه إجابة
لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وإنه
يجزي بأحسن منه في القرآن
وغريبة قد جئت فيها أولاً
ومن اقتضاها كان بعدي الثاني
فرسولي السلطان في أرساها
والناس رسلهم إلى السلطان

قلت: وقد وصف الفاضل الملك المؤيد في كتاب آخر فقال: « وقد
تمطت به السنّ وامتدت، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدت، ولا حظته
العيون بالوقار، وطرفت دون جلالته وارتدت ».

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: « إعزازه
لأهل الفضل دليل على فضله، وإن الأولى أن تكون كتب الأدب عند
أهله، وما أبهجنا إذ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعالي
كرائم العقائل، وأخي بين السيف والقلم، وصار في موكبه العلم
والعلم ».

ومن كتاب آخر في المعنى: « فلقد زادت هذه المنقبة في مناقبه،
ونظمت عقود سؤدد في تراثه ».
فما ترجم الإنسان عن سرفضله
بأفضل من تقريبه لأولي الفضل

قال العماد: وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا، فشكوت
ضرمي، وعدمت أنسي، فرجعت مع عز الدين فرخشاه الحمى عرته
فشكا منها لا تزور إلا نهاراً جهاراً، ولا يفارق العرق بالضد من الحمى
التي وصفها أبو الطيب المتنبي فنظمت فيه كلمة طويلة أولها:

يمينك دأبها بذل اليسار
وكفك صوبها بادر النفسار
وانك من ملوك الأرض طرأ
بمنزلة اليمين من اليسار
وانت البحر في بث العطايا
وانت الطود في بادي السواقار

ومنها في وصف الحمى
وزائرة وليسس بها حياء
فليسس تزور إلا في النهار
ولور هبت لدى الاقدام جوري
لما رغبت جهاراً في جوارى
أتت والقلب في وهج اشتياق
ليظهـــــر ما أوارى من أوارى
ولو عرفت لظى سطوات عزمي
لكانت من سطاي على حذار
تقيم فحين تبصر من أتاني
ثبات الطود تسرع في الفسار
تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلل لزورها إزارى

ومنها:
أيا شمس الملوك بقيت شمساً
تنير على الممالك والديار

ومنها:

أحماك استعارت لفـح نار
لعزـمك لم تـزل ذات استعار

فصل

قال العماد: وفي العشر الأول من ذي القعدة قتل عضد الدين رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدي الملاحدة، وكان قد توجه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُّفًا^(١٥٦) غربي دجلة كهـل في يده قصة يزعم إنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأوماً ليوصل قصته فانتـهـز فيه فرصته فقتله، وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقـان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبوبكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدنا مصافيا.

قلت: وابن العطار هذا، هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الاثير: وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج، فعبر عضد الدين دجلة في شـبـارة، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدّم إليه بعض العامة ليدعوه له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا أحداً عنه، فتقدّم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي فتوفي بها.

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها: « (وماربك بظلام للعبيد^(١٥٧)) فقد كان عفا الله عنه قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

من ذايسر بـذنبه
والده لا يغتر به

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق في القتل، وجده هو المقتول بيد
البساسيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر
بمصر، فهو من ذرية لم تزل قاتلة مقتوله، وما زالت السيوف عليها ومنها
مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال دريد:

أبي الموت إلا آل صمة (١٥٨)

والأبيات المولى يحفظها وهي في الحماسة، وقد ختمت له السعادة، بها
ختمت به له الشهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله قال الله
سبحانه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت
فقد وقع أجره على الله) (١٥٩)

إن المساءة قد تسرو بها
كان السرور بها كرهت جديرا
إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشنأك كان وزيرا

وهذان البيتان قिला في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس.

قلت: وبلغني أن الفاضل قال في ذلك:
وأحسن من نيل الوزارة للفتى
حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى
بغداد، وتوقف في الموصل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة
ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد بن القاضي كمال الدين بن
الشهرزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

ثم دخلت

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء وهو السابق إلى مكاتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشام، وتدارك أمر الاسلام، وكان السلطان عند تسلم بعلبك أنعم بها عليه، ورد أمورها إليه، فأقام بها مستقرا ولأخلاف أعمالها مستدرا، ولما وصل السلطان في هذه النوبة إلى الشام، لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام، فإنه كان ينمي إليه أن الملك المعظم مجد الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طلبها من أخيه، وأنه لا يمكنه الرد فخاف من الحضور أن تتم الأمور، وروجع في ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له أن يعرض عنها، ما هو أوفى منها، فأبى إلا الإباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء وشمس الدولة لا يقبل عذرا، ولا يرى عما طلبه صبرا، ثم استأذن أخاه في التوجه إليها فأذن له، وتوجه عز الدين فرخشاه إلى حوران لحفظ الثغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازما على الجهاد.

ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقاً مستديراً على البلدين وسورا بل سواراً يكون به الاسلام محلى اليدين، محلاً للضدين، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل الثقل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله.

ومنها في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون لما ذهب بصره إلى ولده: لن يخلو الأمر من قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام، ولا ينسى له هذا التحرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الاسلام إما ابقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته، ويتولى ولده النيابة ويشترط عليها المجازاة لأول زله، وترك الإقالة لأول عشرة، فطالما بعث حب المنافسة الراجعة على إكتساب الأخلاق الصالحة، وأما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه.

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رشده، وأليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتن الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجاح موعدها، والثواب على قدر مشقته وإنها عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أقل

الأيام، وفصل القضية بين أهل الاسلام وأعداء الاسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.

ومنها في ذكر أولاد السلطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنشر بما جرت العادة به لاقطع الله تلك العادة من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده السادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى، وإلى المولى عنهم، وعجل لقاءهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم، بل كل منهم ملك دسته برجه، وفارس مهده سرجه، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها، وريحانة الحياة وزهرتها، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع، وإن طرفا نام على البعد عنهم لهاجع، وإن ملكا ملك تصبره عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم، أما يشواق جيد المولى أن يتطوق بدررهم، أما تظمى عينه إلى أن تتروى بنظرهم، أما يحن قلبه على قلبه، أما يلتقط هذا الطائر بتقيلهم ماخرج من حبه، وللمولى أبقاه الله تعالى أن يقول:
وما مثل هذا الشوق تحمل مضغة
ولكن قلبي في الهوى متقلب

وفي أخرى: والملوك الأولاد في كفالة العافية لارفعت عنهم كفالتها، وعليهم جلالة السلطنة لافارقتهم جلالتها، وكل من الموالى السادة الأمراء الأولاد والقادة كلهم جوهر، وكلهم المقدم، وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ماعود الله من صحة وسلامه، وكفاية ووقاية، ولزوم المستقبل منهم لمشهد الكتاب، ولموقف الآماج (١) ومخائل الخفر فيهم من تحت ليل الصبا أنور دلالة من ضوء السراج، والله تعالى يمد في عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم مارأى جدهم رحمه الله في أهل بيته من البطن الرابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الاسلام التي منهم للاسم أكاسرة وتبابعة، وما فيهم عند العلا صغير، وصغير أبناء الكبار

كبار، نجوم الأرض،) وذرية بعضها من بعض)(٢) والخلف الصالح المحتض، وهم في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقوى في يوم الحرب ويوم العرض.

ومنها في ذم ماء دمشق ووخمها: عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان، والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم توقد في قلوب الأولياء الأثر العظيم، وقليل قذاة العين غير قليل، وماذا يقول في بلد لو صحت الحمية من مائة، لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى، وشفاؤه، فإنه ماء يؤكل، وبقية المياه تشرب، ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب.

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة من عصمه، وتطهير كل موسومة بوصمه، فالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه.

ثم أورد العباد فصولا كثيرة، وقال: إنما أودرت الفصول الفاضلية لأن في كل فصل منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة.

فصل

قال العماد: ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج، وتعويض أميرها بجلاب غلة إليه في كل سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه، ويفك بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيرا لا يملك، فهو يجبس ولا يترك وتفوته الوقفة بعرفة ولا يدرك، فقال السلطان: نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعا استوعبها، ارتفاعا وانتفاعا، فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جده، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدولة بدوام إحسانها، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومن هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفا، وخلد بها إلى قيام الساعة معروفا، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البشر وزال العبوس، واستمرت النعمى، وزال البؤس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لاعهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عهد للملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها، انقطاع المكاسين عن جدة، وعن بقية السواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الحج، فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ما أجرى الله للدخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه بأن يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قدر فيهما على خير

فأضاع فرضيته، بترك البدار، وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا، ومركبا وظهرا، وسلما وحربا، وبعدا وقربا، وتوافيهم على حماسه، وهو أنف في وجه الاسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال، والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولا وفعلا، والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة، وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى، والمولى شريك في أجرهم، فليهنه إن المملوك عمرت بيوتها فخرت، وإن المولى عمر بيت الله، فمن كرمه سبحانه أن يعمر بيت المولى، وما أشد خجل المملوك من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وما هكذا أوصى ابن اللمطي ولكن للغائب حجته.

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي، من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد، أخبرني بها ثقة نقلها من خطه:

رفعت مغارم مكس الحجا
زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا
دفعان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

وكم بالدعاء لكم كل عا
م بمكة من معلن جاهر
وقد بقيت حسبة في فلا
ن وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الاله
ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعد ما كشفوا
كأنهم في يد الأسر
ويلزمهم حلفا باطلا
وعقبى اليمين على الفاخر
وإن عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من سائر
أليس على حرم المسلمي
من بتلك المشاهد من غائر
ألا حاضر نافع زجره
في اذلة الشاهد الحاضر
الأناصح مبلغ نصحه
إلى الملك الناصر الظافر
ظلم تظم من مال الزكا
ة لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن
ويبدي النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادثا إنه
يقبح أحد وثنة الذاكر
فما للمناكير من زاجر
سواك وبالعرف من أمر

وحاشاك إن لم تزل رسمها
فمالك في الناس من عاذر
ورفعك أمثالها موسع
رداء فخرك للناشر
وآثارك الغر تبقى لها
وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة في حقكم
وحق الوفاء على الناذر
وجبك أنطقني بالقري
ض وما ابتغي صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي
وبئس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى
بما حاز من ذكرك العاطر

قال العماد: وفي المحرم من هذه السنة توفي الحكيم مهذب الدين أبو الحسن علي بن عيسى، المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق، وكان كنعته مهذبا، ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا، وهو مبرز في فنه، حتى أن من شذا شيئا من الطب تنجح بأنه قرأ عليه، وتردد لاستفادته إليه، وقد ارضته العلوم الرياضية، وأحكمت أخلاقه المعارف الحكمية

وفي الثاني عشر من جمادي الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مصال بمصر، وجاءنا نعيه ونحن بحمص، فجاوز اغتمام السلطان برزئه حده، وجلس في بيت الخشب مستوحشا وحده، وقال: لا يخلف الدهر لي صديقا مثله بعده، وأجرى ما كان له جميعه لولده، وحفظ عهده، وكان لجماعة من الأعيان والشعراء والأمثال والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق أبقاه عليهم، كأنه عليه مستحق.

وفي العشر الأول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورس بن خارتكين صاحب حصن بوقيس فأسر المقدمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السلطانية بظاهر حصن، وساق معه الأسارى، فأمر السلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين، فتقدم إمامه الضياء الطبري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير ايطغان بن ياروق، واستدعى العماد وأمر بذلك، فلم يفعل وطلب أن يملكه السلطان منهم صغيرا فعوض عنه.

ثم رحل السلطان على طريق الزراعة إلى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال، فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طغرل الجاندار، ودخل إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله، وبلد كفر طاب وأعيان نواحي وقرى من بلد المعرة، وسلم بتسليم بعلبك من المضرة والمعرة، وكان الذي أخذه أكثر وأنفع مما خلاه، وماخطر له ولا ترجاه ولا تمناه.

فصل

كالذي قبله في حوادث متفرقة

قال العماد: كتب النواب بدمشق إلى السلطان أن الأموال ضائعة، وأن الأطماع فيها رائحة، وأن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وما لهم رقة من الله يتقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي أفراد جهات لما تسنح من مهمات، وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لا بل نزهني عن هذه الأشياء، فبقيت تلك الرسوم دارة، والآمال بها سارة.

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولى المقياس بمصر، ففوض السلطان منصبه إلى أخيه، قال: وهذا المقياس موضع مبني من عهد خلفاء بني العباس، ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالمقياس، وهناك عمود في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبي الرداد، ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب دار ورسم وقرار.

قلت: بلغني أن أبا الرداد هذا كان معلما من أهل الصدق والصلاح، رتبته جعفر المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده.

وقرأت في تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر لأبي سعيد بن يونس، قال: عبد الله بن عبد السلام بن الرداد العمي، بصري قدم مصر

وحدث بها، وكان قد جعل على قياسة النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين، وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضا، وقال فيه: ولد هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربع وسبعين وخمسة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر، وديار الجزيرة، والشام وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى سنة خمس وسبعين، وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يسقوا، ثم إن الله تعالى رحم عباده، ولطف بهم، وأنزل الغيث، وأرخص الأسعار، ومن عجيب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل انسان تركماني قد أثر فيه الجوع، وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة، وضج الناس، ثم جاء الخبز فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتد المطر، ودام من تلك الساعة، فرخصت الأسعار ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير، وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو برسام فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رفعه في سنة ست وسبعين وخمسة، وقد ضعضع العالم.

فصل

في عمالة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد: وفي مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها، انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن، تحكم من الثغر الاسلامي الوهن، وغلق الرهن، فيقول إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرسوم الأدراس، فكان الأمر بعد سنة على ماجرى لفظه من عدة حسنه، فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه، وقصد حصاره من عزمه، وكان العام مجدبا والجذب عاما، وقيل للسلطان ليس هذه سنة جهاد فإن استمنحوك السلامة فامنح، (وإن جنحوا للسلم فاجنح) (٣) فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد، وكفل بالرزق، فأمره واجب الامثال، ووعدته ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله.

قال: ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة، وهو الخادم فاضل، وكان من أفضل الخدم، ندب بأفضل الخدم، وفرح السلطان به واستصحبه معه إلى الغزاة، ووقف به على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطف من حوله من الفرنج جماعة، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعة، وعاد وقد عرف ما يعزم عليه من أمر فتحه.

قال: وفي مستهل ذي القعدة، كانت وقعة هنفري ومقتله، وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة، فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثغر ففعل، وأمره إن علم بخروجهم

أن ينفذ إلى السلطان يعلمه بذلك، ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد، فلم تشعر طلائع فرخشاه إلا وقد خالطوهم على غرة، فوقعت الواقعة، فقتل صاحب الناصرة وجماعة من مقدميهم، وطلب الملك فطرح حصانه، وجرح فرسانه، وجاء الهنفري ليحميه، فوقعت فيه جراحات أحدها نشابة وقعت في مارنه فجذعته ونفذت إلى فيه ومرت بضره فقلعته، وخرجت من تحت فكه، وقتلت عدة من الرجالة والخيالة، ورجعت الفرنج بخزي عظيم، ليس فيهم إلا مجروح، وكل يوم ترد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته.

ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم إلى دمشق فخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جيء بها، فرجع مظفرا منصورا، وذلت الفرنج بعدها، وانكسرت بموت الهنفري، ثم سار السلطان إلى الحصن الذي بنوه فأزعجهم وذعرهم، وعاد على عزم العود إليه.

قال: ثم وجه السلطان أخاه الأكبر تورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضعف من الأجناد لأجل محل البلاد، فرتب في بعلبك نوابه. وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذي القعدة، ومر على بصرى، ومنها إلى الأزرق، ومنه إلى الجفر إلى إيلة إلى صدر، ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال.

فصل

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحج في هذه السنة، وركب البحر، فكتبت إليه كتابا فيه: طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى، منيل الجدا ومنير الدجى، ولندي الكعبة من كعب الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى رثي هرم في الحرم وحاتم مائح زمزم ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر لقد عاد قس إلى عكاظة، وعاد قيس بحفاظه، وياعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها:

علم البحر أنك الخلق وافا
فأسمى حشاه يخفق رعبا
وغدادره لـديـه حقيرا
اذ رأى الدر منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطره منك يابحـا
ر لأضحى أجابه المـلح عذبا
هائج لم يزل دعاؤك حتى
هون الله منه ما كان صعبا
ولقد نـام اذ ركبـت وللـر
يح هبوب وحيث أرسيت هبا
جـدا ما صنعته من جـيـاد
عاد جذب الحجاز منهمن خصبا
رمت كتبا نها فـدا عـتـ وهل يقـا
در غيث يخفى عن الأرض سكبـا
قد رأت منك كعبة الله لما
جنتها حاتمـا وإن شئت كعبـا

بل رأى منك بيته بيت مجد
أحرم الجود حوله ثم لبى
وزهت زمزم بشريك منها
وعجيب ان يظهر الماء عجبا
وتوجهت للمدينة عن مك
سنة لما تشاء وكافيك حسبا
وأنت الشام تلو فتوح
سار شرقا به الهناء وغربا
ان تكن غبت عنه والله يقيـ
ك لأمثاله فما غبت قلبا
سرت والرأي فيه منك مقيم
وبعث الدعاء في الليل كتب

وقد وقفت على الرقعة التي كتبها القاضي الفاضل رحمه الله بخطه
إلى السلطان يلتمس منه الإذن في سفر الحج فأحببت نقلها هنا، وما كتب
السلطان رحمه الله عليها، وما كتب بسببها إلى بعض نوابه، نقلت من
خط الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المملوك هذه الرقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل
رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه الساعة وهو ينهي أنه قد شارف
الأربعين وما يدري لعلها عقبة اللقاء، وفرض الله في الحج قد تعين،
ووعد المولى به قد سبق عند إيلة، ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ
ما يحتاج إليه في السفر والحضر، والثقة به حاصلة في المرادين من الكاتب
وهما: الكتان والمعرفة، وحظ المولى في حجه ولله أضعاف حظه في مقامه
لأنه إن كان ينفع بها في الدنيا فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن
أهلا لأن يستجاب منه فالله أهل لأن يجيب في المولى والمملوك، فما ثقل
قط في سؤال، وليس لأن المولى لا يقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال

فيها، وهذه حاجة الدنيا والآخرة وبعدها ينشد:
متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة
لنفسى الا قد قضيت قضاهما

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، وما يريد إلا
دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولا يريد خلاف الغرض، فما
يفي له بقضاء المقترض، والله المعين برحمته.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الرقعة في سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله
ماصورته: على خيرة الله تعالى، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما.

نقلته من خطه، ونقلت من خط بعض الكتاب ما نقله من خط
السلطان رحمه الله إلى بعض النواب:

فصل من كتاب كريم بالخط العالي الناصري أعلاه الله ورد بتاريخ
السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسةائة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمم على الحج، الله
يجعله مبارك ميمون، ولكن لأفسح له فيه إلا بعد ثنتين: واحدة أنه
لا يركب بحرا يسير من العسكر إلى إيالة، ومنها يتوجه ويقيم العسكر
على إيالة ليلة وعلى إرم ليلة، ودون إرم ليلة، وقاطع إرم ليلة، فيكون هو قد
بعد وما يبقى عليه خوف إن شاء الله تعالى، وثانية تأخذ يده وتحلفه
برأسي أنه لا يجاور، وثالثة تعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار، وتقول
له لا بد أن يخرج هذا عني لاعنك في المجاورين بمكة والمدينة وفي
أهلها، هذا أمر لا بد منه فإن الناس لا بد لهم من الطلب، ولا بد لك من
العطاء وإن قال إن الشيء قليل فأنت تقرضني مثل هذا المبلغ من

مالك، وتعطيه إياه فلا بد وإلا فلا إذن له في الرواح إلى الحج إلا على هذه الشروط التي قد شرطتها، وأما مجيئه فيجيء إلى الشام فأنا مابقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج (وهو خير الحاكمين) (٤).

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز، وحيا كعبته، وياطول ما ترشقني سهام الشوق الذي أصبح الذكر جعبته، آها على تلك المواقف وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف، فرعيا ونعمى وحسنة وحسنى لمجاوري ذاك الحرم، ولعامري أيامه التي هي الأيام لأيام ذي سلم، فيالهف الصدور، وطول ظمأها إلى ورود ماء زمزمها، وطوي لمن استضاء في مضال الظلم بعلمه، ومهما نسيت فلا أنسى برد الكبد بحر صيفها، وموسم الأنس بثلاث منها وخيفها:

أها عليها ليال ما تركن لنا

إلا الأسى وعلالات من الحلم

عسى الريح إذا سارت مبلغة

توفي فقد غدر الأجاب بالذمم

ثم قال: فأما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوط وشؤون، وأحاديث كلها شجون، وكانت العقبي إلى سلامة، ولما قاربنا الكرك نهض العدو، فلم يمكن الرجعة ولا التعريج جانباً، ثم من الله تعالى بانجلاء النوبة، ووصلنا إلى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجه، فلا عدمننا بشره، وذلك الفضل فلا فارقت أعيننا فجره، ووجدناه في الغزاة جاهداً، وللعُدو مجاهداً، وأوقاته مستغرقة وعزماته محققة.

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السنة وأول الأخرى ووقعة

مرج عيون

قال ابن أبي طي: كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا إنه لاسبيل إلى هدمه إلا أن تعطينا ماغرمننا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين، فأشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه، ففعل ذلك كما سنذكره.

قال العماد: ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار في طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصن الذي بنوه ورجع بالأسرى والغنائم وخيم السلطان بمروج الشعراء، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدود بلاد الكفرة، وأضرم عليهم لهب النيران المستعرة، وكان كل يوم يركب بحجة الصيد، وينزل على النهر، ويجرد فرسان الجلاد والقهر، ويسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو، وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجماهم وأحماها موثقة بأثقائها، حتى جف زرع الكفار.

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يربعوا المسلمين في كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة، فغدر ابرنس أنطاكية، وأغار على شيزر، وغدر القمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين

- ٨٢٩٤ -

ابن المقدم وسيف الدين علي المشطوب، ورتب ابن عمه ناصر الدين في
ثغر حمص في مقابلة القمص، وكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه
بمصر أن ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يتقوى بهم
مع عسكر الشام على العدو.

ثم دخلت

سنة خمس وسبعين

والسلطان نازل على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيهم مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغلات في يوم واحد ثم يرجعوا، فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهي ليلة الأحد ثاني المحرم، فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهمزت رجالتهم في أول اللقاء، فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القمصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا، وابن صاحب مرقية، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الأكابر، مازاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم، ثم قدمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى.

قال العماد: وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن اللطاف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السكينة، وخصهم بالذلة المستكينة، وطلع الصباح، ورفع المصباح، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء، ثم عرض الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين، فالتزم ادراكه وأن يؤدي من قطيعة المذكور القطيعة التي قرر بها فكاهه، وأما ابن القمصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصورية، وأما أود مقدم الداوية فإنه

انتقل من سجنه إلى سجين، فطلبت جيفته فأخذ باطلاق أسير من
مقدمي المؤمنين، وطال أسر الباقيين فمنهم من هلك وهو عان ومنهم
من خرج بقطيعة وأمان، وهذه هي وقعة مرج عيون، وكان لعزيز الدين فرخشاه في
هذه الوقعة بلاء حسن، حكى حسام الدين تيمرك بن يونس وكان مع عز
الدين قال: كنا في أقل من ثلاثين فارساً قد تقدمنا العسكر، فشاهدنا
خيل الفرنج في ستمائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء، فأشار
عز الدين بأن نعبث النهر إليهم، ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم،
ومن أحسن ما اتفق أن في اليوم الذي كسرت فيه الفرنج بمرج عيون
ظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد إلى
الشعر مستصحباً ألف رأس من السبي، فما أقرب ما بين النصرين في
المصريين، وما أعذب عذاب الفئتين وتجريعهما الأمرين الأمرين، لقد عم
النصر، وتساوى فيه البر والبحر.

وما مدح به السلطان في هذا الفتح مدحة سيرها من مصر إليه فخر
الكتاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني أولها:
لرب السماء خير معين

وكفيل
فلله الحمد أي نصر عزيز
قد حبانابه وفتح مبین
أدرك الثأر حين نازله المغر
سوار حيف الكفار ليث العرين
المهام الغضنفر الملك النبا
صر مولى الورى صلاح الدين
يا مليكاً أضحى الزمان يناجي
به بلفظ المدلل المسكين
قد فت أهلها الحصون إلى بأ
سك حتى عوضتهم بالسجون

وأراهم رب السماء بـأسيا
فكـمـالم يجـل لهم في ظنـون
لك قلب عند اللقاء مكين
ولـه من تقاه ألف كمين
يامليكـا يلقى الحروب بحول الله
هـمـm

قال العماد: وكان تقي الدين غائبا عن هذه الواقعة، واشتغل عنها
بغيرها، وذلك أن سلطان الروم قليج أرسلان طلب حصن رعبان، وادعى
أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده، وأن
الملك الصالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه، فلم يفعل
السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم، فأرسل قليج أرسلان عسكريا
مجمعا في عشرين ألفا لحصار الحصن فلقبهم تقي الدين، ومعه سيف
الدين علي المشطوب في ألف مقاتل، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصر، فإنه هزم بأحاد ألوف،
وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفا.

وقال ابن أبي طي: واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع في
أخذ رعبان وكيسون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه، ويدعي
أن نور الدين بن زنكي اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه
بها، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر
قليج أرسلانه فغضب وسير عسكريا إلى رعبان، فحاصرها وسمع
السلطان، فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، فسار فلما قارب

رعبان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتي فارس، وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قليج أرسلان ليلاً فرآهم قد سدوا الفضاء وهم قارون آمنون وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ماترون من الطمأنينة والأمن والغفلة، وقد رأيت أن نحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق في جوانب عسكرهم ونصبح فيهم فإنهم لا يشتون لنا، فأجابوه إلى ذلك فأنفذ واحداً من أصحابه إلى باقي عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلاباً، وأن يجعل في كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات، فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم، وجدوا في السير حتى يلحقوا به، ففعلوا ما أمرهم، ثم أنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابه في جوانبه، وكان عدة عسكر قليج أرسلان ثلاثة آلاف فارس، فلما سمعوا الضجة، وحس الكوسات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب خيولهم عرياً وطلبوا النجاة، وأخذتهم السيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها، وأكثر تقي الدين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ماتركوه، فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكراعهم وسرحهم إلى بلادهم.

قال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل إلى السلطان في اليوم الذي كسر فيه السلطان الفرنج على مرج عيون، فتوافت البشارتان إلى البلاد.

قال: مدح ابن التعاويذي السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها:

كاد الأعادي أن يصيبك كيدها
لـو لم تـكـدك برأيها المأفون
تخفي عدوانها وراء بشاشة
فتشف عن نظر لها مشفون

دفنت حباتل مكرها فاردتها
تدوي بغيط صدرها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم
أفضت إليك بسرها المخزون
كمناوكم لك من كمين سعادة
في الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم
بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت: هكذا أنشده، وهو حسن وقد كشفته في نسخة من ديوان ابن
التعاويذي فوجدت آخر هذا البيت « طائر جدك الميمون » وأول القصيدة:

ان كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطسى برملتسي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل:

ليت الضنين على المحب بوصله
لقن الساحة من صلاح الدين
ملك إذا علق يد بدمامه
علق بجل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى
بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ما جد
خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهز برسطاه لم
يلجأ إلى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوها
ماوى الطريد وموئل المسكين

لك عفة في قدرة وتواضع
في عزة وشراسة في لين
وأريتنا بجميل صنعك ماروى الـ
ـراوون عن أمم خلت وقرون

قال ابن أبي طي: نزل السلطان على تل القاضي ببياناس على المريج الذي يعرف بمريج عيون، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكره مع عز الدين فرخشاه لشن الغارة على بلاد الفرنج، فلما أصبح ركب يستوكف أخبار فرخشاه فما هو إلا أن خرج من الحليم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعي هاجرة على وجوهها من الغياض والأودية، فقال: هذه غارة، فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب، فوصل بعض الرعاة فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة، فسار حتى أشرف على الفرنج، فإذا هم في ألف رمح، فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعة منهم سلاحهم وسلموا أنفسهم أسارى، ونجا ملك الفرنج هنفري هاربا، ويقال إنه وقع به فرسه فحمله أحد خيالاته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره وسيفه يقطر دماً وجلس لاستعراض الأسارى فذكر نحو ماسبق.

وفي كتاب الفاضل إلى صاحب له بمكة وقد سبق بعضه قال: «وجرت نوب منها قتل الهنفري لعنه الله وتما سبعين فارساً من كبار الخيالة، وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته وتحامله بآخر رمق مع بقية من نجا من خيالاته، ومنها نوبة وادي الحريق، وقد جمع الله العدو فارسه وراجله، ومنها نصر الله الذي ما كان قبله للملك من ملوك الأرض قتل ابن بارزان ومقدم الداوية، وابن صاحب طبرية، وأخو أسقف صور، وصاحب جيبيل، وأصحاب الحصون والقلاع، ومقطعوا الأقاليم والضياغ، وحصل تحت اليد الناصرية أعلاها الله مائة وستون كلهم تشنى عليهم الخناصر وتقطر بهم العساكر، ومنها دخول العساكر إلى

عمل بيروت وصور وغارتها على غرة من أهلها، وقطع شجرة مثمرة من أصلها.

قال: وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عدتها إلى أن بلغت ستين شينياً وعشرين طريدة، فسارت الشواني خاصة فدخلت البلاد الرومية، ودونحت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف عالج أحضرهم أسرى في قيد الأسار، وقتلت الرفاق الكبار، وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار.

فصل

في تخريب حصن بيت الأحزان وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجالة، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبني دونها من الغرب، فخيم منها بالقرب وضاق ذلك المريج عن العسكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية، وهو عش البلية، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها، فأخذ كل ما احتاج إليه، ورجع بعد الظهر وزحفوا إلى الحصن بعد العصر، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا أن يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة، وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين اغترارا، فاطمأن المسلمون وقالوا: مابقي إلا نقب البرج ففرقه السلطان على الأمراء، فأخذ فرخشاها الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقبا، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جعل له قسما، وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان، وعلق وحشي بالخطب ليلة الاثنين وحرق، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعا في عرض ثلاثة أذرع، وكان عرض السور تسعة أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه، وقال: من جاء بقربة ماء فله دينار، قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب، فخدمت فعاد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء، ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه لأن الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا

بطبرية في جمع كثير ، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول ونعالي النهار انقض الجدار، وتباشره الأبرار، وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع خطبا، فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار وطلبوا الأمان، فلما خمدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مرتدا أو راميا ضربت عنقه، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوعة، وكان عدة الأسارى نحو سبعمائة، وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم، وسيرنا في الأسارى إلى دمشق، وأقام السلطان في منزلته حتى هدوا الحصن إلى الأساس، وطم جب ماء معين كانوا حفروه في وسطه، ورمى فيه القتلى، وكان عند السلطان رسول القمص معافى وهو يشاهد بلية أهل ملته، وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا، وكان مدة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف قلوبهم بوصله إليها، ورجع السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء ومرض جماعة من ذلك الوباء لأن الحر كان شديدا، وأنتنت جيف القتلى، وطول السلطان المقام عليه بعد فتحه لأجل تميم هدمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كان مزورا وبتكبير المسلمين وصلاتهم معمورا، وهنا الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نقادة الدمشقي من جملة مدائحه:

هـلاك الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبها
ولو لم يكن قد دنا حثفها
لما عمسرت بيت احزانها

ولأبي الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الخراساني ثم الدمشقي
من قصيدة أولها:
بجـدك أعطاف القنـا تتعطـف
وطـرف الأعـادي دون مجدك يطـرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب
وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه
لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه
رجال كآساد الشرى وهي تزحف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف
وابيض هندي ولدن مثقف
ومارجعت أعلامك الصفر ساعة
إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كـامن أعاليه صليب ويعة
وشاد به دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومنزل الـ
تزال لقد غادرتـه وهو صفـف
أيسكن أوطان النبيـن عصبة
تمن لـدى أيما نها وهي تـخلف
نصحتكم والسـدين في النصـح واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ومن قصيدة لسعادة الضير الحمصي:

حللت فكنت الألمي المسددا
وسرت فكنت الشمري المؤيدا
وقمت بأعباء الممالك ناهضا
فأقعدت أعداء ولم تخش مقعدا

تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا
وكل امرئ مغرى بما قد تعودا
نصرت الهدى لما تحاذل حـزبه
فناداك حزب الله يا ناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقاً صلاحه
فأرضيت لما ان غضبت محمدا
فيا يوسف الخير الذي في يمينه
من الخير ما قد غار فينا وأنجدا
وصلت لذي سلم وصلت لدى وغى
ففقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت إلى الأعداء جيش عرمرما
إذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملاً مجمعا
ولم تبق لالبيان شملاً مبديدا
فناهيك من جيش نهضت بعينه
فأقعدت لما ان نهضت به العدى
حملت ذبلاً في ذوابل سمرة
فلما دجى ليل العجاج توقدا
وزرت به الحصن الذي لو تحصنت
فوارسه بالنجم أوردته الردى
قصمت به صلب الصليب ورعته
وشهدته لما غفا فتشهدا
هبيت إليه هبة يوسفية
تعيده بهاء كل مكان جلماً
وفض بما قد فضه من سهامه
نواجد ثغر الهنفرى وقددا

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي
من أهل الحلة المزيديّة، وكان حاضراً في نوبة ابن بارزان له من قصيدة

أولها:

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنصر
ونيل الأمانى الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخر ومن علا
وحسن ثنائى يقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفة والقنا
سمواً بي لا ينمام على وتر
وصلت بها جبل المقفاخر مثلما
قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت يياض الصبح وهو صوارم
وخضت بها سواد الليل وهو دم يجري
وقد عرف الأفرنج بأسك في الوغى
وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا ببناء الحصن صونا للملكهم
فأصبح بالشعراء منتهك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطعت
أناملها إلا على صفقة الخسر
هي الفتكة الغراء لازلت قائما
بأمثالها في الدين في السر والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها
وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلاترض منهم بعدها بذل طاعة
فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
وسروا ملك الأرض التي لو تركتها
لاغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتهم مناقبا
بأخصها تعلو على الأنجم الزهر
إذا عدا رباب الفخار فأنتم
ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

وأنت الذي أصبحت بالبأس والتقى
وبذل اللهى عالي السناء عطر الذكر

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد في وصف الحصن: « وقد عرض حائطه
إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من
سبعة أذرع إلى مافوقها ومادونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر
لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنائير فما فوقها،
وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها أنوف الجبال
الشم، وقد جعلت سقيته بالكلس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر
مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه، وأوعز إلى
خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه».

ومنه في وصف النار قال: « وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين
بالحصن والنار به مطيفة، وعليه مشتملة، وعذبات ألسنتها على تاجه
مسدلة، ومن خلفه منسلة، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة،
ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة، وبفسج الظلماء قد
استحال جلناراء، والشفق قد عم الليلة فلم يختص أصالا ولا أسحارا،
ونفحاتها حميمية (وقودها الناس والحجارة) ^(٦) والمنادي ينادي بلسان
مصائبها إياك أعني، فاسمعي يا جارة فوجت النار موالج يضيق منها
الفكر ويعجز عنها الأبر، ونقلت النبأ من العين إلى الأثر، وقال الكفر
إنها لإحدى الكبر ^(الدثره ٣) وخولف المثل إن السعادة لتلحظ الحجر، وأغنى
ضوءها لسان كل أمعة أن يسأل هذا وهذا ما الخبر، وقذفت بشر
كالجملات الصفر، وزفرت بغيظ تعفر له خدود الجبال الصعر، وتلحقها
بالكتب العفر، وبات الليل والنهار يثله، وكلما أغمدته الخمود جعل
الوقود يسله، إلى أن بدا الصباح كأنه منها إمتار الأنوار، وانشق الشرق
ومن عصفرها صبغ الإزار، فحيث تقدم الخادم فاقتلع بيده الأحجار من

أسها، ومحا حروف البنيان من طرسها، وتبعه الجيش ورفاقه، وكافة من اشتمل عليه نطاقة».

وفي كتاب آخر: «وكان مبنيا على تل، وفيه صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه ما يناهز ألف قتيل ودابة محرقة بالنار، فما سدت عرضته، ولا ملأت حفرته، وكان فيه نحو ألف زردية، والمقاتلة ثمانون فارسا بغلماهم، وخمسة عشر مقدما للرجال، مع كل مقدم خمسون رجلا، هذا إلى الصناعات ما بين بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفي، وصناعات أنواع الأسلحة، وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة رجل، نزعت القيود من أرجلهم، وجعلت في أرجل الفرنج، وكانت فيه أقوات لعدة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع إلى حين، ولما قوتل أول يوم هجم حوشه، وفيه جماعة من المقاتلة فضربت رقابهم، وأخذت دوابهم، وفي الحال علقوا النقب على خمس جهات، وحشيت بالنيران، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان، ولم تزل النار توقد، ثم تخرج ثم تشعل ثم تخمد، إلى أن تمكنت النقب وحشيت بالأحطاب، وأطلقت فيها النيران في يوم الخميس، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية، وملك المسلمون الحصن بما فيه ومن فيه، واشتعلت النيران في أرجائه ونواحيه، وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ما حل ببنيانه، وما نزل من البلاء بأصحابه وأعدائه، ولما وصلت النار إلى جهته ألقى نفسه في خندق نار صابرا على حرها، ففي الحال نقلته هذه النار إلى تلك النار، ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة بعد المقتولين، وما يقصر عدتهم عن مثلها، توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعفية أثره، وإزالة ضرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصار أثرا بعد عين في مشاهدة عين، هذا والفرنج مجتمعون في طبرية يشاهدون الأمر عيانا، وينظرون إلى الحصن وقد ملأ نيرانا، وارتفع دخانا، وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فانشئت مغيرة فاستنارت كل

غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لا يسكن فيها إلا قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلا من نفسه لشدة الخوف معتقلة في نفسه أو مشحونة».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى وزير بغداد: «تأخر فلان لضرورات منها أمراض كانت قد عمت بها البلوى، وكثرت بها الشكوى، وكان أكثرها خاصا بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن، وكان خادما المجلس السامي ابن أخيه تقي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهدا، وأثخنا وبلغا حد اليأس وامتحنا، وكادا يسقطان من ضمير المنى، فمن الله تعالى بالشفاء، وهذه البشرية بفتح الحصن، وإن كانت شريفة مواقعها، عامة منافعها، فقد تجددت بعدها بشارة طلعت بشارة رائقة، وجاءت في مكان الرديف لأخرى لافرق بينهما إلا أن تلك سابقة، وهذه لاحقة، وذلك أن الاسطول المصري غزا غزوة ثانية غير الأولى، وتوجه عن السواحل الاسلامية مرة أخرى من الله فيها منة أخرى، وكانت عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت، واستفرغت فيها عزائم بالجهاد واستقصيت، واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر، فسارت على سوار هي كنائن إلا أنها تمرق مروق السهام، ورواكذ هي مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام، فلا أعجب منها تسمى غربانا وتنتشر من ضلوعها أجنحة الحمام، وتسمى جوارى وكم بشر مجريها من النصر بغلام، فطرقت في الأحد حادي عشر جمادى الأولى مينا عكا، وهي قسطنطينية الفرنج، ودار كفرهم أبدلها الله من الكفر اسلاما، وخلع عنها الشرك البالي وخلع عليها من التوحيد أعلاما، وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة، وغدت مترسة، فما هي إلا أن جذفت والجة على المينا، وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطيا وتكسيرا، ونطاحا يقلقل، ولو كان ثيرا، وادخلت ساحتها

الفرنج بقتالها، وبأشرت مثل الماء بنزولها ونزالها، وهذا مما لم يعهد من
الأسطول الاسلامي مثله في سالف الدهر، لافي حالة قوة اسلام
ولا ضعف كفر، ومما سبيله أن تطرز السير الكريمة بفخره كما طرز الله
الصحيفة الشريفة بأجره، وقتل على قلعة عكا ثلاثة نفر بأليم السهام،
أبعد ماكانوا وقفوا عنها، وأمن ماكانوا منها، فصرعتهم الأيدي والأفواه،
ونخروا سجدا على الجباه، سجدوا لايرفعون منه الرؤوس، ولايتقلون منه
إلى حالة الجلوس، ولايرفع فيها يرفع لهم من عمل، ولاهم فيه من قبلة
ولاهم به من قبل، وأقامت المراكب يومين تقابلها، وتقاتلها وتناضلها.

فصل في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثانية، ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك، قال العماد: وفي العشر الأخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكة.

قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصفي بن القابض، يصف له ما لقي في طريقه إلى مصر، وركوب البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة. قال: «خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسط المفسدين، وإسراف المسرفين، وظهر من هوان أمير الحاج العراقي، ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه، ما أطمع المفسد، وأخاف المصلح، ووصلنا إلى جدة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الريح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب، وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وآيسوا من الأنفس، وتمنوا معالجة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لاحيلة فيها، وصبرنا إلى أن فرج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لاماء يشرب، ولاجمل يركب، وانفذنا إلى البجاة النازلين على ساحل البحر فأحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمان مائتيه، فركبناها ووصلنا إلى عيذاب بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا، لأن الخلق كانوا كثيرا، والزاد يسيرا، وركبنا البرية من عيذاب إلى أسوان، فكانت المهمة قاصرة في المزداد، فكانت البلوى عظيمة في العطش، فأما الحزون والوعور فهي تزيد على ما في برية الشام

بكونها طريقا بين جبلين، كالدرب المتضايق، والزقاق المتقارب، وحر
الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولطف الله إلى أن وصلنا مصر
في السابع عشر من صفر».

قلت: وللوجيه بن الذروي في الفاضل:
لك الله إمام حجة أو وفادة
فمن مشهدي رضي الإله وموسم
تري تارة بين الصوارم والقنا
وطورا ترى بين الخطيم وزمزم
وكم لك يا عبد الرحيم مآثر
لها في سماء الفخر إشراق أنجم
كأنك لم تخلق لغير عبادة
وإظهار فضل في السورى وتكرم

قال العماد: وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد
الدين ابن السلطان، وكان أحب أولاده إليه وهو الذي قام بتدبير الملك
بعده، وولد بمصر ثامن جمادي الأولى سنة سبع وستين وخمسة، كما
سبق ذكره، وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه إليه فاستقدمه،
فقدم عليه عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند
قدومه قصيدة منها.

يا أسدا يحمي عرين العلى
هتئت جمع الشمبل بالشبل
عثمان ذي النورين بين السورى
من سودد سام ومن فضل
يجبك أقداما وبأسافما
أشبه هذا الفرع بالأصل
مخائل الشرش على بشره
شاهدة بالفضل والنبيل

ملك قضى اوله أنه
على ملكه ————— وك الأرض يستعلي
بالمملك الناصر سلطانا
طالت يد الاحسان والعدل

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مصر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شوال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلما من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور، فحصل من صحبتته رزقا واسعا لاسيما في عام الطهور فإنه عم فيه السرور والحبور، وكان متولي الانفاق في الطهور صفى الدين بن القابض، لأنه كان متولي الخزانة والديوان، والأعمال بدمشق.

قال: وحج — يعني ابن القابض — سنة أربع وسبعين، وفيها حج الفاضل من مصر يعني حجته الأولى، وعاد إلى الشام ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معا في حجة الفاضل الأولى إلى الشام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين، وتم له في رجوعه ماتم كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره يصف له مالقي في رجوعه، وكانت حجة الفاضل الأولى من مصر، ورجع إلى الشام، وكانت الثانية من الشام ورجع إلى مصر.

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين، وقبره القبر القبلي من القبور الأربعة بالقبة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بعلبك لتسليمها إلى عز الدين فرخشاه فسلخوا طريق الرواديف، وهي طريق شاقة، وفيها أغار عز الدين على

صفد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها، ورجع غانها سالما.

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين ، واستحلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ، وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشهرزوري حاضرا فحضر وباع وأخبر بجلية الحال، فبادر السلطان إلى الخطبة له في جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا إلى بهلوان، وألزمه حتى خطب بهمذان وأصفهان، وعمت الدعوة الهادية في جميع بلاد خراسان، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولا في سنة ست وسبعين، وأخذ السلطان معه إلى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتي ذكره.

وللعلماء في مدح الإمام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتي منها أبيات عند ذكر فتحه ومنها:
الدهر ينصرني مادام ينسبني
لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضيء أبي العباس أحمد لأيام أصحاب

وقال محمد بن القادسي في تدليل تاريخ أبي الفرج بن الجوزي: مولد المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما، بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار، عادلا ظهر يوم مبايعته من رد المظالم والأملاك المقبوضة والإفراج عن المسجونين وإسقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشتهر.

قال: وتقدم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم وإلى عبد الرحمن بن الجوزي فصليا عليه، ثم بايع الناصر أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم، وكان والده المستضىء قد عهد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد بأسبوع واحد فسبق به قلمه، فإن ابن الدبيثي ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال.

ثم قال ابن القادسي: وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطار، ووكل به وتتبع أصحابه ومن يتعلق به، وقتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه، وكان أحد الأعوان بباب النوبي قد نزع الرحمة من قلبه، فقطع قطعا وشد في رجله حبل، وسحبته العامة في الدروب، ثم أحرقوه بعد ذلك.

قال: وفي حادي عشره حمل ابن العطار ميتا، وعلم به العامة فرجموا تابوته بالآجر، فألقاه الحمالون وهربوا، فأخذته العامة وشدوا في رجله شريطا وسحب في جميع بغداد ومنافذها ودروبها ومحالها، وقطع لحمه قطعا.

قال: وتوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن ايلدكز شحنة همذان لأجل الخطبة، فتوقف عن ذلك، فهاجت العامة عليه، ووئب أهل المذكور وخطبوا، وجاء كتاب شيخ الشيوخ إلى الديوان سطرها فلان، والحال في الجنوح كقصه نوح، من قرأ السورة عرف الصورة.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وكثر الوباء ببغداد وغيرها من

البلاد، وذكر أن رجلا بواسط ذبح بنتا له وأكلها، وآخر بقر بطن صبي وأخذ كبده وشواها وأكلها.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد إربل، فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت، ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة، وهلكت قرى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعا فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قراقوش التقوي إلى طرابلس المغرب، ففتح بلادا وصلّى حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذي دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقي الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد، ثم أصلح بينهما.

فصل ثم دخلت سنة ست وسبعين

ففيها توفي الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية، وقد زرت قبره بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وتوجه إلى بلد الروم فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، صاحب حصن كيفا، وبين زوج ابنته السلطان غز الدين قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو، وكثرت ثم الهدايا والدعوات والأفراح والهبات، وفيها دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان ثم صبحهم بغدره، وحصلوا بأسرهم في أسره، فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده، ونصر الله المسلمين بالرعب فأحرق من الخوف قلعة شائخة تعرف بالمناقير، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الآلات والغلات فتقووا بها وتمموا هدمها إلى الأساس.

قال ابن أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، قال: وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى، فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذل، وأطلق ما بيده من الأسارى، ورجع السلطان مؤيدا منصورا، ووصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة، وكان

الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرئ شاهدا
هذه الغزاة فنظم قصيدة في السلطان منها:
لقد جعل الله منك السورى
بأوفى مليك وفي هجـان
تهش إلى نغمات السيـو
ف في الهام لانغمات القيـان
أزرت أبـن لاون لأواءه
فأضحى به خبرا عن عيان
ودان من اللذل لا ير عوي
حذارا من الرافعات اللدان
فلا قدم عنده للشبا
ت وليس له بسطاكـم يدان
وأخلى إليكم المنـاقير
وغادر للهـدم تلك المباني
وأرسل بالامراء العنا
ة يسأل اطلاقه فهو عاني
رتقت بعزمك والمكرما
ت فتوقا من الأرتقي الهجان
ورعت ابن سلجوق في ملكه
فقعقـع من رعبه بالشنان

قال: ولما وصل السلطان إلى حمص وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب
الدين عبيد الله بن أسعد الموصلـي وأنشده، وله في السلطان مدائح منها
قصيدة غراء مطلعها:

أما وجفونك المرضي الصحاح
وسكرة مقلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا
كما أصبحت فردا في الملاح

يهز الغصن فوق نقي ويرنو
بحد ظبي ويسم عن أقاح
وقد غرس القضيب على كثيب
فأثمر بالظلام وبالصباح
ومال مع الوشاة ولا عجب
لغصن أن يميل مع الرياح
قطعنا الليل في عتسب وشكوى
إلى أن قيل حي على الفلاح
ولاح الصبح يحكي في سنه
صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حده عن مداه
لقيناه بأمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى
رعاء الشاء والنعم المراح
جواد بالبلاد وما حوته
إذا جادوا بالبيان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه
إذا سئل الندى جهنم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم
ومشغول بله أو مزاح
إذا ما جالت الأبطال إلى
ويقدم نحو جائلة الوشاح
وبون بين مالك بيت مال
ومالك رق املاك النواحي
هم جمعوا وقد فرقوا لکن
جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرنج ليدك حتى
رأوا مالا يطاق من الكفاح

وماسألك عقد الصلح ودا
ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا
اسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن شداد: لما عاد السلطان بعد الكسرة — يعني كسرة
الرملة — إلى الديار المصرية، وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم، وعلم
تخبط الشام عزم على العود إليه، وكان عوده للغزاة فوصله رسل قليج
أرسلان يلتمسون منه الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن، فاحتمل نحو
بلاد ابن لاون لنصرة قليج أرسلان عليه ونزل بقرا حصار، وأخذ عسكر
حلب في خدمته لأنه كان قد اشترط في الصلح ذلك، واجتمعوا على
نهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور وعبر منه إلى النهر الأسود طرف
بلاد ابن لاون، فأخذ منهم حصنا وأخربه، وبذلوا له أسارى واتمسوا
منه الصلح، وعاد عنهم، ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين
بأسرهم، واستقر الصلح في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين،
ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر، وكان ذلك
على نهر سنج، وهو نهر يرمي إلى الفرات، وسار السلطان نحو دمشق.

فصل في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، والسلطان نجيم على كوك سو من حدود بلاد الروم، وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود بن مودود، وجاء رسول مجاهد الدين قايماز، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي إلى السلطان، وطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرها والرقعة وحران والخابور ونصيبين في يده، فلم يفعل السلطان، وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة على شرط أنه يقوي السلطان بالعساكر، فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وإن هذه البلاد لم تنزل تتقوى بها ثغور الشام، ففوضت إليه على ما أراد، وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من إنشاء العماد وفيه: «قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية، بما لم يختص به أحد، وامتدت اليد منها في إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعيا، وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفاء، ولاخفاء إن مصر إقليم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة، وعانت كل هزيمة، وعانيت كل عزيمة، حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بني عبيد، وأطلقها بمطلقات أعتتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعه القوم، وهم غير مأموني الشر إلى اليوم، وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة، فمن حقها أن يتوفر عسكرها، فلو حصل والعياذ بالله بها فتق أعضل رتقه، واتسع على الراقع خرقه، واحتجنا في حفظ بلاد الشام، وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مدة خمس سنين في بيكارها، منتقما من كفارها، محتملا لمشاقتها على غلاء اسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد

اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه، وكانت في تولي نور الدين رحمه الله ثم ذكرها كما سبق ففوضت إليه كما سيأتي.

وقال ابن الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين، وكان مرضه السل، وطال به، قال: ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد، وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمر وكسروا الأواني، وعملوا مالا يحل، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل، إنما هو أراق الخمر، ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شكى أحضر بالقلعة، وضرب على رأسه فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل، وقال: والله لا غطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدردار المباشر لأذاه، ثم تعقبه مرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا، وكان أحسن الناس صورة، تام القامة مليح الشمائل، أبيض اللون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السمين والدقيق، وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، عفيفا لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيورا شديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر إنما يدخل عليهن الخدم الصغار، وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال مع شح فيه.

قال: ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه، فخاف من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد

تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في أخيه، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل، وقوة النفس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنه بعض البلاد، ويكون مرجعها إلى عمهما عز الدين ليبقي لهما ذلك، ففعل ذلك وحلف الناس لأخيه، فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المدبر للدولة والنائب فيها والمرجع إلى قوله ورأيه، فركب إلى الخدمة العزية وعزاة وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا، فدخلها وجلس للعزاء، وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجراته وحدة كانت فيه، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمرا، فلما ولي تغيرت أخلاقه وصار رفيقا بالرعية محسنا اليهم، قريبا منهم.

قال ابن شداد: وفي عاشر المحرم سنة ست وسبعين بلغ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالد فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر.

فصل.

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر

وقدوم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان فيما طلب

قال ابن أبي طي: كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى
الاسكندرية، وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده
القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية، وكان أحد الأجواد الكرماء
الأفراد، شجاعا بأسلا عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر ممدحا
فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة:
هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبده
وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما روينا
ولذ بذراه مستجير فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تتحمل للسحائب منة
إذا هطلت جودا سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منها
فلليمن يمناه وليس يسراه

وقال العماد: وفيها في المحرم توفي بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو
صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازل بظاهر حمص،
فحزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب
الحماسة من حفظه، وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله إلى اليمن
فملكها، ثم استتاب فيها وقدم الشام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل
تياء جاء منه كتاب وفيه أبيات لشاعره ابن المنجم منها:

فهل لأخي بل مالكي علم إنني
إليه وإن طال التردد راجع
وأي يوم واحد من لقائه
للكسي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة
وتجني المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذ بدا
وتخشع إعظاماله وهو خاشع
كبت وأشواقني إليك ببعضها
تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها
تضم على الدنيا ونحن الأصابع

قلت: وقبر تورانشاه الآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق نقلته
إليها أخته ست الشام بنت أيوب، وبنت القبر عليه، وعلى زوجها ناصر
الدين محمد بن شيركوه، وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام
الدين عمر بن لاجين، وسيأتي ذكره وإليه تنسب التربة، فهي ثلاثة قبور
القبلي لتورانشاه، والأوسط لابن شيركوه، والشامي لست الشام وابنها
رحمهم الله^(٧).

قال العماد: وفيها في رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصري،
صدر الدين شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم، ومعه شهاب الدين
بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم
والتمجيد وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائر الترقى، فلما
ترأى له الرسل الكرام، ووجب لهم الإجلال والإعظام، نزل وترجل وأبدى
الخضوع وتوجل، ونزل الرسل إليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبل
الفرض وقبل الأرض، ثم ركبا ودخلوا المدينة.

قال ابن أبي طي: وكانت هذه أول خلعة قدمت من الإمام الناصر، على الملك الناصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبيقار أسود مذهب، وظيلسان أسود مذهب، ومشدة سوداء مذهب، وطوق ونخت وسر فسار وجواد كميّ من مراكب الخليفة عليه سرج أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب وعلم أسود، وعدة خيول وبقج، وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما.

قال العماد: وظفر السلطان من صدر الدين بصاديق صدوق، وكان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلوك طريق ايلة والبرية، فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته، ورغبة زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فقال: قد عزمت في هذه السنة على الحج فأصل معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولا أدخلها وإنما أسكن بالتربة الشافعية، وأسير منها إلى بحر عيذاب فلعلي أدرك صوم رمضان بمكة، فالتزم ابن الشهر وزوري، وأنشأ العماد كتابا في الجواب إلى الديوان وفيه: «وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه».

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية

قال العماد: ولما عزم السلطان على الرحيل استناب بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه، وكان عزيز المثل، غزير الفضل، وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها:

أسأل الله ذا العلى أن تعيـش
ألف عام لنصره مستجيشا

ومنها:

ما أكدي شيئاً سوى فروة منـي
ك وأبغني لسفرتي اكديشا
كيف يخلو من دفء ظهـر
سالك طرق إيلة والعريشا

ووقفت على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن، يعلمهم أن ملوك الشرق قد دخلوا في طاعة السلطان، وأنه عازم على القدوم إلى مصر، وصوم رمضان بها، والحج إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع، مما تشتمل عليه تلك الأعمال، ووقفت على كتابين آخرين أحدهما إلى أمير مكة، والآخر إلى أمير ينبع يعلمهما بذلك ليتأهبا لقدمه، ووقفت على كتاب سادس للفاضل إلى السلطان في ذلك يقول فيه: «جعل الله الملوك ذمة لسيفه، وشرذ منام الأعداء منهم بطيفه، وأمن أهل الاسلام بعدله من جور الدهر وحيفه، وأشهده موقف الحج الأكبر، وزان بمحضره مشهد خيفه، وجعل وفده الأكرم وضييف بيته في هذه السنة في وفده وضييفه» ثم هناء بها فتح الله عليه من محبة الجهاد، وما أثره في بلاد الأرمن وغيرها من البلاد، وما تبع ذلك من نية الحج بلغه الله منه المراد، ودخول السلطان

بلاد الأرمن كان في هذه السنة، كما سبق، فلعله سنع له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له ممانعه منه.

قال العماد: ورحل السلطان إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ، فأقام يومين كما ذكر وتوجه منها إلى مكة على البحر فأدرك الصوم.

قال العماد: ووصلنا إلى القاهرة على طريق إيلة ثالث عشر شعبان، واستقبلنا أهلها، ولقينا الأكابر والأعيان، والملك العادل أخو السلطان حينئذ بها نائبة، وتلقينا مواكبه ومواهبه، وخدمته بقصيدة ذكرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة منها:

قلبي طال ليلى بعدكم
أسى فمتى ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتي مذ فقدت لقاءكم
فهل لحياتي منكم نشأة أخرى
أجيران جيرون المجير من جارهم
من الجور حوزوا في مشوقكم الأجر
محبكم قد خاناه الصبر فاطلبوا
محباسواه عنكم يحسن الصبرا
ومذ غبت عن مقرى قد نبأ
سقى ورعى ربي مقرى في مقرى
أحن إلى عذرا وعذري واضح
لأن الهوى العذري منسي في عذرا
إذا القدر المحتوم من جلق بنا
إلى مصر أسرى فالقلوب بها أسرى
رحلنا فما بحث بأسرارنا سوى
عبارة عين خوف يوم النوى عبرى
تركنا دمشق والجنان وراءنا
وقد أمنا بالكسوة الرفقة السفرا

وجئنا إلى المرج الذي طاب نشره
فلأزال من أحبا بنا طيبا نشرنا
رحلنا بمرج الصفر العيس غدوة
فسارت وحطت في محجتها ظهرا
وقد قطعت تبنا إلى الدير بعدها
وبعدهما غدر البشامية الغزرا
ورأس الحشا والقريتين وكلها
موارد فيها السحب قد غارت غدرا
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
وجزنا عقابا كان مسلكها وعرا
إلى قلعة السراعي إلى نابع إلى
جراول فالنخل الذي لم يزل قفرا
إلى منزل في روضة الجميل اغتدت
به عيسنا في صدر شارحه صدرا
ودون حثا لما حثنا ركبنا
عيون لموسى لم يزل ماؤها ميرا
هناك تلقانا الوفود ببرهم
فسروا بنا أنفسنا وزادوا بنا بشرا
قطعنا إلى بحر الندي بحر قلزم
ومن قصده بحر الندي يقطع البحر
عبرنا إلى من كائر الرمل جوده
وجزنا إليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يرونا ماء الثماد بعجرد
ولم يقتنع بالقل من يأمل الكشرا
وجبنا البويب والمصانع قبله
إلى بركة الجب التي قربت مصرا
إلى عزمه في المجند غير قصيرة
وكان قصارى أمرنا أن نرى القصرا

ولما نزلنا مصر في شهر طوبة
وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غداق اصراع من قصره قصر قصير
وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

قال العماد: وفي هذه السنة بمصر عرت كتاب كيمياء السعادة
تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين، وفزت من تعريبه وعلم
ما فيه بسعادتين، وذلك بأمر قاضي لزماني امتثاله، وشملي في إتمامه
إقباله.

قال: وفيها في خامس عشري شوال توفي صاحبي المعتمد ابراهيم
بدمشق، وأنا بمصر.

قلت وهذا غير والي دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى،
ويلقب أيضا بالمعتمد، ورثي العماد صاحبه بقصيدة منها:
أرى الحزن لا يجدي على من فقدته
ولو كان في حزني مزيد لذته
تغيرت الأحوال بعهدك كلها
فلمست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا
فحلت يد الأقدار ما قد عهدته
وكان اعتقادي أنك الدهر مسعدي
فخافتنني الأيام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن
سوى ما أراد الله لا ما أرادته
وداع دعائي باسمه ذاكراله
فأطربني ذكر اسمه فاسعدته
فقدت أحب الناس عندي وخيرهم
فمن لائم في فيها إذا ما نشدته

قال: ورثته بيتين وذكرت العناصر الأربعة في بيت واحد منهما:
لهفسي على من كان صبحي وجهه
فعدمت حين عدمته أنواره
سكن التراب وغاض ماء حياته
مداطفأت ريح المنية ناره

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة سافر قراقوش إلى قابس، فذكر محاصرته لجملة من القلاع، وقتله جماعة من البربر، وما ذكره أنه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم، وفيهم صبي أمرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على أن لا يقتله فأبى فزاودوه إلى مائة ألف فأبى وقتله، فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدمها لقراقوش، فسأله عن الخبر فقال: هذا الصبي الذي قتلته ولدي، ولم يكن لي سواه ولأجله كنت أحفظ هذه القلعة، فلما قتلتها علمت إن بقيت هذه القلعة في يدي ومت صارت إلى أولاد أخي وأنا أبغضهم فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالا.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي ميقاتا، وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده أشتاتا، وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر مامن الله به على الأنعام من الإنعام بكثرة ولادة التوأم في ذلك العام، وجبر الله به ما كان قبله من الرءاء، وتفاءلوا بالخصب بعد الجذب والغلاء.

قال: ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجاء الواعظ في داره، خارج باب زويلة بالقاهرة في ذي القعدة فقلت:
مأمنزل من يرى
فيه غير عار فعار
بما تظا الأذاي
وترحض الأوضار
والعيش فيه قري
والطيبش فيه وقار
والسبت في كل يوم
لمن يرى مختار
نار تطيب ألا أعجب
لجنة هسي نار

وله فيه:

ومنزل يدخله
لشغل كل أحد
يوجد فيه السبت في
كل خميس وأحد

فصل

في ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله

وماتم في بلاده بعده وذلك بحلب

قال ابن شداد: وكان مرضه بالقولنج، وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدة مرضه، واستدعي الأمراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس.

وقال ابن أبي طي: كان سبب موته أن علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل الذي سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل إنه أطعمه خشكناكة وهو في الصيد، قال: ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحزن الناس له حزنا عظيما، وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافا.

قلت: وبلغني أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله، فإنه سأل الله تعالى أن لا يعذب شيئا من أجزائه بالنار، وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله.

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها، فقال: لأفعل حتى استفتي الفقهاء، وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها، فقال له: يا علاء

الدين إن كان الله سبحانه وتعالى قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟
قال: لا والله ، قال: والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي.

قلت: يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك لا أنه
كان يرى ذلك فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم.

ثم قال ابن الأثير: فلما آيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر
الأجناد ، واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته
جميعها إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها
من البلاد من همدان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين
ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضا
عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق
والخلال التي تفرد بها، فقال: إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم
تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن
سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فإن
ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز
الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فاستحسن
الحاضرون قوله وعلموا صحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه،
ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما توفي أرسل دزدار حلب، وهو شاذبخت
وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد
الخبر ومجاهد الدين قايمز قد سار إلى ماردين لمهم عرض فلقي
القاصدين عندها فأخبروه الخبر فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز
الدين ويشير بتعجيل الحركة، وأقام على الفرات ينتظره، فسار أتابك
مجداً فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه، وأرسل إلى
حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده، وجددوا اليمين له، فسار
حيثئذ إلى حلب ودخلها وكان يومه مشهوداً، ولما عبر الفرات كان تقي
الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هارباً إلى

مدينة حماة، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك، وكان صلاح الدين بمصر، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي، فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به، وأقام بحلب عدة شهور، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب، ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار، فلم يجبه إلى ذلك ولج عماد الدين وقال: إن سلمتم إلي حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه، وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين، ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه في الدولة، وكثرة عساكره وبلاده، فوافقه وهو كاره، فسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل، وكان صلاح الدين بمصر وقد آيس من العود إلى الشام، فلما بلغه ذلك برز عن القاهرة إلى الشام، فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح إلى الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه، فعاد إلى الموصل، وعبر صلاح الدين الفرات، وملك البلاد الجزرية، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها، وعاد إلى حلب وحصرها فسلمها عماد الدين إليه وسبب ذلك أن عز الدين لما تسلم حلب لم يترك في خزائنها من السلاح والأموال شيئا إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الدين وهي كما يقال بطن حمار، فهو كان السبب في تسليمها.

قال ابن شداد: ولما توفي الملك الصالح سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك وبما جرى له من الوصية إليه، وتحليف الناس له، فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان، فكان أول

قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين، وصاحب سروج، ووصل معهما، من حلف الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب، وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة، ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه، وضاق عطنه، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايباز، وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام، فرحل من حلب طالب الرقة، وخلفه ولده ومظفر الدين بن زين الدين بها، فأتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستقر مقايضة حلب بسنجار، وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشري شوال، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب.

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه، وهو نائبه بدمشق: «وقفنا على كتابه، وعلمنا ما تجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله، وانقطاع الداخل عليه» ثم أشار بتنفيذ عسكر إلى جهة أخيه تقي الدين على إظهار قاعدة النظر في القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان، والتوجه لفصلها، قال: «فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم، وباطنها لهذا السبب المتأخر، وقد كوتب الولد تقي الدين أن يتوجه إلى منبج وتل باش، وهي جمهور الطرق بل كلها وقد أوعزنا إلى تقي الدين بأن يكون حمام حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة، وإلى الأجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق في حمص، وحمام حمص في حلب، وولدنا عز الدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى في دمشق، وقد بعثنا نجاين يكونون منيخين ببصرى، فإن تحققت الوفاة فنحن أسبق اليكم من الجواب قولاً وفعلاً، ووعدنا ونجحنا، فالعلة

مزاحه، والعساكر مستريحه والظهر قد استعد والمصلحة في الحركة ظاهرة، وحجج انتقاد المنتقدين في هذه القضية ساقطة».

وقال العماد: كان قصد السلطان إصلاح حال الملك الصالح، وأنه القائم مقام أبيه، فصد عنه مماليكه، فأخذت بلاده بلجاجهم، ومرضت دولته لسوء علاجهم، فاقتنع بحلب إلى أن توفي، ووصل ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب، فجمع ظاهره وباطنه، وأخذ خزائنه، واستخرج دفائنه، وأخلى كنائنه، ثم عرف أنه لا يستقر له بها أمر، فرغب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في تعويضها له بحلب، فمال إلى بذله ورغب، ولما سمع السلطان في مصر بوفاة الملك الصالح تحرك عزمه وندم على النزوح من الشام مع قرب هذا المرام، فكتب إلى ابن أخيه تقي الدين، وهو يتولى له المعرة وحماة، وكان نائبه بدمشق للنهوض، وكذلك شحذ عزائم نوابه بالشام بتجديد المكاتبات لهم وبعثهم على الاستعداد وحملهم، وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه قد نهض في مقابلة الفرنج بالكرك، فإن الأبرنس الكركي كان يحدث نفسه بقصد تيماء في البرية، فما زال فرخشاه في مقابلته حتى نكص اللعين على عقبيه ذليلاً، ولم يجد إلى ماحدثته به نفسه سبيلاً، فعرف السلطان اشتغاله بهذا المهم، فكتب كتاباً يشرح الحال إلى بغداد باللفظ العمادي يقول فيه: «وشاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم وأتوا من السبي والنهب بالعظائم، وشاع أيضاً أن عسكر حلب أغار على الراوندان وهي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم ويغريهم بنا، وقد راسلوا الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف والعلم بالمعتاد منه كاف، وابن أخي غائب في أقصى بلاد الفرنج في أول برية الحجاز فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء وهي دهليز المدينة على ساكنها السلام، واغتنم كون البرية معشبة مخصبة في هذا العام، والعجب أن نحامي عن قبر النبي صلوات الله عليه وسلامه، مشتغلين بهم، والمذكور— يعني صاحب الموصل— ينازع في

ولاية هي لنا ليأخذ بيد ظلمه، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال، هذا مع مانع في الدولة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعد مثلها أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم خامر، ووالى ثم ولى، ولا آخرًا لطغرل بك فإنه نصر ونصب، ثم حجر وحجب، وقد عرف مافضلنا الله به عليهما في نصر الدولة، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها وتطهير المنابر من رجس الأعداء، ولم نفعل مافعلنا لأجل الدنيا غير أن التحدث بنعمة الله واجب، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب، ولاغنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده، ولا يتجاوز حقه، فإن دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل، ويحتاج إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل، فإن الأعمار تمر مر السحاب، والفرص تمض ومض السراب، وبقاؤنا في هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر أن نغتنمه في مجاهدة العدو الكافر الذي صار به البيت المقدس محلا للارجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على اليأس، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة، فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ماوفت بفتح مصر التي رحل عنها أسامي الأدعياء الراكبة أعوادها، وأعاد إلى عينها بعد بياض عمامتها، من نور الشعار العباسي سوادها، فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد فالأولى أن يقلد الجميع فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك، ولمالك الأمر الحكيم في ممالك الممالك، وكان في الكتاب أيضا مامعناه أن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه وليقنع برزقه».

ومن كتاب فاضلي: «فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصددده، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده، لكان الاسلام قد أعفى من

شركة الشرك، وانفك أهله من ربة أهل الأفك، ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلب خطباءها، وكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنينها والمسلمون غرباءها.

وفي كتاب آخر له: «وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الاسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكننا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا، وكالانعام أو أضل سبيلا، إن بني معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس».

وفي كتاب آخر: «والخادم والحمد لله يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لا يعدها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخريه طغرل بك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي ذخر الله للاساعة في سيفه ماءها، فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد ابراهيمي، فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر، وفعل وما فعل للدنيا ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر» ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها، وكانت داخلية في تقليد السلطان السابق فقال: «دخل حلب مستوليا، وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لاحتل، والسيوف في أوجه أوليائهم لاتسل، وإنه إن فتح باب المنازعة، أدنى من ندامه، وأبعد من سلامه، وخرق مايعبى على الراقع، وجذب الرداء فلم تغن فيه إلا حيلة الخالع، وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها، ولا الدخول إلى الدار بموجب ملك غاصبها، إلا أن تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله، حيث الجمعة مسترييه، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحق مستجيبة، فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنها تكون لمن قلدها لالمن توردها، ولن بالحق تسلمها

لا لمن بالباطل تسنمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور و لولجها، ولم يناظر، ولكنه أتى البيوت من أبوابها، واستمطر القطار من سحابها، ثم ذكر أن المواصله راسلوا الملاحدة الحشيشية، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الاسلام تطلع، وضياح من في المسلمين توضع، وبتدار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع، وياللعجب من الخصم يهدم دولة حق، وهي تبنيه، ومن العبد يبني ملكها بنفسه وماله وذويه، وهي تراقب أعلاه فيه، ودعواه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لايقوم شاهدها، ولاهي بشناعة لايهتدي قائدها، بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القمص ملك الفرنج، وهذه الكتب المواصله بذلك قد سيرت ولاستيجاب الولاية طرق، أما السبق إلى التقليد فللخادم السابق، وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق، وأما بالآثار بالطاعة فله فيها مالولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدي الخلق، وامتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الاشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وأحوجت قابض الأعنة إلى أن يعليها الجدد، ويرسلها العراك، وطريق الصلاح والمصالحات الإيوان، والمشار إليهم لايلتزمون ربقتها، ولايوجبون صفقتها، وكفى بالتجريب ناهيا عن الغره، ولايلدغ المؤمن إلا مره، وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث يد عادية، ويد ملحدة، ويد كافرة نهض الكفر بثليته، وقصرت عن الاسلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه، وتصديق حديثه، ومايريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولايؤثر إلا مايتقرب به إليه وهو الطاعة، ولايتوخى إلا ماتقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

ومن كتاب آخر: «قد أحاط العلم بما طالع به أولا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله أن التقليد الشريف المستضيء لما وصله بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها قلاعا وأمصارا، وحصونا وديارا، ولم يبق إلا قصبه حلب،

وهو على أخذها عدل ولد نور الدين عن القتال إلى النوال، وعن النزال إلى الاستنزال، وقصد القصد الذي ما أوجبت المحافظة ان يتلقى بالرد، فأقره على الولاية فرعا لأصلا، ونائبا لامستقلا، وسلم إليه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السالبة لا المسلوبة، ومشى الأمر معه مستقيما ومائلا، وجائرا وعادلا، إلى أن قضى نحبه، ولقي ربه فبدأ من المواصلة نقض الإيمان، والإبتداء بالعدوان، والتعرض للبلاد، والتصرف فيها بغير حجة يكون عليها الإعتماد، فطالع الديوان بالقضية، واستشهد بدلالات قوانينه الجلية في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وأشاعته المنابر، وسيرت إلى الشرق والغرب نسخه، وغلت الأيدي التي تحدث أنفسها أنها تفسخه».

فصل

قال العماد: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان إلى الاسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري وشاهد الاسوار التي جردها والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والإهتمام، وقال السلطان: نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده ولنابه السماع، والوالي يومئذ بها فخر الدين قراجا.

قلت: ووجدت للقاضي الفاضل كتابا كتبه إلى السلطان يهنئه بهذا السماع يقول فيه: «أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم، وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لاتوصل إلى شكرها إلا بايزاعه، وأودع قلبه نور اليقين، فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيداعه، والله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، ومامنهما إلا أغر محجل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لاتستر، وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداة على الضلال فيجعل عينه أثر لا يظهر وقد استغرب الناس هم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاتة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من أقدار أهله، والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر، فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة، وأمور خلق الله كأمر دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك

للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياما مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته، وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط لملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون رحمة الله عليه، على أنه خلط زيارة نبوته بطلب، ورحل بولديه إلى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذي اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كان الرشيد سام مالكا رحمه الله أن يجعل له ولولديه الأمين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه، فقال له مامعناه: إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم، وغيرك من سترها، ومثلك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيوان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية، فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة، وإلا فليتمس، وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضا فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم لاخلال المولى أبقاه الله من فضله، وقف المملوك على مباشر به من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ما كان من دم، واسترواح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذه الطريق بكل فال مباركة البكر والفال، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه فلتنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقة إلى الشام ينقطع بها الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكة، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضرير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله.

قلت: هكذا يقع في كتب الفاضل رحمه الله كثيرا، وهو أنه يختمها بالأدعية متصلة بقوله إن شاء الله، والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية،

- ٨٣٤٤ -

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم اللهم أغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له » (٨).

فصل

في أمور تتعلق بولاية اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخي السلطان بزييد، وحصل له من أموالها الطريف والتلبد، ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها، وبقي أخوه حطان بزييد واليا عليها، فصنع دعوة عظيمة بها، ذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسر حال إذ أحرق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة، واعتقل بالقصر، وكان سببه أن أقارب السلطان وخواصه أكثروا عليه عنده أنه استوعب مال زييد وأن له كنوز لا تبعد، وأشاروا عليه بقبضة وهو يدافع عنه إلى أن أكثروا، وقيل فيه إن لم تدركه فات، فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصري بثمانين ألف دينار، ولم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانه من تجار، وغرم لأخوي السلطان العادل وتاج الملوك ما حافظ به على نهج الكرم المسلوب، وخرج مشرفا مكرما، مصرفا محترما، وزاد السلطان في تكريمه، وأنفذ إليه بما قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين في ذمته، ثم باعه أملاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ما طلب عن إيثار واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله في أشيائه وأشياعه.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحصافة فضله، ما سمعت منه شكوى، ولا حكاية في بلوى، وقتل أخوه حطان بزييد وأخذ ماله، فلم يظهر منه للسلطان كراهه، وكل شيمته نزاهة ونباهة.

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن، وذكر ما بين ولايتها من الإحن، ووصل الخبر بما يجري بين

الأمير عثمان بن الزنجيلي والي عدن، وبين الأمير حطان والي زبيد من الفتن، فندب إلى زبيد عدة من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يخشى عليها من الفساد، ومن جملتهم والي مصر صارم الدين خطلياً، وبقيت الولاية بها في غيبته يقوم بها نوابه ويرجع إلى رأي أهله وأصحابه، فشرعت زوجته في عمارة دار عظيمة سنية، وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافة جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخي السلطان تشرئب إلى اليمن، من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها فأمر ابن سعدان الحلبي أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الاسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

جـرد لها السيف الصقيـل فتنة
فالسيف لا يذخر إلا للفتن
شد به أزر العلى فإنه
نعم فتى من شرع الجود وسن
القائل المسموع في مقالـه
والصادق النـدب الأمين المؤتمن
بأدي الفـؤاد كيفما سيرته
حسن إلى دار الوغى ثم انت أن

وفيها يقول:

يا ابن الكرام النجباء والذي
تلقف العلياء فيها ولقن
لا تعد عينك عن الملك فما
يخاطب العلياء إلا من ومن
قد فسد الملك وقد طال العدى
واقسموا بعـدك أموال اليمن

قال: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام في المسير إلى اليمن.

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وزبيد وعدن، وأن يقطع بها الفتن، ويتولاها ويولي ويعزل، ويحسن ويعدل، فسار بعد مسيرنا إلى الشام، وجرت مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمان، ووصل إلى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه، ثم أذن له في الانفصال إلى الشام، فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد، ومطرف ومتلد، ولجين وعسجد، وياقوت وزبرجد، وآلات وعدد، وحصن وحجور عراب، ومال اعتقده من اليمن بغير حساب، ثم أناخ جماله، ورحل عليها أحماله وقدم قدومه أثقاله، وظن أنه نجا وفاز، وركب الأوفاز، فردّه إليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله، وسير وراء ماله من اقفله وإلى خزائنه نقله، ثم انفضّه إلى بعض معاقله فحبسه ثم قتله، وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله والذاهب مايعي بحصر تفاصيل جملة أنمل الحاسب، أن نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الأحمر المنقد، وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار، وأما صاحب عدن الأمير عز الدين عثمان بن الزنجيلي، فإنه لما سمع بسيف الاسلام توجه إلى الشام.

قلت: ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة واليمن، ودمشق، فإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إليه: «البلاد لك فيها عدة سنين، وأنت فيها مؤتمن على مال الله فأده إلى من يجاهد به أعداء الله، ويقيم به كلمة الله، ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة، ويقا تل به أعداء القبلة،

- ٨٣٤٨ -

ويضرب بالأسداده بين الكفر والاسلام، وينصب وجهه بين الهجير
والزمهير عاماً في إثر عام، وما نطلب منك الباطل الذي لا يجوز لنا أن
نطلبه، ولالك أن تدفعه، ولا نريد إلا الحق الذي لا يحل لنا أن نتركه،
ولالك أن تمنعه».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي هذه السنة وصل إلى السلطان من دمشق العلم خطيب المزة، وكان قد زور على السلطان مثالا يتضمن له منالا، ورفع له إلى عز الدين فرخشاه فما خفي تزويره عليه، وهم بالايقاع به، فقصد السلطان بمصر وأطلع له على حاله فما أكثرث به، وقال تحقق مازورت وأمر أن يكتب له توقيع بضعف ذلك الإدارار.

قال: وكان له إمام يصلي به، وهو يكتب مثل خطه، فأطلق به أموالا وأصلح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالا، وما يشك صاحب ديوان ولا متولي خزانة في أنه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التلف، وجلس أخوة السلطان وأمرأؤه عنده يغرونه به، فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن، فقال: نعم فنفس من خناقه، وأمر بإطلاقه وأبقى عليه خيره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماما، وبقي شغله معه مستداما.

قال: وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار في البحر وغيرهم، وسهل الله تعالى بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلد لهم يقال له بوليه تحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر، وشمل الباقي الأسر، فحصل في الأسر منهم زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا، واتفق ذلك أمام الإهتمام بالمسير إلى الشام.

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام، واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما. وفيها

سار قراقوش إلى إفريقية، فأوغل في بلادها وانتهب ما قدر عليه وحارب
عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان، ثم بلغه أن ابراهيم السلاح دار
احتوى على أهل قراقوش وبلده، فرجع إليه، فهرب ابراهيم وسار إلى
خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم.

قال ابن القادسي: وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفي الإمام كمال
الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادات الأنباري
النحوي، وكان فقيها نحويا زاهدا عابدا، خشن العيش صبورا على
الفقر، وكان يسرد الصوم ولا يقبل من أحد شيئا، وكان يحضر في نوبة
الصوفية بدار الخلافة المعظمة في الوقت، فينفذ إليه بالتشريف والذهب
فيعيده ولا يقبله، وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء أن يقبل لولده
شيئا، فما كان يفعل، وكان يفطر على الخبز الخشكار، ويتنازع برغيف أرزا
وما شاء، وكان بابه مفتوحا لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان
إذا أحضر أحدهم في الصيف مروحة يتروح بها، فإذا خرج يقول له: خذ
مروحتك معك، فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غد فما يفعل،
وصنف تصانيف كثيرة، ودفن في تربة أبي اسحاق الشيرازي رضي الله
عنه.

قلت: وفيها توفي بمصر الشاعر ابن الذروي، وهو أبو الحسن علي بن
يحيى المصري، وسنه حول الأربعين، وقد تقدم من شعره في حج
الفاضل، وفي مدح ابن منقذ وغيرهما، ومن ظريف شعره قوله في أحدب:

يا أخي كيف غيرتنا الليالي
كيف حالت ما بيننا بالمحال
حاش الله أن أصافي خلا
فيراني في وده ذا اختلال
زعموا أنني أتيت بهجو
فيك نمقتة بسم حلال

كذبوا وإنما وصفت الذي حـز
ت من النبـل والسـنا والكمـال
لاتظنن حـدبة الظهـر عـيبـا
فهـي للـحسـن مـن صـفـات الـهـلال
وكـذا كـ القـسـي مـحـدود بـصـات
وهـي أنـكـى مـن الطـبـا والعـوالي
ودنـا في القـضـاة وهـي كـما تـعلـى
مـم كـانـت مـوسـومة بـالـجـمـال
وإذا مـاعـلا السـنـام فـفـيـه
لـقـمـ روم الجـمـال أي جـمـال
وأرى الإـنـحـناء فـي مـنـشـر الـ
كـاسـر يـلقـى ومـخـلـب الـرـيـبـال
وأبـو الغـصـن أنـت لـاشـك فـيـه
وهـو رب القـسـوام والاعـتـدال
قـد تـحـلـيت بـانـحـناء فـأنـت الـ
مـراكـع المـسـتـمـر فـي كـل حـال
وتـعـجـلـت حـمل وـزرك فـي الظـهـر
مـرفـأ مـنـافـي مـوقـف الأهـوال
إن حـمل الـذـنـوب أهـون فـي الدنـى
مـيـا عـلى أنـه مـن الأثـقال
كـون الله حـدبة فـيـك إن شئـ
مـت مـن الفضـل أو مـن الأفـضـال
فـأنـت ربـوة عـلى طـود حـلم
مـنـك أو مـوجة بـيـحـر نـوال
مـارأتمـا النـسـاء إلامـنـت
لـو غـدت حـليـة لـكـل الـرجـال
عـد إى ودنـا القـديـم ولا تـصـم
مـغ لـقـيل مـن السـوشـاة وقـال

فصل

في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام

قال العماد: وعدنا من الاسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر والسلاح، واستصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة على مصر والقاهرة.

قال: وكان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالسا في سراقه، وكل ينشده بيتا في الوداع، فأخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه وأنشد مظهرا له فضله، ورافعا به محله:

تمتع من شميم عرار نوجد

فما بعد العشيّة من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه، وتبدل بالانقباض انبساطه، ونحن ما بين مغضب ومغض، ينظر بعضنا إلى بعض، حتى اتصل العجب من مؤدب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ما عاد بعدها إلى الديار المصرية حتى اتصل بنجح المنى إلى المنية.

قال: ومن جملة تسمج المعلمين في القول ما حكاه لنا شيخنا أبو محمد ابن الخشاب قال: وصلت إلى تبريز فأحضرتني يوما رئيسها في داره، وأجلس ولده ليقرا بعض ما تلقنه علي، فقلت فرخ البط سابح، فقال معلمه وكان حاضرا: نعم وجرو الكلب نابح، فخجلت من خطأ خطابه، وإذا به على دأبه في سوء آدابه، ومقصوده أن يذكر قرينه ولا يبالي بعينه قريرة أم سخينة، ودأب أدباء أولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الإجتراء على الآباء، ويحتمل ما يصدر منهم لعزة الابناء، وإنما يصلح لمجالسة الملوك من يحتفظ في كلامه، ويتيقظ في منامه.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

قال العماد: ففي المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا إلى الشام، ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحما، وأخذ على طريق صدر وإيلة في المفاوز، فبات بالبويب، ثم كانت منازل على الجسر، ووادي موسى وحثا وصدر، وبعد خمس ليال وصل عقبة إيلة، وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحسمى، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرد السلطان في كياته وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسى وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس، وأمره بأن يسير بهم يمئة منه، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع، ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه.

قال العماد: ويلقب أيضا معز الدين، بما غنمه أيضا من بلاد العدو، وذلك أن الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق، لعلهم يتجهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفه، فخرج فرخشاه من دمشق، واغتنم خلوا ديارهم فأغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين، ففتحه وأسكنه المسلمين، فبقي عينا على الكفار، بعدما كان لهم، ورجع بالأسرى والغنائم مظفرا منصورا، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام، ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر.

قال: وفي العشر الأول من شهر ربيع الأول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، ولكن كانت الدائرة على الكافرين، ورجع السلطان بحمد الله ظافرا، وكتب بالمثل الفاضلي إلى الديوان: «وكان الخادم طالع

بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوما، فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف، ولم يزل الخادم على مداومة الأعمال إلى أوساط الأعمال، فحل بها وشن الغارة فأبعد، وأذكى النار فأوقد، وطلب الماء المحمي أزرقه بأزرقهم فأورد، وسفك دم الخصب بالنار وأخذ، وفيها عدل السيف الجار بالجار، وعلم أن الفرنج قد تسللوا لوإذا وتعللوا بالحصون احتجازا وليأذا، وأنهم لا يقاتلون إلا في قرى محصنة، ولا يقابلون إلا على نجاة متيقنة، وسرح الخادم إلى تلك الذراري، واستفز لها من كل فرقة منهم طائفة، وساروا في طريق على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحمة الاسلام الحامية التي تستنهض أرواح الكفر إلى نار الله الحامية، وسلك البلاد المؤدية أوديتها إلى سيول الشرك الطامية، وسيوف الضلال الدامية، فجثموا جثوم الكسير، وجدعوا أنوف الأنف جدعا قصر فيه رأي قصير^(٩)، وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام، وأورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الأحلام، ويسر الله الوصول ورقاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها رفاقها، وعيون الأعيان منهم قد قيدها للذل أطواقها، وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول، ونزل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأن الفرنج رحلوا في ليل ركبه جملا ولبسوه سترًا، دون اللقاء مسبلا، وأصبحت الأطلاب الاسلامية طالبة الأردن، وأشرف عليهم المملوك فرخشاه، وكان على ميسرة الاسلام فما خرج منهم من أخرج كفا، ولا تطرف منهم من أجال طرفا، ولا ركض طرفا، ولم يزل الخادم مقبلا ينادي للخروج الصم الذين لا يسمعون الدعاء إلى أن طوى النهار ملاءته، ومد عليهم كلاءته فإنه رعى ما بينه وبين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام كل رمية منها طعنة، وكل أنه من قوسها تجاوبها للحين أنه، فاستخرجوا ضماير كنانهم وقصدوا بها ضماير

ضغائنهم فمرت كأن التوفيق يقودها إلى حيث أمت فأماتت، وطارت جرادا يرعى زرع الحياة، فبتت وما أباتت، ولم يروا مضاجع ذوات حسك كمضاجع حسكها المستهام، ولاليلة لهم ذات أحلام كليلة حلمها يقظة الحمام، وأصابت خيولهم صوائبها، وتعلقت نصالهم بدهمها، فكأنهم في ظلماتها كواكبها، فلما انشق الصبح غيظا من شقاق كفرهم شوهدوا نازلين من حصنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حصن الطور الذي كانوا إليه ناوين، فسأقت إليهم أطلاب الميسرة صحبة المملوك فرخشاه، وساق المملوك عمر من الميمنة طالبا لحومة القتال، فرأوا الخطة عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فتنهم متناسقة، وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعه في أرضه، ومنح نافلة الموهبة لمن قام في الجهاد بفرضه، وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم إليها الإضطرار لا الاختيار، وثبت من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وهم الأعداء لقاء الأحباب، وتعانقت لغير الوداد، فصارت أيديها أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحة، وصرعت للفرنج أبطال وخيالة، وتمت الحملة الإسلامية على من كان وراءهم من الرجالة، فأخذ القتل كثيرا وقليل ترك، وفرت روح الكافر من الجسد وعلمت النار أية سلك، وألجأهم البلاء إلى حصن يعرف بعفربلا، وسع الخوف منه ماهو ضيق، وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق، ولم تتصرف صدور الخيل دون أن اعتقلتهم في سجنه، وألزمهم به، فصاروا قرطا في أذنه، وكان ذلك اليوم من الأيام الذي اضطربت فيها نيران الجحيم ارتياحا لمن قدمها من أرواح الكفار، وكان قائم الظهيرة في الغور قد منع من استتمام عودة المغار، ومورد الماء بعيد من غريمه والري ولو أنه من حميم أحب إلى المرء من حميمه، فمالت الجنود إلى المناهل متفرقة عليها، ومنصرفة إليها، وحافة بها من حواليتها، وأذعن الكفار بالحصر والتفادي من الأصحار، والإعتماد على المطاولة والإضجار، والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الجرار، وبات الخادم والمسلمون على الحصر المذكور

الذي يأتونه نازلين، قد حققوا من أحوال اللقاء ماكانوا به جاهلين،
وفعل الله سبحانه وتعالى في هذه النوبة ماواقبه مسفرة عن المراد،
ودلائله محققة لقوله تعالى: (لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد)^(١٠)
وإن الكفر مذ قام قائمه، والشام مذ حله ظالمة، لم يعبر أحد من ولاية
الأمر هذا الحد إلا على حين غفلة من أهله، ولم يواجه الكفر وهو مجتمع
في خيله فضلا عن رجله، ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكانت
العزائم لتهديده، ولم يجمع أمره على اللقاء إلا صرفه عن الأمر يصرفه
ذهبه لانبجديه، فأما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرنوا بحربه.

فصل

في مسير السلطان إلى بلاد الشرق مرة ثانية

قال العماد: ثم إن السلطان عزم على المسير إلى حلب، وبلغه أن
المواصلة كاتبوا الفرنج، ورغبوهم في الخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان
عن قصدهم، فتوجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع، وكان قد واعد
أسطول مصر أن يتجهز إلى بلاد الساحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى
بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أن
أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب، وظفر من
غنيمتها بما طلب، فأغار السلطان على تلك البلاد، ورجع وأعاد فرخشاه
إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المهذب
عبيد الله بن أسعد بن الدهان، وله في السلطان مدائح منها قصيدة أولها:

أعلمت بعدك وقفتي بالأجرع
ورضى طلوك غن دموعي الهمع
مطرت غضا في منزليك فذاويا
في أربيع ومؤججا في أضلع
هل يعلم المتحملون لنجعة
إن المنازل أخصبت من أدمعي
دعني وما شاء التلذذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أوعى
لا قلب لي فأعني الملام فلأنني
أودعته بالأمس عند مودعي
قل للبخيلة بالسلام تورعا
كيف استبحت دمعي ولم تتورعي
وبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجود عناية للمبدع

ومابال معتمرب ربك ذائبا
يقضي زيارته بغير تمتمع

ومنها:

ووعدتني إن عدت عود وصالنا
هيهات ما أبقي إلى أن ترجعي
هل تسمحين بيذل أيسر نائل
إن اشتكى وجدي إليك وتسمعي
فتيقني أني بحبك مغرم
ثم اصنعي ما شئت بي أن تصنعي

ومنها

عفى الربيع الجون ربعا طالما
أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سيل الغنى
من كف يوسف بالادر الأنفع
بيدي فتى لو أن جود يمينه
للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فلذا تبسم قال يا جود اندفق
فيضا ويا سحب الندى لا تقلعي
وإذا تنمر قال يا أرض ارجفي
بالصاهلات ويا جبال نزعي
وإذا علا في المجد أعلى غاية
قالت له اللهم الجسم ترفع
كم وقفة لك في الوغى محمودة
أبدأوكم جود حميد الموضع
والناس بعدك في المكارم والندى
رجلان إما سارق أو مدعي

قال: ثم رحل السلطان إلى حماة واستصحب معه ابن أخيه تقي الدين، فلما قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك صاحب حران حينئذ فاجتمع بالسلطان، وسار في خدمته من جملة الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويحوز ماوراءها، ويترك حلب إلى ما بعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها، فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات.

وقال القاضي ابن شداد: نزل السلطان على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، فأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين بن زين الدين، وكان صاحب حران، وكان قد استوحش من جانب الموصل، وخاف من مجاهد الدين فالتجأ إلى السلطان وعبر إليه قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد، وسهل أمرها عنده، فعبر الفرات وأخذ الرها والركة ونصيبين وسروج، ثم شحن على الخابور وأقطعه.

وقال ابن أبي طي: في أول السنة أراد مظفر الدين بن زين الدين، وكان إليه شحنة حلب الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها، فلم يتمكن وظهر أمره، وبعد هذه الواقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد، وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيرها إلى عز الدين، وسلم عز الدين إليه حلب، فسار إليها ودخلها فخرج مظفر الدين عنها وصار إلى الفرات، فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار إلى خدمته واجتمع به على جباب التركمان، وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق، وتأخير أمر حلب، ففعل ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تل خالد ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأرتقي فنزل إليه وقبل الأرض بين يديه، وسأله الصعود إلى قلعة البيرة، فأجابه وقدم له مفاتيح القلعة، فردها إليه ووعد باستخلاص

ماكان صاحب ماردين رده عليه، ورحل السلطان إلى سروج فنزل إليه صاحبها ابن مالك مستأمنًا، فأعاده إلى بلده، وراسل صاحب ماردين في رد ماكان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل، ثم أخذ الرها ثم الرقة ثم سلم الرها إلى ابن زين الدين، والرقة إلى صاحب الرها لأنه سأل أن يكون في خدمة السلطان.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه يعلمه بالحال وفي آخره: «ولتعجل بحمل ما هناك من الأموال فكلما فتحت البلاد أبوابها، قد فتحت المطامع أفواهاها، واستوعبت الخزائن إخراجا وإنفاقا، واستنفدت الخواصل إعطاء وإطلاقا، وقدمنا على بحر لا يسده إلا بحر، وعلى أيد إن كان بها الغنى ففي أنفسها الفقر».

ومن كتاب آخر إلى العادل: «يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخرج الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وإنه متى نضبت المواد وقفت الأمور التي قد شارفت نهايتها، وتفرقت الجموع التي تناذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها والتزول عليها».

قال العماد: وقال مظفر الدين للسلطان: مازلت شوقا إليك في حران حران، وإلى السري من ورد خدمتك ظمآن، وهي لك مبدولة وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة، والرها لا يعسر أمرها، والرقة لرفك وبعض حقك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا دارك، ونصيبين نصيبك، وملك الموصل موصلك إلى الملك، وما هذا أوان الونا فادن إلينا، وكل بعيد قد دنا.

قال: ووصل البحر إلى الفرات وخيم عليها من غربي البيرة، ومد الجسر، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسلطان تخلى عنها، فأعاد إليها صاحبها شهاب

الدين محمد بن الياس الأرتقي، وكتب السلطان بالمثال الفاضلي إلى الديوان عند عبور الفرات كتابا فائقا طويلا يقول فيه: «أخدم الخادم متوالية إلى الأبواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحا أحواله، ومعتدا بها من صالِح أعماله، ومتوقعا من الأجوبة عنها ما يبيء له من أمره رشدا، ويفرق الأعداء إذ كادوا يكونون عليه لبداء، فإن الآراء الشريفة لو لم تفصح عنها الإنشاءات، وتتضمنها الإجابات والإبتداءات لأفصحت عنها موالة الخادم التي استفتحت الدولة بعقائل الفتوح قبل خطبتها، وردت الأسماء الشريفة إلى أوطانها من المنابر، بعد طول غربتها، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهاجر ما هاجر إليه، ونية المرء ثوبه، فلا يلبس إلا ما خلعتة النية عليه، وكتاب الخادم الآن من البيرة بعدما قطع الفرات، وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد، ولا يلقي السمع وهو شهيد، يظن أن ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده، وإنه ينسى عزيمة رأيه إذ ذكر طول مدته، وهول مده، وكيف ما كان هذا المخرج المخرج فقد أحسنت إلى الخادم إساءته إليه، وقربه من محل دار السلام، بل الاسلام، فما أكثر ما قال: السلام عليه، واستشرف جناحه من جناحه أمنا وذعرا أوجبتهما الموالة والمهابة، وطالعت عينه أنواء وأنوارا تنسب إلى بركتها كل سحابة، وكاد ينزل عن السروج والأكوار، ويقبل الثرى لأجل شرف الجوار، ويستنفد غلته ماء الفرات، لأنه يمر بتلك الديار، ويقرأ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الأخطار، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإنعام الذي هو أعم وأغمر للأقطار من القطار، وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالي، وأسلفته آماله حوز الفوز بما قربه نجيا من قربه، والآمال آمالي، والله تعالى يشرف أرضا هو واطئها ويرعى سرحا هو كالثها، ويسعد به أمة هو بارها بطاعة من هو بارئها، ولما تحقق الخادم أن المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر، وخصمتهم خطوط الأيدي المتمسكة بعصم الكوافر، وعقدوا معهم عقدا شهده من هو حاضره، ونقله إلى من

سمعه من هو ناظره، وكان عقدهم إحدى عشرة سنة، والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار، على أن تسلم ثغور المسلمين إلى الكفار، ومنها بانياس، وشقيف تيرون، وحبيس جلدك، وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم بمساعدة الفرنج، ولما تم لهم هذا العقد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النقد، ظنوا أن الحق يجادله الباطل فيدحضه، وأن يد الكفر تنبسط إلى الاسلام فتقبضه، وأن الخادم لا يمكنه أن يتوجه إليهم إلا أن يكون للفرنج سلماً، ولا يستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قسماً وبإزائهم قسماً، وعملوا على هذا الوهم، وبنوا على هذا الحكم، استنهضوا الفرنج على تشاقل الخطوة، واستخرجوهم على ما بهم من كلوم الغزوة بعد الغزوة، فتحاملت أرجل الكفار على ظلعها، وخرجت على طمعها إلى فرعها، وانفقت في رجالها مالا حملوه إليهم جما، وجرت إلى الاسلام جيشاً جهزه من يدعي الاسلام لفظاً، ويفارقه حكماً، وتواعد المواصله مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يوصل المساءة إلى الخادم، ولم ينظروا للاسلام في العواقب، فوصل المواصله إلى نصيبين مجدين محفلين، وحركوا الفرنج للخروج إلى الشام متطرفين ومتوغلين، فلا جرم أن أمراء جانيهم، وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين، ولا الخروج عن إمرة الموحدين، فأرضوا الله بإسخطاهم، واشفقوا على دينهم اشفاقاً دلاً على تحرزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله، ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله (لا تجدد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)^(١١) فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أملوا النصر من أرضهم أمله من سمائه، فرتب الخادم في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فرخشاه ابن أخيه، وأبقى عسكر الشام وحاميه فيه، واستنهض أخاه من مصر إلى ما يليه من بلاد الكفر فنهض، وقام الخادم بما أقامه له والله عز وجل بما فرض، وسار الخادم بالعسكر المصري إلى هذا الجانب الذي هو

الآن فيه، وكان أسره يكفيه، وتثاقل في الطريق انتظارا لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويفرجوا عن الولاية أيدي اغتصابها، ويعتذروا إلى السيف بالسنة يشفق على رقابها، فأبوا إلا الإباء، ورأوا الملك إرثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الآباء، ولما قرب الخادم من الفرات وصل إليه صاحب حران ابن زين الدين علي كوجك، ومقدم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سروج، وصاحب البيرة، وكل بيده مفاتيح بلده، وأمامه أمان الخادم له قد استبدله من مقلده، ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جنائيات ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويخشونه في المسير على الأغذاذ، ويشكون أنهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لا يسلك فيهم سننها، ولا يقتضى فيهم شرائعها وسننها، ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم الفريقين، ويعدل بها عن أقصد الطريقين ما يروع السامع، ويسمع الرائع، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما تبعوا ونقضوا، وما افترضوا ومثلوا بالحق وما امتثلوا، وأمروا بكف الأيدي وقد بسطوها، وبأخذ الأموال من حلها وقد خلطوها، وبرعاية أمة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها، وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها، والعهود وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من وعها، وأي عهد لمن لاعهد له بالطاعة، وأي ولاية للأمور بأن يجتمع أهل الفرقة ففرق أهل الجماعة، فالجندي توكل الأرض بأسسه ولاشيء بيده، والعامي يرفع إلى السماء استغاثة مالا يمهل الله عليه، ولقد تعجب الخادم من إشغاف الأنفس الغنية إلا أنها فقيرة، والارتفاق بتلك الطعم الجليلة، وهي على الحقيقة الحقيرة (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكون بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) ^(١٢) الآية هذا إلى طامة أخرى لا تقر عليها الجنوب، ولا تدر عليها الخلوب، ولا ينام على

سهر بارقها وإن كان الخلوب، وهو أن الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها، وبذلوا الطاعة لها، وقد أمروا بالامتناع منها، وهذا نص في الخلاف لا يدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل، وكل صغيرة من هذه الكبائر، وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولاية، ويخرج العدالة، ويسلب الرشد، ويثبت الضلالة، ويمضي نية الولي فيها هو له ماض، ويبعث عزمه فيقضي ما هو قاض، ويسخطه وكيف لا يسخط والمولى غير راض، ويغيطه بما لا عذر له المغتاض متغاض، وما أنهى الخادم مما اتصل به إلا الأوائل والأطراف، وما عول إلا على ما صححته النفس دون ما خيله الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حظها من معدلة كان الزمان بها طويلا مطله، وأنشأها سحاب احسان كان بعيدا عليها هطله، فقد كفيت الخواطر الشريفة ما كانت به على اهتمامها، كما يجب للامة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أمرها، وييده يجلب نفعها، ويجلي ضررها، وقد تجددت للدولة الشريفة قوة واستظهار، وبسطة واقتدار، وسيف به يناضل من يسيء الجوار، ولسان يجادل به من يريد الدار، وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المصري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وما غنمه من مراكبه وقوافله، وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطسة فرنجية، وخرج من فيها هاربا من القسطنطينية لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي، وأفلتت منهم بطس منها هذه البطسة، وفيها رجال أكابر، ومقدمون لهم ذكر سائر، وغنم المجاهدون منهم ماملا أيديهم من سبي وذخائر، (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل)^(١٣) وحازت القبض من الأسارى ما يزيد على أربعمئة بعد من درج بالقتل.

فصل

قال العماد: ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق، فمن جاء مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار، فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان، وهو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فأذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له إلى حران، ثم وصل السلطان إلى حران فرتبها وانفصل منها إلى الرقة وفيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان فأذعن أيضاً وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه، فأصلحها السلطان، ورحل منها إلى مشهد الرمان، ثم إلى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها، وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور ومانشر من العدل في البلاد التي فتحها، فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والغدين، والمجدل والحصين.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنيير إلى نصيبين فاستعصت قلعتها أياماً ثم فتحت استسلاماً، وولاه السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين، وولى الخابور جمال الدين خوشترين، ثم سرنا إلى الموصل، وقطعنا الأعمال بين النهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بلد، وأشرفنا على دجلة، وكنا أوردنا خيلنا في أشهر من تلك السنة نيل مصر والفرات ودجلة، ثم صممنا على قصد الموصل، فلما قربنا من الوصول كبرنا تكبير من ظفر بالسؤل، وتقدم السلطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما، فنزل هو وراء البلد وتقي الدين من شرقيه، وأخوه تاج الملوك بوري عند باب العمادية، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولى مجاهد الدين قاياز حفظ البلاد بأحسن تدبير، وكاتب الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السلطان، فقدم في ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة، فرحل

السلطان عنها في شعبان وقصد سنجار، وقدم أمامه تقي الدين.

وقال القاضي ابن شداد: كان نزول السلطان على الموصل في هذه الدفعة يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين، وكنت إذ ذاك بالموصل، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل، مسرعا في دجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ، وكان في صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه، وسير إلى بهلوان رسول من الموصل يستنجده، فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان، ثم أقام السلطان على الموصل أياما، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعته وما حوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان، فرحل عنه ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين، وجماعة واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عنوة، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى الموصل، وأعطاهما السلطان ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها إلى نصيبين.

وقال العماد: لما قصد السلطان سنجار نزل بأزنجان فوجد عسكرا من الموصل سائر إليها فأحاط به، وأخذ خيلهم، وعددهم وردهم إلى الموصل رجالة ووصل إلى سنجار، ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا، وكان في سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل، فامتنع من تسليمها فحوصر ورميت القلعة بالمنجنيق فانهدم منها ثلثة من السور، فوكل بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال، ثم جاءت الخبر ليلة أن الموكلين بحفظ تلك الثلثة نيام، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان فلما أصبح صاحب سنجار أذعن، وسلم ورحل بأهله

وماله، ودخل السلطان القلعة، ورتبها وأمر بعمارتها، وولاهها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وكان السلطان يعتمد عليه، وأخته ابنة معين الدين كانت في حباله السلطان، وكان رؤساء سنجار بني يعقوب، فترك الرياسة فيهم، وولى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المظفر بن محمد ابن يعقوب، ثم رحل السلطان إلى نصيبين، فأقام بها لأن الأيام كانت باردة، ومنها ودع رسل دار الخلافة، وشكا أهل نصيبين من أميرها أبي الهيجاء السمين فاستصحبه السلطان معه، وسار إلى دارا وأميرها صمصام الدين بهرام الأرتقي، فتلقى السلطان بأحسن ملقى، فأكرمه وسار إلى حران، وأقام بها للاستراحة، وعاد كل إلى بلده، وسار تقي الدين إلى حماة، هذا والمواصلة في جد من جمع الجموع وابتغاء الغوائل للسلطان.

فصل

في وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

قال العماد: وفي هذه السنة في جمادي الأولى توفي بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاه، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات، فأقر السلطان ولده الملك الأمجد بهرامشاه على بعلبك وأعمالها مكان أبيه، وأنفذ شمس الدين بن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها.

قال ابن أبي طي: كان فرخشاه من أكرم الناس يدا وأطهرهم أخلاقا، وأسدهم رأيا، وأشجعهم قلبا، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل إلى لبسه، وأمر له بغلام وبغلة مسرجة، وبألف دينار، وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له، ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، وسأل الحمامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم إليه الغلام وأخبره بجميع ما صنعه عز الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا في كل شهر، فلبس الثياب، وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس.

قال: وكان فرخشاه ممدحا مدحه ابن سعدان بعدة قصائد من جملتها التي يقول فيها:

تخذ السابري لبدا وعودا —

زنان نابا والهندواني ظفرا —

أعجمي الأنساب قصرت الأعـ
رأب عنه سجعاً ونظماً ونثراً
هزمت كتبه الكتائب جفلاً
وأعادت دجى الحوادث فجراً
فهو كالمازني علماً وكالأحـ
نف حلماً وكالفـرز دق شعراً

قال: وكان فرخشاه مضافاً إلى شجاعته كونه عالماً متفنناً، كثير
الأدب، مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله:

أنـ في أسـر السقـام
من هـوى هـذا الغـلام
رشأت رشق عينا
هـ فـؤادي بسـهـام
كلما أرشفتني فـ
هـ على حـر الأوام
ذقت منه الشهد في الثـ
ج المصفى في المدام

قلت: ونبغ ابنه الأجد أيضاً شاعراً، وكان السلطان كثير الإعتماد على
فرخشاه، وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إليه: « وصل كتابه
يتضمن خروج الفرنج ومادبره من الأحوال وأعدده من مكائد القتال، ،
ولسنا نستبعد أن يدني الله به كل بعيد من المراد، وأن يقلل بتدبيره تقلب
الذين كفروا في البلاد، وأن يجري على يده أول النحل الذي توعد به آخر
صاد ، وأن يصب به على المشركين (سوط عذاب إن ربك
لبارصاد) (١٤).

وقال العماد: كان عز الدين فرخشاه من أهل الفضل والتفضيل على
أهله، يغنى الكرام عن الابتذال بكرم بدله، ومن أخص خواصه، وذوي

اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندي،
أوحد عصره، وشعاع شمس، وحبيب نفسه^(١٥)، ولي في هذا الملك
قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها في أول سنة صبحت فيها
السلطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاج الدين أبو
اليمن بكلمة بديعة في وزنها وروياها، وحسن رباها، فأما كلمتي فهي:

بين أمر حلاوة العيش الشهي
وهوى أحال غضارة الزمن البهي
وصبابة لا استقل بشرحها
عن حصرها حصر البليغ المدره
أحبتني إن غبت عنكم فالهوى
دان لقلب بالغرام موله
أنهي إليكم إن صبري متساء
بل متته والشوق ليس بمتته
أما عقود مدامعي فقد وهت
وأبت عقود الود مني أن ته
ولقد ذهبت بينكم فاشتقتكم
يامن لمشتاق بينكم دهني
في شوقكم أبدى الزمان تفكري
وبذكركم عند الكرام تفكهي
لو قيل لي ماتتشي من هذه الـ
سدنيا لقلت سواكم لأشتهي
ما كان أرفه عيشتي وألذها
من ذا الذي يبقى بعيش أرفه
ومن السفاهة أنني فارتكتكم
من أين ذو الحلم الذي لم يسفه

ومنها:

وعقاب إيلة ما يفارق جلقا
أحد إليهما غير غرابله

مالي ومصر والمطامع إننا
ملكيت قيادي حيث لم أتنز

لا تنهني يا عاذلي فأنالذي
تبمع الهوى وأتسى بما عنده نهي
قد قلت للحادي وقد ناديت
في مهمه اقصر وصلت منه
حتام جذبك للزمم فأرخه
فلقد أنخت إلى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لا متكره
شنان بين تكرم وتكره
إحسان ذي مجد وهمة ماجد
مجد وتقوى عابد متأل

وهي ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها:

هل أنت راحم عبدة وتوليه
ومجير صعب عند ما أمنه دهلي
هيهات يرحم قاتل مقتوليه
وسنانه في القلب غير منهنه
من بل من داء الغرام فإنني
مدحل بي مرض الهوى لم أنقه
إني بليت بحب أغيد ساحر
بلحظه رخص البنان بدهره
أبغني شفاء تدلني من دله
ومتى يسرق مدلل لمدله
يا مفردا بالحسن إنك متته
فيه كما أناني الصبابة متته
قد لام فيك معاشر فانتهي
باللوم عن حب الحياة وأنت هي

أبكي لديه فإن أحسن بلوعة
وتشهو ق أو ما يطرف مقهقه
أنامن محاسنه وحالي عنده
حيران بين تفكه وتفكه
ضبدان قد جمعا بلفظ واحد
لي في هـ واه بمعنيين مـ ووجه

قلت: يقال تفككت بالشيء أي تمتعت به، وتفككت تعجبت، ويقال:
أيضا تفككت تندمت، ومنه قوله تعالى (فطلتم تفكهون) (١٦) فهو في تفكه
أي تمتع بالمحاسن، وفي تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال:
أناعبد من شهد الزمان بعجزه
عن أن يجيء له بنو مشبه
عبد لعز الدين ذي الشرف الذي
ذل الملوك لعز عبد فرخشه
طابت موارده فخص فناؤه
وشدا الحداة بذكره في المهمه
يفديك كل مملك متايه
أبداب السنة الرعاع عمده
لا يفقه النحوي إذا حدثته
وإذا أتى بحديثه لم يفقه

قلت: وذكر العماد في ديوانه أبياتا حسنة في مدح الشيخ تاج الدين
أبي اليمن رحمه الله قال:
تذاكر من ورا د مصر عصابة
حديث فتى طاب الندي بذكره
وقالوا رأينا فاضلا ذابهاة
أديبا يفوق الفاضلين بفخره
يدين حبيب والوليد لنظمه
ويحمده عبد الحميد لنشره

- ٨٣٧٣ -

ولو عاش قس في زمان بيانه
لكان مشيدا في البيان بشكره
فضائله كالشمس نورا ولم تزل
مناقبه في الدهر أعداد زهره
بيان هو السحر الحلال وإننا
نرى معجزا من فضله حل سحره
ذو الفضل هم عند الحقيقة أبحر
ولكنهم اضحوا جداول بحره
يضيع مهيب الجمد من عرف عرفه
وتأرج أرجا الأرجا بنشره
فقلت لهم هذا الذي تصفونه
أبو اليمن تاج الدين أوحد عصره

قلت: وبلغني أن أول معرفة فرخشاہ أنه كان في مجلس القاضي
الفاضل بالقاهرة، فجاء فرخشاہ إلى الفاضل فجرى ذكر بيت من شعر
أبي الطيب المتنبي، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به، فأعجب فرخشاہ،
وسأل القاضي عنه، فقال: هذا فلان وعرفه بفضله، فلما قام فرخشاہ من
مجلس الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج وخرج به ولزمه إلى أن توفي رحمه
الله اجمعين.

فصل

في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز

قال العماد: وفي شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول المتوجه إلى بحر القلزم، والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ، لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز، وذلك أن الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ما توألى عليه من نكاية اصحابنا المقيمين بقلعة ايلة، وهي في وسط البحر لاسيلا عليها لأهل الكفر، أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله، فبنى سفنا ونقل اخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال، وآلات القتال، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة لمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقيون في مراكب نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار، وشرعوا في القتل والنهب والأسار، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز، فعظم البلاء، وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر، ووصل الخبر إلى مصر، وبها العادل أخو السلطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر في بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، وسار إلى إيلة فظفر بالمركب الفرنجي عندها فحرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدى إلى عيذاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودل على مراكب العدو فتبعها، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التجار، ورد عليهم ما أخذهم، ثم صعد إلى البر فوجد أعرابا قد نزلوا منه شعابا، فركب خيلهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضارين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، فأسرهم بأسرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى منى، كما يساق الهدى، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم، وقطع أسبابهم، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف، ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف.

قلت: و لأبي الحسن ابن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة
أشعار منها:

مريوم من الزمان عجيب
كأديدي في فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى
قمرنتهم من طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال
وعلى وج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدي
هكذا هكذا يكون الوجهاد
جبال لؤلؤ يصيد الأعادي
وسواه من السلاكي يصاد

ومنها:

قلت وقد سافرت يا من غدا
جهاده يعضد من حجه
إذ قيل سار الحاجب المرتجى
في البحر يارب السماء نجيه
البحر لا يعدو على لؤلؤ
لأنه يكون من لجه

ومنها:

يا حاجب المجد الذي ماله
ليس عليه في الندي حجه
ومن دعوه لؤلؤا عند ما
صحت من البحر له نسبه
لله تعمل من صالح
فيه وما تظهر من حسبه

كفيت أهل الحرمين العدا
وذدت عن أحمد والكعبة

وله:

لئن كنت من ذا البحر لؤلؤ العلى
نتجت فإن الجود فيك وفيه
وإن لم تكن منه لأجل مذاقه
فإنك من بحر السباح أخيه

وله:

إنما أنت لؤلؤ للمعالي
جاء من أبحر السباح العذاب

وكتب السلطان إلى العادل من كلام الفاضل: « وصل كتابه المؤرخ
بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار المتبسم عن المتبسم
من الآثار، وهي نعمة تضمنت نعمًا، ونصرة جعلت الحرم حرما، وكفاية
ماكان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها، وعجبية من
عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها، وماكان الحاجب
لؤلؤ فيها إلا سهما أصاب، وحمد مسبده، وسيفا قطع وشكر مجردة،
ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ماأثرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده،
ونجح اجتهاده، وركب السيلين برا وبحرا، وامتطى السابقين مركبا
وظهرا، وخطا فأوسع الخطوة، وغزا بأجر الغزو، وحبذا العنان الذي في
هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكرة أنفق، وهؤلاء الأسارى
فقد ظهروا على عبوة الاسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبله وتطوفوها،
ولو جرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار إلى الله، والخلق،
وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من
أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على
عورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل،

وهذا مقام إن روعي فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر، حدث الفتق الذي لا يمكن في كل الاوقات سده ورتقه، ولدغ المؤمن مرتين والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه.

وفي كتاب آخر الى العادل أيضا: «نحن نهني المجلس السامي بظفروه ولم لا يكمله وينصره، ولم لا يعجله ويشكره، وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، ولا حكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا مجهول، فليمض العزم في قتلهم، ليتناهي أمثالهم عن فعلهم، وقد كانت عزيمة ماطرقة الاسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطفية أجراها على يد من رآه من أهلها».

وفي كتاب آخر أيضا الى العادل: «قد تكرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، ولا توردهم بعد ماء البحر الانارا، فاقلهم اذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب».

ومن كتاب آخر إلى بغداد: وسارت المراكب الاسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية، المتعرضة للمراكب الحجازية واليمينية، وكانت مراكب العدو قد أوغلت في البحر، ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركاها في الكفر، فوصلت إلى عيذاب، فلم ينل منها مراد، غير أن ماوجدته في طريقها أو في فرضة عيذاب نالت منه وشعثت، وأفسدت فيه وعنت، وتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحوراء، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأوقعوا بها اشد ايقاع، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والإسراع، ففر فرنجها إلى الساحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها، وكفى المسلمون اشد فساد في

أرضهم، وأقطع قاطع لفرضهم، وانبسطت آمالهم بقبضهم، وعميت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قدما، ولو أحاطوا بها علما، لاشتطت نكايتهم، واشتدت جنيتهم وعز على قدماء ملوك مصر ان يصرعوا هذه الاقران، ويطفئوا هذه النيران، ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا غوالي المهج، ويقتنصوا هذا الطائر من جوه الذي لا يدرك لوجه، ويدركوا هذا العدو الذي لا يدرك الا ان تستنجد عليه ملائكة الله وروحه».

وفي كتاب آخر إلى بغداد: «كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرة، وعمروا مراكب حربية شحنها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز، وأثخنوا وأغلغوا في البلاد واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب، بل أهل القبلية لما أومض إليهم من خلل العواقب، وماظن المسلمون إلا أنها الساعة، وقد نشر مطوي أشراطها، والدنيا وقد طوي منشور بساطها، وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم، ومقام خليله الاكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم صلى الله عليه وسلم، ورجوا أن تشحذ البصائر آية كاية هذا البيت اذ قصده اصحاب الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حسبهم ونعم الوكيل، وكان للفرنج مقصدان: أحدهما قلعة إيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسموا فريقين وملكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياه، ويقاثلهم بنار العطش المشبوب الشباه، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع طريق الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، ويأخذ تجار اليمن، وكارم عدن، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم، ويبيع جزيرة العرب بعظيمة دونها العظام، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين، فأما السائرة إلى قلعة إيلة

فلما انقضت على مرابطي الماء انقضا ض الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء، فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها، إلا من تعلق بهضة وماكاد، وأدخل في شعب وماعاد، فإن العربان اقتصوا آثارهم، والتزموا احضارهم، فلم ينج منهم إلا من ينهي عن المعادة، ومن قد علم ان أمر الساعة واحدة، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتهدت في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء، فأخذت تجارا، وأخافت رفاقا، ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب، وسلخوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب اصحابنا وراءهم خيل العرب، يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا، ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا، نهارا وليلا، حتى لم يتركوا عنهم خبرا، ولم يبقوا لهم اثر (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا)^(١٧) وقيد منهم مائة وسبعون اسيرا».

ومن كتاب آخر: «ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا، غانما غالبا، بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخرا ب ماوجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ماظفر به في طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل اخشابا منجورة إلى عكا، ومعها نجارون ليينوا منها شواني فأسر النجارون، ومن معهم وهم نيف وسبعون، وأما الانخساب فقد انتفع بها المجاهدون، وكفي شرها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت اقصى إفريقيا فتوحه وعاد به شخص الدين في تلك البلاد روحه».

في باقي حوادث هذه السنة .

قال العماد: وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وسبعين أنعم السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جارية في عمل الموصل، فلما تسلمها جعلها من نصيبه، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين، عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم سلمها إليه دون أعمالها، تحلة ليمينه ووفاء بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام، ثم وهب له قلعة الجديدة، وهي قرية من نصيبين، ووعده بفتح آمد له فوفى بوعده كما سيأتي.

قال: وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهر الدين سكمان، وهو خال صاحب ماردين بن ايلغازي بن ألبي بن تمر تاش، وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي، فأنفذ شاه ارمن يشفع إلى السلطان في الموصل وسنجار، وأرسل إليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين، وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان، ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حران في خمس ليال، فسار إليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خلاطه باختلاطه، ورجع الموصل إلى موصله لمواصله احتياطه، واعتصم الماردي بحصنة المارد، وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها ونحن على طريقه،

فأذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم الى الموصل، فعبر الفرات عند عانة، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النساء، وقد جاؤوا وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرزم، وفيها قصر لصاحب ماردین كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السلطان

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة، نزل قراقوش، على بلد زالت (١٨) وقاتله الى ان انهزم منها أهله، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشتاء فأصبح يوما فإذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل، فقام وافتقد أصحابه فلم يجد الا جماعة من البوابين والركابدارية، وباقي الناس سكارى، ورأى احد البوقية فأمره ان يضرب بالبوق، وفتح الباب وخرج فظن العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهمزوا.

قال: ثم انه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان وسأله ان ينفذ اليه قوما يقرر معهم أمر التسليم، فأنفذ اليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد وأنزلهم في دار أخلاها وأمر لهم بجميع ما يحتاجون اليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخاد وتصافعوا بها حتى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه، فخبرت الرقباء عبد المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ما كان منهم وقال: اذا كان هؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم، وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من الغد اليهم الى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته: لم أحضرت هؤلاء السادة مخاد مقطعة؟ فقال: ما أحضرت لهم إلا مخاد جددا، ولكن القوم أكلوا طعام الصوفية الذي لانعرفه في بلادنا، فاستحى القوم وعلموا انهم قد فطنوا بحالهم، ونزل رجل الى الصهريج فرأى العذرة على وجه الماء، فقال من فعل؟ فلم يرد واحد منهم جوابا، فقال ابن مطروح: يا قوم ما أدخلناكم إلينا الا عازمين على تسليم البلد

إليكم وأن نكون لكم رعايا، وقد شاهدنا منكم أفعالا مانرضاهما، فإن قلتم ان هذه الفعلة من غلماننا وعبيدنا، فما اقبح هذه الأحدثة عن خيار اصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خير منكم فلم بعثكم إلينا، هذا طعن في عقله، ثم أمر باخراجهم من المدينة، فلما صاروا إلى قراقوش وعلم القصة عظم عليه الأمر وأراد الفتك بهم، وعلم انهم قد فتقوا عليه فتقا لا يمكنه رقه أبدا، وتيقن انه لا يملك البلد أبدا، وانفذ عبد المجيد إلى قراقوش: إنك لست بقادر على أخذ هذا البلد لأجل مانفر به اصحابك قلوب أهله، فإن رأيت ان نجعل لك جعالة نحملها إليك في كل سنة وترحل عنا قطعنا، فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم بعد أن احتوى عليهم، قال: وتوافت إليه الفرسان من مصر حتى سار في ثمانمائة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الروم وغيره من المواضع والقلاع فهجم ونهب، وغنم وغلب، وخافه أهل تلك النواحي .

- ٨٣٨٣ -

فصل

في فتح آمد

قال العماد: ثم سار السلطان الى آمد، ونزل عليها يوم الأربعاء سابع
عشر ذي الحجة بعد ان استأذن الخليفة في ذلك، فأذن له فنصب
السلطان عليها المجانيق وضايقهم، وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة
الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت

سنة تسع وسبعين

قال ابن أبي طي: والسلطان منازل لآمد، واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد، ووعد وايعاد، وان داموا على القتال ليستأصلن شأفتهم، وإن اعتزلوا وسلموا البلد ليحسنن إليهم وليضعن ماعليهم من الكلف والضرائب، وأمر ان تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد، فرمى من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال، وأشاروا على ابن نيسان بطلب الأمان، فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح، وأمهل ثلاثة أيام، فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، وجعل ينقل مايقدر على نقله من المال والقماش، وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة ايام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاثمائة انسان، ولم ينقل عشر ماكان له، وسرق من أمواله أكثر مما حصل له، لأنه ماأخرج أحد شيئاً إلا وأخذ نصفه أو أكثر، وكان ابن نيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لايمكن وصفها من الأسلحة والأموال والغلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ماحصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والعزادات أشياء كثيرة لايمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مائة ألف شمعة، وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جماسة، ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لاحاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما

تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا ارسلان بما فيها، وكتب له بها
وباعها لها توقيعا، ووفى له بها وعده به، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد
وما وعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الأموال والذخائر،
ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لأضن عليه بما فيها من الأموال
فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

قال: وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي من قصيدة في السلطان:

رمى آمد بالصافنات فأذعنت
له طاعة أكامها ووعورها
فما عز ناديا ولا اعتصا ثغرها
ولا جاش طاميهما ولا ردسورها
وأنزلت بالكره ابن نيسان مخرجا
كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى إذا انقاد صعبها
وقر على طول الشاس نفورها
سمحت بها جود المن ظل برهة
يغاورها طورا ووطورا يغيرها
وملكت ما ملكت منها تخولا
لأجدر أن يرجو ندادك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبي يذكر فتح آمد:

فيا ساكني الرعناء من سفح آمد
أرى عارضاً ينهل بالموت ها طله
لئن غضبت يوماً عليكم عروشها
فهذا ابن أيوب وهذي معاقله
ولورامها يوماً سواه لقطعت
أباهره من دونها وأباجلة

قلت وقال آخر:

لو عرفت أمد من جاءها
يخطب في الاسلام تسليمها
لصبرت أعلى شراريفها
لمن على الأرض ملاليمها

قال العماد: وأما أمد فحصل فتحها يوم الأحد في العشر الأول من المحرم، وكان مدبر أمد ابن نيسان، فهو رئيسها والقائم بأمرها، وكان لأمد أمير قديم يقال له، ايكليدي من أيام السلاطين القدماء، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعي أنه من غلماناه ومصطنعيه، وأنه يحفظ البلد له، وأنه لا يغدر به ولا يؤثر بدله، وإذا جاء رسول يحضره عند أميره ويسند ما يدبره إلى تدبيره، ويقول انه غلام، ومأمعه كلام، وحافظ على سر هذه السريرة، وأمن باحتياطه من جور الجيرة، بل مامنهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكره، وينكر عرفه، ويعرف نكره، ولم يزل الحصار عليهم إلى أن أذعنوا للانقياد، وخرجت نساؤهم سحرًا إلى المخيم الفاضلي يطلبن الأمان، فأمنهم السلطان، على أنهم يخرجون بعد ثلاث، ويحملون ماقدروا عليه من المال والاثاث، وأعانهم السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال، فلما انقضت مدة الأمان، تسلمها السلطان، وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان، بأعمالها ومافيها، وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها، ثم وصف العماد ما كان في قلعة أمد من الذخائر والأموال، والخواصل والأمتعة وأن أصحابها لم يقدرُوا في تلك الأيام الثلاثة إلا على تحويل ما خف منها واستغنى المساعدون لهم في تحويلها اليهم.

وكتب الفاضل عن السلطان إلى الديوان ببغداد: «ورد إلى الخادم التقليد الشريف بولاية أمد، فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا مفتاحها،

وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد، وقال: هذا مصباحها، وتناولها فما ظن الا كتابا انزل عليه من السماء في قرطاس، وماتيقنه الا نورا يمشي به في الناس، فسار به، ولولا العادة ما استصحب جنديا وعول عليه، ولولا الرتبة لما تقلد هندية، وطرق بابا باقليده، ولولا ما استطاع للأولياء ان يظهره، وما استطاعوا نقبا، وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل، فلو كان ذا سمع اصغى، ولو كان ذا لب لبى، فلما انقضت ضيافة أيام النذارة، واحتقر من بآمد نار الحرب جاهلا ان «وقودها الناس الحجارة»، عمد لها في اليوم الرابع فزلزل عمدها، وقاتلها فأنزل جلدتها، وزيل جلمدها، ثم رأى أن الشوكة ربما اصابته غير ذات الشوكة من جندها، وإن المسلم قد أمن عذاب الحريق ولا يأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زندها، فعدل الى منجنيقه أمل صاحبها منه منجانيقه، ورأى ان سوط سطوته يضرب الحجر، ويضرب عن أن يياشر البشر، وتلك الأبرجة قد شمخت بأنفها، ونأت بعطفها، وتاهت على وامقها، وغضت عين رامقها، فهي في عقاب لوح الجو كالطائر الا ان المنجنيق أغرى بها عقابيه، وضغمها بمخيليه، وخصم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحجر فتنبجس من النقوب اعين لا ترسل الماء، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظمأى كذلك أياما حتى محي من الشرفات شنب ثغرها، وتناولها كأس فتك تين بهز أبراجها آثار شكرها، وعلت الأيدي الرامية لها، وغلت الأيدي المحامية عنها، فلم يبق على سورها من يفتح جفنا، وشن المنجنيق عليها غارته الى ان صارت شنا، وفضت صناديق الحجارة المقفلة، وفصلت منها اعضاء السور المتصلة، ووجب القتال لئلا يظن بالخدام ان لاجند به الا جندله، فأوعزنا التقدم اليها ودخول النقاين فيها، فأثخنت جراحا بالنقوب، وهتك الحجاب من أضالع البلد، فكاد يتصل الى ماوراءها من القلوب، وخشيت معرة الجيش في وقت هجمه، وروسل صاحبها بأنه كشف له الخذلان حتى نصر على شكه بعلمه،

فأعاد الرسول مستنكفاً تحجب النجاة بأرسال ذوات الحجاب وابرأهن، ومستكفاً ليد القتل بمن لم يكن جوابه غير احرازه واحرازهن، ولم يعارض في نفسه ولا في قومه ولا في أمواله، وهي ماهي ذخائر موفرة، ومكاسب من أرباح مخسرة، كانت الحقوق عنها مذودة والآمال دونها مطرودة، وغض الخادم كل عين عن عينه وورقه، وصانه في مخيمه من الفقر صيانتة في ذات سوره وخندقه، واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه، وهذه آمد فهي مدينة ذكرها بين العالم متعالم، وطالما صبادم جانبها من تقادم فرجع مجذوعاً أنفه وإن كان فحلاً، وقرعها فريد المهمة، واستصحب جفلاً، ورأى حجرها فقدر انه لا يفك له حجر، وسوادها فحسب انه لا ينسخه فجر، وحمية أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لزجر من ملوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها، ووقف بها وقوف المحب المسائل فلم يفز بها أمل من جواب معهداها.

ثم ذكر تسليمها إلى ابن قرا أ رسلان ثم قال: « ولما رأى صاحب ميافارقين أن اخت صاحبتة قد ابنتي بها خاف ان نجم له بين الأختين، فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين».

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم، على قصد الخادم، ونزلوا تحت الجبل، فلما صح عندهم قصده ظنوا أنه واقع بهم، فأخذوا عنه الفرار بقوة، وذكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعنده مرجوة، وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعل صديق، والخادم يقول مهما ارادت فيه الآراء الشريفة أتاه، ومهما نوت فيه من إحسان قرب عليه مانواه، فهذه آمد لما أرسل اليه مفتاحها، وهو التقليد فتحها، وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح منعها وما منحها، ولو أعين به لعظمت على الاسلام عائدته، وظهرت في رفع مناره فائدته لأن اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهمة لألات النصر واجدة، فإن رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليائه، وينظر

أيهم أبر بأوليائه، واشد على اعدائه وأقوم بحقه وحق آبائه وأيهم أترك للفراش الممهد، وأهتك للطريق الممدد، وأهجر في سبيل الله لراحة، وأصبر في جهاد عدو الله على مضض جراحة، وأسلى عن ريجانة فؤاد، وأكثر ممارسة لحية واد، فيختار لهذه الأمة التي جعله الله لها إماما وأما ما أسعد من أجرى في طاعته ضامرا، وملأ بولايته ضميرا فمن عدله أن يولي عليها العدل الذي يقر عينها، ومن فضله أن لا ينسى الفضل بينها، وقد ورد ذلك المنشور بآمد فأورد الميسور، فإن ورد المنشور المشار اليه بالجزيرة وماوسعت فإنه نور على نور، وما يحسب الخادم ان كيدا للعدو الكافر أكيد، ولا جهدا لأهل الضلال أجهد، ولا عائدة بغيظ رؤساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، والا فليُنظر هل يشق على الكفار مزيد احد سواء من ولاية الاسلام، فكل ذي سلطان هو الطاعم الكاسي المحمي بالمناضل لا الحامي، المكفي لا الكافي يقضي عمره وهو لا يشهد الطعن الا في الميدان، ولا يمثل الهام طائرا لولا الكرة في الصولجان، ولا يشقى بسهمه الا قرطاسه، ولا يحظى برفده الا اكياسه، فأعاد الله بأمر المؤمنين هذا الدين الى معالم حقه الأولى، وأطال يد سلطانه الطولى، الى أن تأخذ الأمور مأخذها عدلا واعتدالا وسلمًا وقتالا، فيعود إلى الاسلام عوايد ارتياحه، وأيام منصوره وسفاحه».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان الى وزير بغداد: «اصدر هذه الوسيلة الى المجلس السامي معولا على كرمه فيها حملته من اللبانة، مستغنيا بشهرة الحال المتجددة عن الإبانة، فإن آمد قصر الأمد في الظفر بها، وأنقاذا من المظالم التي كانت تلبس نهارها بقبة غيبها، وسار اليها ببقية العساكر بعد الذين ساروا إلى الشام، وأقاموا قبالة الكفار، بعدة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الديار المصرية على بعد تلك الديار، ليظهر لمن نوى المناوأة، ويتبين لمن كان على منافاة الملاقاة، أن رجلا من مصر فتحوا آمد بعد سنة من البيكار، وبعد غزوتين قد طولع بهما في توار يخهما إلى الكفار، ففي ذلك ما يغص الحاسد، ويغض الحاقد، ويعلم

أن في أولياء الدولة مارد كل مارد، فلما حل بعقوبتها أراد أن يجري الأمر على صوابه، ويلج الأمر من بابه، وأن ينذر المغتر ويوقظه، ويعظه بالقول الذي رأى من الرفق أن لا يغلظه، فبعث إليه أن يهب من كراه، ويعد لضيف التقليد قراه، وينجو بنفسه منجأ الذئاب، ولا يتعرض بأن يكون منتجاً للذئاب فإذا عريكته لاتلين إلا بالعراك، وطريدته لاتصاها إلا بالاشراك، فهناك رأى عاجلاً ما هناك، وقوتل حق القتال في يوم واحد عرف ما بعده من الأيام، ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام، ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطره وفطر السور بقدرة الذي فطره، وخطب امامها خطيب خطبه، وأغمد الصارم اكتفا بضربه، وترفه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبه، فصار في أقرب الاوقات جبلها كثيباً مهيلاً، وعفرت الأبرجة وجها تراباً، ونظرت القلعة نظراً كليلاً حتى إذا أمكنت النقب ان تؤخذ، وكبد السور ان تفلد، رأى الذي لا يصبر على بعضه، واعتذر اليه البناء الذي بناه إن لم يقضه، فلا بد من نقضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نفسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظلم، وسلم وهو يرى السلامة إما من الحلم وإما من الحكم.

ثم قال: «ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذي قرعه، ولا أنزل عليه النصر الذي أنزل معه، ولا ساعد سيفاً ساعد، ولا نالت يد مدت من مصر فأخذت آمد، ومن بآمد، ولو قبلت مسألته في تقليد الموصل لكان قد ولجها، ولو بدلجة أدلجها، ولو بحصاة نبذها، وهو يتوقع في جواب هذا الفتح ان يمد بجيش هو الكلام، ورماح هي الاقلام، ونصر هو وافد الامر، وترشيد هو فك الحجر، وليس ذلك لوسائل من دولة اقامها بعد ميل عروشها، ولا الدعوة قام فيها بما تصاغرته دونه جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة، وهي دار الفرقة، ومدار الشقة، ولو انتظمت في السلك، لانتظم جميع عسكر الاسلام في دار الشرك، وكان الكفر يلقي بيديه، وينقلب على عقبيه، ويغشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه، ويغزى

من مصر برا وبحرا، ومن الشام سرا وجهرا، ومن الجزيرة مدا وجزرا، ويكون خادمه قد وجب أن يتمثل بقوله تعالى (ولقد مننا عليك مرة أخرى) (١٩).

ومن كتاب آخر: « كتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها، وعذقت بدولتنا اسبابها، وتكلم لسان عملنا في فم قلعتها، وبعد ان لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها، فالحمد لله الذي تتم النعم بحمده، وينجح الأمل بقصده، مايفتح الله للناس من رحمه فلا ممسك لها، ومايمسك فلا مرسل له من بعده».

قال العماد: ثم دخل السلطان مدينة آمد وجلس في دار الإمارة، وحلف نور الدين بن قرا أرسلان على أنه يظهر بها العدل، ويقمع الجور، ويكون سامعا مطيعا للسلطان من معاداة الأعداء، ومصافاة الخلان، في كل وقت وزمان، وأنه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان وإليه عطشان.

قال: وكان هذا نور الدين في خدمة السلطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفرات، ثم ان رسل ملوك الاطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الأمان، وان يتخذه من جملة الأعوان منهم: صاحب ماردين، وصاحب ميافارقين، وهما قريبا ابن قرا أرسلان فرد السلطان كل رسول بسوله، وأجاب إقباله بقبوله، ثم رحل السلطان من آمد وعبر الفرات لقصد حلب، وولايتها فتسلم في طريقه تل خالد بالرعب، ولم تكن منهم بالقرب، فأقر أهلها فيها ثم نزل على عين تاب، فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين إلى خدمة السلطان، فأعاده إلى مكانه بالاحسان.

وقال ابن أبي طي: تسلم السلطان تل خالد في رابع عشر المحرم،

وسلمها الى بدر الدين دلدريم، ومن كتاب فاضلي: «نزلنا تل خالد يوم
الثلاثاء ثاني عشر المحرم، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها، وأناخ
عليها، وقابلها وقاتلها وعالجها، ولو شاء لعاجلها، ولما أطلت عليها
راياتنا القى من فيها بيده، وانجز النصر صادق مواعده، وأرسلتها حلب
مقدمة لفتحها، وقد أنعم الله علينا بنعم لانحصيها تعدادا ولانستقصيها
اعتدادا، ولانستوعبها، ولو كان النهار طرسا والبحر مدادا، ورايتنا
المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنا قد صارت
مفاتيح الامصار تفتحها بنصر الله، لابعدها ولا يقطعها .

قلت: وما أحسن ما قال التلعفري من قصيدة له في السلطان:
قل للملوك تنحروا عن ممالككم
فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها

فصل

في فتح حلب

قال القاضي ابن شداد: لما عاد السلطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها، وقاتلها وأخذها في ثاني عشر المحرم سنة تسع وسبعين، ثم سار الى حلب فنزل عليها في سادس عشري المحرم، وكان اول نزوله بالميدان الأخضر، وسير المقاتلة يقاتلون ويياسطون عسكر حلب ببايقوسا وباب الجنان غدوة وعشية، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك، وكان عماد الدين زنكي قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز في تاسع جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فإنه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها، وجرت غارات من الفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر.

قال: ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير، وقاتلها قتالا شديدا، وتحقق عماد الدين زنكي انه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه وجبههم اياه، فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة، ولم يشعر احد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر، ثم اعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بلک، فبقوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر، وعلى أهل البلد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الأخضر، ومقدموا حلب، وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي اشغاله، وينقل اقمشته وخزائنه الى يوم الخميس ثالث عشري صفر، وفيه توفي تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذي كان أصابه وشق عليه أمر موته، وجلس للعزاء.

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي أن مولده سنة ست وخمسين في ذي الحجة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا، وانشد له شعرا، وقال العماد الكاتب في كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة^(٢٠) وله نظم لطيف، وفهم شريف، ثم قال القاضي أبو المحاسن، وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الأخضر، وتقررت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقدم له تقدمه سنية وخيلا جميلة، وخلع على جماعة من أصحابه، وسار عماد الدين من يومه إلى قراحصار سائرا إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين غير مكترث بأمر حلب ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشرين صفر، ثم صعد في ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منصورا، وعمل له حسام الدين طمان دعوه سنية، وكان قد تخلف لأخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره.

وقال العماد: وصل السلطان إلى حلب، وفيها عماد الدين زنكي بن مودود الذي كان صاحب سنجار، وقد تحصن بكثرة الأجناد والعدد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السلطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال، وعداوة الرجال، ولكن الشباب، وجهال الأصحاب راموا القتال، واحبوا النزال وتقدموا واقدموا والسلطان ينهزم فلا ينتهون، وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان قطعن في فخذه، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد، وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الدين زنكي، وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل في صدر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الربيع، ثم رحل ونزل على جبل جوشن، ونهى عن القتال وقال: نحن هاهنا نستغل البلاد،

وما علينا من الحصن الذي بلغ هذا العناد، وأنفذ رسل التهيب ففكر عماد الدين زنكي في أمره، ورأى أن الصواب مصالحة السلطان، فأنفذ سرا إليه حسام الدين طمان، وصالحه وحلفه على أن يسلم إليه حلب

ويرد عليه بلده سنجار، ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقعة وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة ومن كتب فاضلية: «تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها، وبلغت بها الهمم أوطارها، وعوض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره، ومختلط بالجملة، فهو واحد الأولياء في مغيبه ومحضره، وعوض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج، فهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار، وإعطينا الدراهم، ونزلنا عن المبيحات وأحرزنا العواصم، وسرنا أنها انجلت والكافر المحارب، والمسلم هو المسلم، واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغزو والمصابرة، فانتظم الشمل الذي كان نثيراً، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وزال الشغب، وأخذ اللهب، واتصل السبب، وأخذت للغزاة الأهب ووصلت إلى غاية همة الطلب، والألفة واقعة، والمصلحة جامعة، واشعة أنوار الاتفاق شائعة».

ومنها: «فتحنا مدينة حلب بسلم ماكشفت بحرمتها قناعاً، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت ان تسلم بعدها بمشيئة الله قلاعاً، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفرة، فهي بيدنا بالحقيقة لأن مرادنا من البلاد رجالها، لأموالها، وشوكتها لازهرتها ومناظرتها للعدو لانضرتها، وان يعظم في العدو الكافر نكايتها، لأن تعذق بالولي المسلم ولايتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ما كانوا يؤملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على ان تكون العساكر مجتمعة، على الاعداء مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده مالا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العدة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلداً الا إلينا عاد عسكره، وانما استتبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى

عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (٢١).

ومنها: «نشعر الامير بما من الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسلم قلعتها التي هي أحد مارست به الارض من الأوتاد، فله الحمد وأين يقع الحمد من هذه المنة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة، وصدرت هذه البشرى والموارد قد أمضت الى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديتها وحاضرها، وقلعتها قد اناف لواؤنا على انفها، وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه امس برشفها، ورأينا ان نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وان نوسع المجال فيما نضيق به تقلب الذين كفروا في البلاد».

قلت: ولأبي الحسن بن الساعاتي في مدح السلطان عند ارادة فتح حلب قصيدة منها:
مأبعد لقياك للعافين من أمل
ملك الملوك وهذي دولة الدول
فانهض إلى حلب في كل سابقة
سروجها قلل تغني عن القل
مافتحها غير إقليد المالك والـ
مداعي إليه جميع الخلق والملل
وما عصت منعة لكنه غضب
علام أهملتها إهمال مبتذل
غارت وحقك من جاراتها فشكت
مأباله بافتضاضي غير محتفل

وللقاضي السعيد بن سناء الملك من قصيدة:
بدولة الترك عزت دولة العرب
وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب

إن العواصم كانت أي عاصمة
لنفسها بتعاليتها عن الرتب
جليسة النجوم في أعلى مراتبه
وطالما غاب عنها وهي لم تغيب
ومانعته كمعشوق تمنعه
أحلى من الشهيد وأشهى من الضرب
فمر عنها بلا غيظ ولا حنق
وسار عنها بلا حق ولا غضب
تطوي البلاد وأهلها ككتابة
طيا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها
بمالك فطن أو سائس درب
مالك لم يدبرها مدبرها
الابرأ أي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت
من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة
فهو الذي يهب الدنيا ولم يهب
ومذرات صده عن زبعتها حلب
ووصله لبلاذغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر
منها إليه وأبدت وجهه مكتتب
واستعطفته فوافتها عواطفه
وأكتب الصلح إذ نادته عن كتب
وحل منها بأفق غير منخفض
للصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بلامين وصاحبه
ملك الملوك ومولاه بلا كذب

قال أبـن أبي طي: وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح
حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي له من قصيدة:
يا ابن أيوب لا برحت مدى الـ
سـد هـر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مراكـ وهـي
ولـه الصـب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة:
دونك والحسناء أم القرى
ونارها الأشهب والطود الأشم
واركب إلى العلياء كل صعب
أبيت لعنا وخالاك كل ذم
وارم فكل الصيد في جوف القرى
لا صارم السهم ولا نابي الحكم
مد إلى أخت السها (٢٢) زورة
لا فرق يعقبها ولا ندم
فيها لها شماء مشمخـرة
تطـارح البرق وساحات الـديم
إيه صلاح الدين شد أزرها
واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قبـاها
وبـاها المغلق في وجه الأمم

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سنجق السلطان
الأصفر على سور قلعة حلب، وضربت له البشائر، وفي ذلك الوقت
تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا إلى المخيم، وأخذ في إخراج
ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث، وكان استناب الأمير حسام
الدين طمان في القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور
إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته في أمر عماد الدين، وكان

السلطان شرط انه ما يريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في أخذ جميع ما في القلعة، وما يمكنه حمله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئا، وباع في السوق كل ما لم يتمكن من حمله، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل ما يحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمي حلب.

قال: وبينما السلطان على لذته بالدعوة والأخذ والإعطاء والانعام والحبا إذ حضر إليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوك بسبب الضربة التي أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك، ولا اضطرب ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح، وبذل الاحسان، وأمر بستر ذلك وتوعد عليه، إن ظهر، وكظم حزنه وأخفى رزيقه، وصبر على مصيبتيه، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، وفي ذلك الوقت انقضت الدعوة، وتفرق الناس، فحيث قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه، ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة، مليح الرمي بالقوس والطعن بالرمح، وكان شجاعا باسلا مقداما على الأهوال وكان قد جمع إلى ذلك الكرم والتفنن في الأدب وله ديوان شعر حسن متوسط فمناه:

يا هذه وأمانى النفس قربكم
يا ليتها بلغت منكم أمانىها
إن كانت العين مذفارتكم نظرت
إلى سواكم فخانتها أمانىها

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع، وفرق في وجوه الحلبيين الأموال.

وفي سادس عشري صفر ورد أصحاب عماد الدين، وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار، ونصيبين والخابور، ففي ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهراً، وركب السلطان إلى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال فتسالما، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين، فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وابوه في خدمة السلطان إلى المخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحته، وقدم له مقدمة حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتاي والأطلس والمعتنق والممرس، وغير ذلك وعشرة جلود قندس، وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده، ومائة قباء ومائة كمة وحجرتين عربيتين بأداتهما وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت، ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب، وخرج السلطان معه، وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابل، وودعه وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

قال: في يوم الاثنين سابع عشري صفر ركب السلطان وصعد إلى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من باب الجبل، وسمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء)^(٢٣) الآية، وقال: والله ما سرت بفتح مدينة كسروني بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت، وقال: صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعت يقرأ: (قل اللهم مالك الملك) الآية.

قال: ولما بلغ السلطان إلى باب عماد الدين قرأ (وأورثكم أرضهم

وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطووها^(٢٤) ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين،
ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى
المخيم وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء
بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء، منهم يوسف البزاعي له من
قصيدة:

شرفت بساممي مجدك الشهباء
وتجلت لها بهجة وضياء
ألفت إليك قيادتها وبها على
كل الملوك ترفع وإباء

ومنهم سعيد بن محمد الحريري له من قصيدة تقدم بعضها:
وصبحت شهباء العواصم مصلتا
قواضب عزم لا يفل شهيرها
فأطمتك منها غارباً فيك راغباً
وعاد يسيراني يديك عسيرها
وأوطأت منها أخصيك تنوفة
يعز على الشعرى العبور عبورها
ورد إليها روح عدلك روحها
وكانت رميا لا يرجى نشورها

قال: وقال والدي أبو طي النجار من قصيدة:
حلب شامة الشام وقد زيد
ت جلالاً يوسعها وجمالاً
وهي أس الفخار من نال أعلا
هاتعالى فخامة وتغالا
ومحل العلاء من حل فيها
تساه كبراً وعززة وجمالاً
من حواها مملكا ملك الأر
ض اقتساراً سهولة وجبالاً

فافتزعهم امهنا بمجمل
(٢٥) سمق الأنجم الوضاء وطالا

قال: وحدثني جماعة من الحلبيين منهم الركن بن جهبل العدل، قال: كان الفقيه مجد الدين بن جهبل، الشافعي الحلبي قد وقع اليه تفسير القرآن لأبي الحكم المغربي، فوجد فيه عند قوله تعالى: (الم غلبت الروم) (٢٦) الآية إن أبا الحكم قال: إن الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسائة، ويفتح البيت المقدس ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه، فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وحدث بها في الورقة لمحيي الدين بن زكي الدين القاضي الدمشقي، وكان ابن زكي الدين واثقاً بعقل ابن جهبل، وأنه لا يقدم على القول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته، ثم حين فتح البيت المقدس خرج إليه المجد بن جهبل مهتئاً له بفتحه، وحدثه حديث الورقة، فتعجب السلطان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلك محيي الدين ابن زكي الدين، غير أني أجعل لك حظاً لا يزاحك فيه أحد، ثم جمع له من في العسكر من الفقهاء وأهل الدين، ثم أدخله إلى القدس بعدما خرج الفرنج منه وأمره أن يذكر درسا من الفقه على الصخرة، فدخل وذكر درسا هناك وحظي بهالم يحظ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذكر ما قاله أبو الحكم في تفسيره، وغيره مما يناسبه، وبالله التوفيق.

وقال العماد: ثم فتح حلب في صفر من هذه السنة ، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها:
وفتحكم حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتح روح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره ، قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الاسطول المنصور في أبيات وهي:
يؤمل المملوك مملوكة
تبدل الوحشة بالأنس
تخرجه من لينل وسواسه
بطلعة تشرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت
سواكن البلبال والمس
فلا تدع يهدم شيطانه
ما أحكم التقوى من الأس
فوقع اليوم بمطوبه
مما سبى الاسطول بالأمس
لازلت وهابا لما حازه
سيفك من حور ومن لعس
وإنني آمل من بعدها
كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب ما أملت عام القدس

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مطمعا لهم في الاستيلاء على حارم، بشرط ان يعصموه من الملك الناصر، وعلم الأجناد بقلعة حارم بما عزم عليه فتآمروا بينهم في القبض عليه، وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعد إليها في أموره ولذاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان، وكان السلطان راسل والي حارم وبذل له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة في دمشق يملكه إياها ودار العقريقي التي كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمam العقريقي بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار، فاشتط في السوم وتغالى في العوض، فأنفذ إليه السلطان وتوعده وتهدده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان ويتحصل منه شيئا، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب إليه السلطان بتتميم ذلك ووعده بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب في وجه الوالي، وقيل إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السلطان، ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم ليتسلمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدة، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعين وسلموها إليه في تاسع عشر صفر، ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا، فقال للسلطان يامولانا لا تلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه حتى فوتوه ما كان السلطان وعده به، وما قلت هذه إلا عن تجربة، فإنني لما كنت

متوليا لهذه القلعة جرى علي من كذبهم في حقي وتحزصهم علي أمور كدت بها أهلك مع نور الدين، وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يقرهم في القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم، وولى في القلعة غيرهم، وقال لابن الداية: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفي بما نعد، ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد، وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها، وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمة وقباء وما يحتاج إليه من الطعام وغيره، وجعل معه واليا سيف الدين ازكش الأسدي، وولى حسام الدين تيمرك الخليفة شحنة حلب، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي، ودار الضرب ف ضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدمشقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، وولى الجامع والوقوف أبي علي بن العجمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من ممالك نور الدين، فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلمها، ودبر أمرها وأحكمها.

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم من يتسلمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأحناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم إليه يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر فحلف لهم، وسار من وقته إلى حارم فوصلها تاسع عشرين صفر فتسلمها، وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شرو، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول، ثم أعطى العساكر دستورا، فسار كل منهم إلى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها.

قال العماد: ورجفت أنطاكية بعد ذلك رعباً فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين، وانقاد وسارع إلى أمان السلطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي فاستتاب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي، وكشف السلطان عن حلب المظالم، وأزال المكوس، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج، وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشام، وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرد بن بهاء الدولة بن ياروق، وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر.

قلت: وفي توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان: «وانتهى إلينا أن بمدينة حلب رسوما استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند من كل شيء عنده بمقدار، منها ماهو على الأثواب المجلوبة، ومنها ماهو على الدواب المركوبة، ومنها ماهو في المعاش المطلوبة، وقد رأينا بنعمة الله أن نطلبها، ونضعها ونعطلها، وندهها ونضرب عنها في أيامنا، ونضرب عليها بأقلامنا، ونسلك ماهو أهدي سبيلا، ونقول ماهو أقوم قبلا، ونكره ماكره الله، ونحظر ما حظره الله، ونتأجره سبحانه فإنه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها، ولنا غدا بمشيئة الله ما يرفع من أجرها، فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا أن لا يهواؤا إليها يدا، ولا يردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا، ولا يثقلوا بها ميزان المال، فيخف ميزان الأعمال ولا يرغبوا في كثير الحرام فإن الله يغني عنه بقليل الحلال، وليعلم أن ذلك من الأمر المحكم، والقضاء المبرم، والعزم المتمم».

وفي منشور أهل الرقة بمثل ذلك: «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه،

وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه ما أقرضه، ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا منها على سحت يؤكل، وظلم مما أمر الله به أن يقطع، وأمر الظالمون أن يوصل، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها، ويلقوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسرها، ونعتق بلد الرقة من رقعها، ونثبت أحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحققها، وقد أمرنا بأن تسد هذه الأبواب وتعطل، وتنسخ هذه الأسباب وتبطل، وتستمطر سحائب الخصب بالعدل وتستنزل، ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين، ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، مسامحة ماضية الأحكام، مستمرة الأيام، دائمة الخلود خالدة الدوام، تامة البلاغ بالغة التمام، موصولة على الأحقاب، مسنونة في الأعقاب، ملعونا من يطمع إليها ناظره، وتتناولها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمع لا يوصله إليه غده».

قال العماد: وورد على السلطان وهو نازل على حلب بشارتان أحدهما أن الاسطول المصري غزا في خامس عشر المحرم، ورجع بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً من خيالة وتجار، والثانية أن فرنج الداروم نهضوا فنذر بهم إلى الشرقية، فخرج إليهم فالتقوا على ماء يعرف بالعسيلة، فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يهلكون عطشاً، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا الماء فأرواهم الله بهاء السماء.

قلت: وكتب الفاضل عن السلطان إلى بغداد بهاتين البشارتين وبفتح حلب وحارم كتاباً شافياً أوله: «أدام الله أيام الديوان العزيز ولا زالت منازل مملكته منازل التقديس والتطهير، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجبا للتقديم والتصدير، والأمة مجموعة الشمل بإمامته جمع السلامة لاجمع التكسير، الخادم ينهي أن الذي يفتتحه من البلاد

ويتسلمه إما بسكون التغمذ أو بحركة مافي الأغهاد، إنما يعده طريقا إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار، ويحسبه جناحا يمكنه به المطار إلى ما يلاسه الكفار من الأقطار، وعلى هذه المقدمة فهو يستفتح بذكر ظفرين للإسلام: بري وبحري، شامي ومصري، أحدهما وهو البحري عود أحد الأسطولين اللذين أغزاهما أخو الخادم أبو بكر بمصر، وكانت مدة غيبته من حين خروجه إلى وقت عوده إلى دمياط تسعة أيام، فظفر ببطسة مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذوو شبكة وازعة، وتجار أولو ثروة واسعة، والثاني وهو البري نهوض فرنج الداروم إلى أطراف بعيدة فنذر بهم إلى الشرقية، فركب اليهم الليل فرسا، كما ركبه جملا، وسروا ثقिला، وسروا رملا فوافى الفريقان إلى ما يعرف بالعسيلة، سبق الفرنج إلى مورده والسابق إلى الماء محاصر للمسبوق، ووردوا أزرقه فتعصب أرزقهم فظن المؤمن أن الكافر مرزوق، واشتد بالمسلمين العطش، ثم ثابوا إلى الفرنج بقوة انجاد السماء بالماء فلم ينج من الفرنج إلا رجلان أحدهما الدليل، والثاني الدليل، وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها، بأرواحهم في رؤوس الظبا وقد أطفأوا بها ثمراتها.

ثم قال: « ويثني الخادم بذكر ما امتثله من الأوامر العلية في إغهاد سيف مجرده من استدعى تجرده، ومورده من عرض له وريده » ثم ذكر تسلمه حلب » وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لاغير، وثغور المسلمين لها الرعاية ولاضير، لاختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لامتحاشدة بعتوها ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولاأساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتل في اللقاء إلا العدة، فعوض عماد الدين من بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والركة وسروج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يطوى منشورها، وأجاب

الخادم عماد الدين إلى ماسأل فيه من ان يصالح المواصلة مهما استقاموا
لعماد الدين لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخاء، ولم يطمئن إلى مجاورتهم
إلى أن يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخا، فليلح الآن عذرا لأجنبي إذا
لم يثق، ولتكن هذه نصيحة من عوتب في شكره بحسن الظن فلم يفق،
ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكرهم في غزواته، والخروج من المظالم
فما زاد على ان قال: سالموا مسلما، وحاربوا كافرا، واسكنوا لتكون الرعية
ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا، وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في
سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد
الخادم من البلاد اذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه
لا يقاتل لعيش ألين من عيش، ولا لغضب يملأ العيان من نزق ولا طيش،
ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية
التي هي خير ما يسطر في الصحيفة ويرقم، وكتب الخادم هذه الخدمة
بعد أن بات بحلب ليلة، وخرج منها إلى حارم، وكانت استحضفت
مملوكا لا يملكه دين ولا عقل غرّا ما هذبه نفس ولا أهل، فاعتقد ان
يسلمها إلى صاحب أنطاكية، يسر الله فتحها، اعتقادا صرح بفعله،
وشهره بكتبه ورسله، وواطأ على ذلك نفرا من رجال يعرفون بالشمسية،
لا يعرفون خالقا إلا من عرفوه رازقا، ولا يسجدون إلا لمن يرونه في نهر
النهار سابحا، وفي بحر الظلام غارقا، فشر به من فيها من الأجناد
المسلمين فشردوه ومن تابعه على فعله، وظفر به المملوك عمر بن أخيه في
ضواحي البلد فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها فتسلمها
ورتب بها حامية ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف، بل إنها للعقد
واسطة، والخادم كما طالع بماضيه الذي حازه الأمس المذكور، يطالع
بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهب للخروج
نحو الكفار لاتسأم رايته النصب، ولأجهة سيره الرفع ولا جيشه الجر،
ولا يصغي إلى قول خاطر الراحة المفنند: لاتنفروا في الحر، ولا يجيب دعوة
الفراش الممهّد، ولا يعرج على الظل الممدد، ولأدمية القصر المشيد،

ولا يعطف على ربحانه فؤاد يفارقه حولا ويلقاه يوما، ولا يقيم على زهرة ولد استهل فمتى ذكره الفطر على راحته قال: (إني نذرت للرحمن صوما) (٢٧).

ومن كتاب آخر انفعه من نصيين سنة ثمان وسبعين إلى بغداد: «سبيل الخادم أن يبنّي ولا يهدم، ويوفر جانبه ولا يثلم، وأن يفرق بينه وبين من يمسكون أعنة الجياد المسومة ولا يطلقونها، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها، فقد علم أن الخادم بيوت أمواله في بيوت رجاله، وأن مواطن نزوله في مواقف نزاله، ومضارب خيامه أكنة ظلاله، وأنه لا يذخر من الدنيا إلا شكته، ولا ينال من العيش إلا مسكته، وعدو الإسلام شديد على الإسلام كلبه، مضطرم على أهله لهبه، زجل إذا أصغت أسماع التأمل لجبه، ولو أن أحد من يدعي الملك ميراثا، ويعد البلاد له تراثا دفع إلى مدافعه هذا العدو الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر لعرفته الأيام ماهو جاهله، ولقلدته الحرب ماهو قاتله، ولحملته الأحوال ماتجوز تحته محابله».

وفي كتاب آخر: «وإذا أولاه أمير المؤمنين ثغرا لم يبيت في وسطه وأصبح في طرفه، وإذا سوغه بلدا هجر في ظل خيمه، ولم يقيم في ظل غرفه، وإذا بات بات بسيف له ضجيعا، وإذا أصبح أصبح ومعتك القتال له ربيعا، لا كالذين يغبون أبواب الخلافة أغباب الاستبداد، ولا يؤامرونها في تصرفاتهم مؤامرة الاستعباد، وكأن الدنيا لهم اقتطاع لا إيداع وكأن الامارة لهم تخليد لا تقليد، وكأن السلاح عندهم زينة لحامله ولا بسه، وكأن مال الخلق عندهم وديعة فلا عذر عندهم لمآلعه ولا لحابس، وكأنهم في البيوت دمي مصورة في لزوم جدرها، لا في مستحسنات صورها، راضين من الدين بالعروة اللقية، ومن أعلى كلمته بما يسمعون على الدرجات الخشبية، ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المهلبية، ومن قتال الكفاز بأنه فرض كفاية تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومن طاعة الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سبيلها، فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون، إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغروا، وبأنهم لا يساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليدا وطريفا، ووطنوا الاسلام وأهله ووطنوا عنيفا، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيها».

وقال في الكتاب: «إن المواصل مافزعوا إلى دار الخلافة إلا بعد أن فرعوا والا فطالما طمع أولهم كما طمعوا، وقديما دعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما اتبعوا، حتى أن الأولين منهم علموا أولياء الدولة من الأتراك ضد ما جبلت أخلاقهم عليه من عقوقها، وسنوا لهم اضاعة حقوق الله باضاعة حقوقها، فأين كان التعلق بالدار العزيزة وهم يحاصرون دار الاسلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشأهم ويمدون محاصرتها بالأسلحة والمنجنقات، والازواد والإقامات، ويصافون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ويعززون دزدار تكريت وهي من أهون بلاد الله بجور الجوار، ويجعلونها سجنا للمالك الخلافة ذوي الاقدار، ولو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كنانة، ولكانت بلادهم له خزانة، ويرجو الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله، ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحل، وبلاد الكرج، فلو أن لهم من الاسلام جارا لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيف لاطفاء مافيه من النار إلى أن تعلق كلمة الله العليا، وتملأ الولاية العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المتعبدة معابد، والصليب المرفوع خطبا في المواقد، والناقوس الصاهل احرص اللهجة في المشاهد، ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى ما يجاور اكنافه، ويمد أطرافه مثل: تكريت ودقوقا والبوازيج وخوزستان وكيش وعمان، والذي وقع اعظم من الذي يتوقع، والذي طلع اكثر من الذي يتطلع، والذي رؤي أمس أكثر من الذي يسمع».

قلت: يعني أن ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التي يرجوها، وأشار بفعل المواصلة إلى ماسبق من فعل زنكي في حصار بغداد، ومساعدته للسلاجقية على العداة في ذلك الزمان، والله أعلم.

وفي آخر كتاب فاضلي إلى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان: «فتح الله علينا ممالك وأضافها، وبلاد آمنها بنا مما أخافها، وبلغنا غرائب صنع لا يبلغ أحد أوصافها، منها بلاد الشام بأسرها، ومملكة حلب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة بدجلتها، فمنها ما أعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في بيكارنا، ومنها ما استمر في اليد وولائه من أوليائنا وأنصارنا، ولما لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا أويد مطيع لنا، كان من شكر هذه النعمة أن نصرف القوة، ونثني العزيمة، ونحد الشوكة، ونلبس الشبكة للفرنج الملاحين، فننازلهم ونقارعهم، ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فنظهر الأرض المقدسة من رجسهم بدمائهم إلى أن ترق السيوف للصخرة الشريفة لما مر بها من قسوة كفرهم واعتدائهم، فنحن نرجو أن نكون عين الطائفة من الأمة التي أخبر نبينا صلوات الله عليه أنها لا تزال على الحق ظاهرة، وبشواب الله وعدوه ظافره، والله تعالى يعيننا على ما يعيننا، ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يحينا.»

فصل

في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الأردن

رحل السلطان من حلب فمر على حماة، ثم حمص، ثم بعلبك، ثم دمشق..

قال القاضي ابن شداد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عزماً على الغزاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرزاً نحو دمشق، واستنهب العساكر فخرجوا يتبعونه، ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار وتعبى فيه للحرب، وسار حتى نزل القصير، فبات به وأصبح على المخاض، وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الأقمشة والغلال والامتنعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا واحرقوا ما لم يمكن أخذه، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية، فخيم بها وكان قد قَدَّم عز الدين جرديك، وجماعة من المماليك النورية، وجاويي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا

منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم زهاء مائة نفر، وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاوش، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة الواقعة، وهو العاشر من جمادى الآخرة، وفي جادي عشرة وصل الخبر إلى السلطان أن الفرنج قد اجتمعوا في صفورية، ورحلوا إلى الفولة وهي قرية معروفة، وكان غرضه المصاف، فلما سمع ذلك تعبى للقتال، وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم وقتل من العدو جماعة، وجرح جماعة وهم ينضم بعضهم إلى بعض يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم والقتال والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين فإنهم كانوا في كثرة عظيمة، فرأى السلطان الانتزاع عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف، فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة فأصبح الفرنج راجعين، وعلى أعقابهم ناكسين، فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة، فلم يخرجوا ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطان منصورا وقد نال منهم قتلا وأسرا، وخرب عفر بلا وبيسان وزرعين وقرى عديدة فنزل الفوار وأعطى الناس دمستورا، فسار من أثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه المهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب، ولا الظفر بها بل كان غرضه رحمه الله عليه الاستعانة بالبلاد على الجهاد، والله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا.

وقال العماد: خرج السلطان إلى الغزو، ورابط العدو بعين الجالوت، وعبر المخاضة الحسينية تاسع جمادى الآخرة، فوصل إلى بيسان وقد أخلاها أهلها، فأطلق الناس فيها النيران ونهبوا مافيها، وكذلك فعلوا

بأبراج وقلاع غيرها، وصادفت مقدمة العساكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ومقدمه ابن هنفري فقتل منهم وأسروا، وتوغل الباقون في الجبال، ووصل الخبر بأن الفرنج قد أقبلوا في ألف وخمسة مئة، ومثله تركبلي وخمسة عشر ألف راجل، فأتاهم المسلمون وذلك على عين الجالوت، فأخذهم الرعب وخاموا عن الإقدام عليهم فخذقوا حولهم وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام، فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم، فتنفس خناقهم، ونكصوا على أعقابهم إلى الناصرة، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى لم يخلص العدو منها شيئا وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة، وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمون من كل جانب، ويرمونهم بالنبل، وينتظرون أن يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى بغداد: « لما كان بتاريخ الثامن من جمادى الأولى سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الاسلام إلى بلاد الكفر وقد تكاملت جنود الاسلام، وتعبت ميامنه ومياسره، وأخذت أهبه، وشحذت قضبه وباعوا الله ما اشتراه، ومثل لأعينهم ثوابه فكأنها تراه، وساروا تحت ليل عجاج ستر السائر تحته سراه، وأصبح الخادم وإياهم بعين الله في سبيله على ماء الأردن، وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكفر، والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر، فخاض ذلك البحر، وذلك النهر، وأمدته نطف الحديد فإذا الماء يرمي بالشر، ويقذف بالجر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير، وهو تاسع الشهر، ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضرب المخاض، وزلزلت أرضها فهى بالقوم ترض وللغنيمه تراض، وأخذت رجال الاسلام تنقص الأرض من أطرافها، وتقلع قلاع الجبال وتطير رؤوسها من أكنافها، فإذا البلاد قد انهزم أهلها فألحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة، وعولوا فيها على سيوف المعاول فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلاد مدن ماكان عزم قبل منها مدنيا، وعمارات ماكان أمل إليها مفضيا، بل طال ماكان

عنها مغضبا مثل بيسان وعفر بلا وزرعين وجنين، فكلها بلاد مشاهير لها قرى مغلّة، وبساتين مظلة، وأنهار مقلّة، وقلاع مطلّة، وأسوار قد ضربت على جهاتها، وأحاطت بجنبتها، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون مافيها من أقوات مخزنة، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كفرها بالنار، وعذبوها عذاب أهلها من الكفار، وقتلوا وكأن الضرام كان لها دما، وكتبوا عليها الخراب، وكأن السيف كان فيها قلما، فأجلوا عن حماها حما، وتساقطت جذرها فكأنما أسارت فيها النوى لها، ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبر بأن عسكر الكافرين قد ركب من مكان مجتمعه، وزحف بلايسه ومدربه، فركب الخادم وسوى المؤمنين في مواقف القتال، ومنازل النزال، فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مشي العروس ساعة الزفاف، وهنالك منظر ود المؤمنين لو أن أميرهم له ناظر كما هو به أمر، ولاغرو أن يصفه الخادم ليسر المخدم، لاليوصف الخادم، ومن وصف ضربة السيف فإنما وصف الضارب، ولم يصف الصارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطا عن سرجه، ومنحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه، وأحرق به راجله وهوزهاء عشرين ألف راجل، وركز صليب صلبوته فاستوى في العجز المحمول والحامل، ونزل محصورا، وخندق فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابعه، وتماشيه الروائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير، ويبعث إليه السهم وهو في الحرب السفير، فيقبل تحية الضرب مترددة ولايردها، وتتبسم إليه صفحة النصل متوددة فلا يودها، ويجتهد في استخراجها وقد رأى العزائم، ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيتها».

ومن كتاب آخر إلى وزير بغداد: «أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج وجعلت ليل من وراءهم من الاسلام سكنا، وصبروا وصابروا فكأنما

كان السيف لهم أليفاً، وكان المعترك لهم وطناً، وأخذت في البلاد النار مأخذها، ونفذت فيها الغير منافذها، وثلت عروشها، وتلت غروسها، وجلت في مصبغات النيران عروسها، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها، وتصف النوازل منازلها دمناً على الأطلال مطلولة وصرعى بسيوف البلاء مقتولة، وجاء العدو فأحدقت به الأبطال، واستمدوا مغاني الشكوى لتبوح ألسنتهم إذا خلوا إلى شياطينهم، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحملة ناكلين، واتقى فارسهم براجله، وراجمهم بنابله، ولاذ سيفهم بجفنه، ولاخير في حامله، ولاذ جفنه بأطرافه خوفاً من كحله بسهم قاتله، وأقاموا محصورين لا يستطيعون ورداً ولا صدراً، ولا يجدون متقدماً ولا متأخراً، فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً وعرف النصل في لحن السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب، فلا يقل الناس كيف.

فصل

في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدين مصر وغير ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائباً بمصر، فلما فتح السلطان حلب كتب العادل إليه يطلبها منه مع أعمالها، ويدع الديار المصرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه إلى الكرك، فإنه سائر إلى فتحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين فاستصحبه السلطان معه في رجب، إلى الكرك هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله إليها غنائم وخيم على الربة، ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحاً ومساءً، وتناوب عليه الأمراء، حتى خرج شهر رجب وماحصل منه الطلب، لكن عظمت النكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار، ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان أن أمر حصره يطول فعول على الرحيل إلى دمشق، ووصل العادل إلى السلطان وهو بعد على الكرك، فجهز تقي الدين إلى الديار المصرية والياً عليها، وقوى عضده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولى العادل حلب وأعمالها، ومنبج وجميع قلاعها، فسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملك الظاهر ونواب السلطان.

قلت: وكتب العادل إلى الفاضل يستشير في التعوض عن مصر بحلب، فكتب إليه الفاضل كتاباً فيه:

إنما أنت كغيث ماطر
حيثما صرفه الله انصرف

والمولى أعلم، وبسياسة الدنيا أقوم، وقد تكرر الكتاب الناصري إليه بما نص عليه، وكشف له الغطاء وسنى له العطاء، وقالت له المخطوبة «هيت لك»، وأدى إليه مالك الأمر ماقد ملك، فلا زالت سعادته أنور من شمس، وأدور من فلك، ولا زال رابحاً على الدهر إن امرء خسر، وباقياً إن امرء هلك».

ومن كتاب آخر إليه: «أدام الله دولة حامي الحمى، وثبت الدولة الناصرية التي يقوم بها ملكان همامان هما: صلاح يمنع فساداً، وهذا سيف يحقن دماً».

قال ابن أبي طي: كان السلطان يعظم الملك العادل، ويعمل برأيه في جميع أموره، ويتمن بمشورته، ولا يعلم بأنه أشار على السلطان بأمر فخالفه، حدثني قاضي اليمن جمال الدين قال: كان السلطان يجمع الأمراء للمشورة فإن كان العادل حاضراً سمع من رأيه وإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً في المهمات حتى يكاتبه بجلية الأحوال ثم يسمع رأيه فيها، وقال: وحدثني أبي قال: حدثني جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولا عن رأيه، فلما حصل العادل بمصر وبعد عن السلطان هناك صار السلطان يتكلف في مكاتبته بالأخبار، ويؤخر الأمور، إلى أن يرد عليه جوابه فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد، فلما حصر الكرك في هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه، وولى مصر تقي الدين، ولما حصل العادل عند السلطان وقع في نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في ولاية يوليه إياها.

قال: وحدثني علم الدين قيصر الصلاحي قال: إنما أقدم السلطان

العاذل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولهذا خرج العاذل بأمواله وعباله وأثقاله، قال: وحدثني غيره قال: لما حصل العاذل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العاذل ليلاً وقال أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال السمع والطاعة، ثم قام وخرج من عنده وكتب إليه يقول أموالني جميعها بين يديك، وأنا مملوكك وأشتهي أن أحمل هذا المال إلى خدمة السلطان ويكون عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها، فأجابته السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأوليك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ماعندي، فلما أصبح العاذل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً، والمال عليّ له، فاعتذر العاذل إلى السلطان، ولما اجتمعوا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم، أو ما علمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء، ثم قرر السلطان ولاية العاذل لحلب وأعمالها إلى رعبان إلى الفرات إلى حماة، واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعود إلى حلب وتسليمها إلى عمه العاذل، ففعل وعاد إلى دمشق، وسار العاذل إلى حلب فالتقى بالرستن وباتافيه، فكانت ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده، والتقرب إليه إلا أن الانكسار للخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظهر شيئاً إلا الطاعة لوالده، والانقياد إلى مرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخشاب قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العاذل جرى عليّ ما قدم وما حدث وأصابني من الهم ما لم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم

أكن رأيتهما، ولادخلت إليها لأن قلبي أحبها وقبلها وطاب لي هواؤها،
ولما فارقتها كنت أحن إليها واشتاقها.

قال: ودخل العادل حلب في رمضان وخلع على المقدمين والأعيان،
وكان قد قدم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة لتسلم حلب وقلعتها،
من الملك الظاهر، وولى القلعة صبارم الدين بزغش، وولى الديوان
والاقتطاعات شجاع الدين بن البيضاوي صبأغ ذقنه، وولى الانشاء
وما يتعلق بأمور السر للصنيعة ابن النحال، وكان نصرانيا ثم أسلم على
يد العادل، فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصاري، وفي ذلك
يقول الشاعر:

فاق دين المسيح في دولة العا

دل حتى علا على الأديان

ذا أمير وذا وزير وذا و

ل وذا مشرف على السديان

قال: ولم يزل الملك العادل يهذب أمور حلب إلى سادس عشري ذي
القعدة، ثم خرج متوجها إلى دمشق بسبب أن السلطان اجتمع عنده في
ذي القعدة عدة رسل، منهم رسل الخليفة، ورسل طغرل بن البهلوان
ورسل قزل أخى البهلوان، ورسل شاه أرمن صاحب خلاط، ورسل
المواصلة، ورسل عماد الدين صاحب سنجار، ورسل قليج ارسلان
صاحب الشمال، فأراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل، ولحضور
الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل إلى دمشق احضره
السلطان لسماع الرسائل وسمع ما عنده في الأجوبة، ولما قضى أجوبة
الرسل ودع السلطان وعاد إلى حلب.

قال: ولما بلغ سيف الاسلام أن السلطان كتب لتقي الدين عهدا
بولاية مصر عتب لأجل ذلك، فكتب السلطان له عهدا ببلاد اليمن

جميعها، قال: وأقطع السلطان تقي الدين الاسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش، ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف دمسيس وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعم السلطان على تقي الدين بالأعمال الفيومية، وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحواليها، وزاده القبيبات وبوش، وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها، ولما وصل تقي الدين إلى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السلطان لا يؤثر مفارقتة فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بدءاً، وكانت فيه حدة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى ندبة الأجل الفاضل.

قال القاضي ابن شداد: وقتل على الكرك في هذه الكرة شرف الدين بزغش النوري شهيدا رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحبا أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشرين شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها فوصلها وصعد القلعة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكوج يدبر أمره، وابن العميد في البلد، وكان الظاهر أحب أولاده إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السميت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه، وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها، فخرج من حلب لما دخلها عمه العادل ويازكوج سائرين إلى خدمة السلطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشرين شوال، فأقام في خدمة والده لا يظهر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده. قال وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل، وكنا قد ترسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان، فسيره معنا من بغداد، وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر

البلاد، وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام قال: وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين، وكان بينهما صحبة من الصبا، وكنت مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ، ونحن في خدمته وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى الموصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصير، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محيي الدين فإن السلطان اشترط أن يكون صاحب إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتفاء إليه أو إلى صاحب الموصل، فقال محيي الدين: لا بد من ذكرهما في النسخة، فوقف الحال، وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة.

قال: وفي تلك الدفعة عرض علي السلطان مواضع البهاء بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال توقف الحال علي ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له، وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب، فوصله رسول سنجرشاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه، وانتمى إليه، ورسل إربل وحلف لهم وساروا، ووصل إليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيد، وعاد إلى حلب.

قال العماد: وصلت رسل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، ورسل صاحب إربل زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بكتكين، ورسل صاحب الحديشة وتكريت يشكون من صاحب الموصل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السلطان المنتمين إليه، ففعل السلطان ذلك، وكان أبو سنجرشاه سيف الدين غازي هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره، فعهد إلى ابنه سنجر شاه بها فغلبه عليها عمه عز الدين مسعود بن مودود،

فبقيت الجزيرة بيد سنجر شاه وهو من تحت يد عمه، وفي قلبه منه مافيه، وكانت إربل وأعمالها وما يليها كلها، مضافة إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثم طلب هو الانحياز إلى خدمة السلطان فأجابته، وسمع بذلك صاحب الموصل، فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السلطان أن يجدد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جملة الأعوان، حرباً لمن حاربه، سلماً لمن سالمه، وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال أنا أقضي حاجته على ما أورد ولكن قد سبق مني يمين لأولئك السلاطين فأنا استثنيتهم وأردتهم إلى اختيارهم لي أو له فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم، فعظم ذلك على السلطان، وكان ذلك محرراً له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل، وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنبيع، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الأمطار، وكثرت مكاتبات
العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتا منها:
عذر الزمان بأي وجه يقبل
ومحبكم بالصدفة يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا
بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري
لاصبح إلا وجهك المتهلل
خير تميم بين المنية والمنى
لاتهجروا فاما موت عندي أسهل
يا غائبين وهم بفكري حضر
يارا حلين وهم بقلبي نزل
مال السلو إلى فؤادي منهج
مال الصبابة غير قلبي منهل
لا تعدلوا عني فمالي معدل
عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتها بتجليدي
إلا التفريق فهو خطب معضل
ان لم يجدني طيفك في زورة
فلأنني منه أدق وأنحل
لاصبر لي لا قلب لي لا غمض لي
لاعلم لي بالين ماذا أفعل

قال ابن الأثير: وفي جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين قبض عز
الدين أتابك على مجاهد الدين قايماز، وهو حينئذ نائبه في بلاده، واتبع في

ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه، ولم ينظر في مضرة صاحبه، وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفندار، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف وهما من أكابر الأمراء، فلما قبضه كان بيده إبريل، وشهرزور ودقوقا، وجزيرة ابن عمر، وكان بها معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين صغيرا، والحكم فيها إلى مجاهد الدين، ولهم أيضا قلعة العقرة، فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين علي بإربيل، وكان فيها لاحكم له مع مجاهد الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرياً حصر دقوقا فملكها، ولم يحصل لعز الدين إلا شهرزور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل، وبقي مقبوضا، فأخرجه وأعادته إلى ولاية قلعة الموصل إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته، وقبض عز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قال ابن الأثير: وعلى الحقيقة ليس على الدول شيء أضر من إزالة مدبر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه، فإلى ان يعرف حاله يفسد أكثر مما ينصلح.

قال ابن القادسي: وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الأبله الشاعر وهو من أسماء الاضداد، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله، وكان فصيحاً هجاء وله أشعار رقيقة منها:

زار من أحباب زورته
والدجى في لون طرته
يا لهام من زورة قصرت
فأما ت طول جفوتته

ثم دخلت

سنة ثمانين

قال العماد: وقد تقررص البرد، فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة إلى الكرك مرة أخرى وأرسل إلى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية، والأجل الفاضل، وتتابع العساكر المشرقية والملك العادل وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وأمد وصاحب دارا وأخو صاحب سنجار وعسكر ماردین، فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العود، وأمر العادل بالاقامة معه.

وقال القاضي ابن شداد: سير السلطان إلى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما، وأصعده القلعة وبأسطه، ورحل معه طالبا دمشق، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى، ولما بلغه وصول ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة، فالتقاء على عين الجر بالقاع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق فأقاما بها أياما، ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالبا للكرك، فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقي الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه فسيرهم إليه، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتبع العساكر إلى خدمته حتى أهدقوا بالكرك في رابع عشر جمادى الأولى، وركب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية، ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى

الذب عن الكرك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمعة، فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابلة، ويسر الله ذلك وله الحمد والمنة، ولكن كان فتحه بعد ذلك، ولما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تعباً للقتال، وأمر العساكر أن تخرج إلى ظهر الكرك، وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة، ثم سار السلطان يقصد العدو، وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله، وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسابان قبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والفرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكرك، فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم إلى آخر النهار، ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوه عن العساكر، فهاجموا على نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها، ولم يبق فيها إلا حصاها، وأخذوا جينين، والتحقوا بالسلطان برأس الماء.

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال: «هو شجا في الحناجر وقذا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بارصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين: مامريوم إلا وعندهما

لحم رجال أويولغان دما

وفي كتاب آخر: «وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظافرة، وحجارتها على من فيه حاجر، وقد جدعت أنوف الأبرجة، وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجة، وكل جوانبها وعرة المرتقى، صعبة المختطاه،

والسلطان يستعذب المشقات التي تتفادى منها الهمم، ويباشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم».

ومن كتاب آخر: «وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأعلاج، فرمت الشرارييف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أخرج أحد منهم رأسا إلا دخل في عينه نصل، وما هجر قراب الاسلام سيف إلا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل، وما على الحجر في الاسراف والتبذير حجر، ولكل ليلة من نقع الخوافر ومن سنا الأسنة فجر، ولقد أخذنا من العدو بالمخنق، وشرعنا في طم الخندق، والحائط واقع، والواقعة بهم محيطة، والدروع بالسيوف مفصلة وبالجروح محيطة».

ومن كتاب آخر: «عذاب الله بالحصن وأمله واقع، ماله من دافع، وإن دليل النصر قد ظهر، ومادونه من مانع، وأما المنجنوقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم، وفي الأعلاج بالهتك، فلم تبقى لها الحجارة الطائرة إليها حجارة قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلا ونهار ديمة دائمة، وأطفنا عليها بالزرجون حتى وقعت الأسوار من سكرها، وضربنا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها، وعاطتها كفة المنجنيق عقار عقرها، فالسوار المقابل للمنجنوقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو واد من الأودية واسع عميق لما تعذر إلى الزحف إليهم والهجم عليهم طريق».

ومن كتاب آخر: «الحصن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة، قد هدت الحجارة منه ما أحكموه بالحجارة، وعدا عليه بالتخريب ما أعدوه للعبارة، بقسي المنجنوقات ترمى ولا تريم سنهامها، وتستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها، فما قابل المنجنوقات من الأبراج والأبدان قد أتى التخريب على مافيه من

العمران، فلم يبق إلا طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، والقلوب واثقة بحصول الفتح، وقد علم كل واحد منا أن متجره قد فاز بالريح، فما يسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولا ضجر ولا تسفر هذه النبوة إن شاء الله تعالى إلا عن نصر وظفر.

وقال العماد: رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل والزرقا وعمان والبلقا، ثم الرقيم وزيزا والنقوب واللجون، ثم أدر ثم الرية وذلك في بلد مآب، فلما تلاحقت العساكر نزل على وادي الكرك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب، فهدمت السور المقابل لها، ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق، وهو من الأودية الهائلة، والمهاوي الحائلة والمهالك الغائرة الغائلة، ولم يكن في الرأي إلا طمه، وملؤه بكل ممكن وردمه، فعد ذلك من الأمور الصعاب وتعذر لحزونة الأرض وتحجرها حفر الأسراب، فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض إلى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرهما وتأليفها، فتمت دروبا واسعة لا يزحم فيها الجاني الذاهب، وتوافدت رجال العسكر واتباعه وغلمانه وأشباعه على نقل ما يرمى في الخندق، وهان طم الخندق بالدبابات التي قدمت والأسراب التي بنيت وأحكمت، فوجد الناس إلى الخندق طريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الجراح عاملين بالشرح والناس تحت القلعة على شفير الخندق لا يستشعرون حذرا ولا يخشون سهما ولا حجرا، وقد امتلأ الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه إليه، ونجا بعدما توالى من رمي الفرنج رمي الحجارة عليه.

وفي بعض الكتب العمادية: «لولا الخندق المانع من الإرادة، وأنه ليس من الخنادق المعتادة، بل هو واد من الأودية، واسع الأفنية لسهل المشرع وهجم الموضع، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق، فعملنا دبابات قدمناها، وبنينا إلى شفير الخندق

ثلاثة أسراب باللبن سقفناها وأحكمناها، فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنه، وشرع الناس في طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى، وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه، وتسارع الناس إليه، وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نجح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهاراً كازدحامهم في المصلى يوم العيد، وليلاً كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبالنصر موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صريع، قد خرقت الحجارة حجابها، وقطعت بهم أسبابها، وناولته من الأجل كتابه وحسرت لثام سوره وحلت نقابه، فأناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشرفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة، وحروف العوامل مهموزة، وبطون السقوف مقبورة، وأعضاء الاساقف معقورة، ووجوه الجدر مسلوخة، وجلود البواشير مبشورة، والنصر أشهر من نار على علم، والحرب أقوم من ساق على قدم.

قال: وأشرف السلطان على أخذها، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمعوا وجاءوا منجدين لأهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عنان العزم إليهم، وكانوا في منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى اللقاء، وتقدم عنهم بأميال فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا، وعلى قصد الكرك عزموا، ولما رأى السلطان أن الفرصة من الفتتين فاتت، مر على نابلس فأغار وغنم وفي طريق عوده نزل على سبسطية، وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذ الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة نفيسة، وبها من الفرنج أسقف وقسس ورهبان ففدوها بأسارى مسلمين، ولادوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جينين فأهبط أوجها، وهدم برجها، وآب بالتهاب والسبايا والمرباع والصفايا، واجتمع بأصحابه على الفوار، وتحدث بالايجاد لحوادث الغور في الغوار.

ثم رحل السلطان إلى دمشق للاجتماع برسُل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا ومات جماعة من أصحابهم، وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمنيع، واستأذنوا في العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدور ذلك الصدر على تلك الحالة، وعجزت تلك العشرة كما شاء الله عن الإقالة، ثم استقل مودعا وداع الأبد، وكان حسام الدين طمان مقدم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا في الجهاد، فأذن له في العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم في مسيرهم، فساروا على سمت الرحبة، فاغتم الأمير طمان بركة تلك الصحبة، فأدركت المنية شهاب الدين بشير بالسخنة، ووصلوا بشيخ الشيوخ إلى الرحبة، وهناك لقي ربه.

قلت: كان صدر الدين هذا أحد السادة، وأبوه وجده من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزمان، وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، وقد ذكرت ترجمة والده في تاريخ دمشق وألحقته من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعاني في تاريخه.

مولده في ذي الحجة سنة ثمان وخمسة، وكان شيخا طائلا في العلم والدين والسداد ثابت الجنان في الحوادث المزعجة، والوقائع الباغية الملجلة، شديد البديهة صافي الفكرة جمع بين نظم الشعر ونثر الترسيل، وكان يرسل إلى الأطراف، ورتب في مشيخة الشيوخ منذ توفي والده في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرباط صفى الدين اسماعيل، ومن شعره يعني صدر الدين:

ولم أخضب مشيبي وهوزين
لا يثاري جهالات التصابي
ولكن كي يراني من أعادي
فأرهبه بوثبات الشباب

قلت: ووقفت على كتاب فاضلي إليه جوابا عن كتاب عتب فيه: «وقف على التحية الطيبة والكرامة الصيبة، والألفاظ العذاب إلا أنها الغضاب، والنعيم إلا أنه العذاب، والمسامحة إلا أنها الحساب، والمتشابهات اللواقح أوطأ أحسن تأويلها، والمحكمات اللاتي هن أم الكتاب، ويكفي أنه مزج الصاب بعسله، وأرفع قلمه بما لا يعرفه الشجاع من أنوف أسله، وهذا باب قد آن سده، وسبيل قد وجب صده، وعين دهر أصابت هذه المودة، وقد آن لها أن تنطرف وتنصرف، وبادرة هم قد حان أن تنكشف وتنكسف، فلا نظر بعدها للعين التي أصابت ولا خطر في أثرها للخطرة التي آبت، ولا كان للأيام في فضل سيدنا على عبده نصيب، ولاعد أبدا على شباب الرضى عنه مشيب، ولا تمكن من حبيب وده إلى القلب رقيب، ولاملك رقه غير تلك اليد الكريمة، ولاسمعت حديث الحوادث تلك المودة القديمة».

قال العماد: وخرجنا من دمشق في شعبان، وخيمنا على سعسع، ودعا تقي الدين فأمره أن يرجع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصف الشهر،

ثم رجعنا من فرض الجهاد إلى فرض الصيام بدمشق، ورجع كل عسكر
إلى مركزه، ومدح العباد تقي الدين في هذه الكرة بقصيدة ثائية نحو
خمس وثمانين بيتاً أولها:

إذا شئت ما عن غير قلبي تحدثنا
فما حل فيه الهم إلا ليلبثنا
خذاشاهدي صدقي على صحة الهوى
ضنا ساكتاً مني ووجدنا تحدثنا
مريضك ما أشفى على الناس سقمه
فلا تعجلا في أمره وتريثنا
رئى لي عدوي من جفاء أحبتي
ناهيك من حال عدوي لها رثى
عهدكم بعد النوى ما تشعثت
وحاشى لذاك العهد أن يتشعثا

ومنها:

وأملك بالملك المظفر ظافرا
من الجد والجدوى قديماً ومحدثنا
نخوف السطأ صعب الأبا حسن الثنا
مرجى الندى سهل الرضى طيب الثنا
صفاً آخر العمرين من عمر الذي
به العمران اليوم بالعدل ثنا
هم أحدثوا قمع الضلالة بالهدى
فمذمكوا لم تلق في الدين محدثنا
غشائي وغشي أنت حامل نقصه
بفضلك إن البحر يحتمل الغشا

ومنها في وصف القصيدة:

وقد سهلت والثناء أو عرمرتقى
فلا فرق عندي بين ناء وبين ثنا

فصل

يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف

بحال زين الدين الواعظ

الذي كان صلاح الدين يكاثره بوقائعه، وهو الذي نم على عمارة وأصحابه بما كانوا عزموا من قلب الدولة الناصرية مصرية كما سبق، وسبب ذكره هنا انه هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتاب كتبه الى السلطان في هذا العام، وقد تقدم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر، وذم الشام في أوائل أخبار سنة أربع وسبعين، وله من كتاب آخر: «دعونا من بعلبك البلد الأعسر، ومن رأس عينها الضيقة المحجر، ومن ثلجها الذي تنفش الجبال بعينه، ومن بردها الذي لا يشفح الجمر عنده إلا بأذنه، وعودوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم فإنها قد علتها وحشة لقطينها، فسألت مطالع دسوتها عن أقمار سلاطينها واذكروا النيل الذي وفي لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذي أحصاه الله ولم نحصه، واذكروا فيضها وماء طوبتها فقد كان يقيم الحجة على ثلج الشام ووخه، ويتغلغل برده فيسري الى قلب العليل، وكان جاريا على غير طريق فمه، واذكروا صحة هوائها وتعصبه لأيامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة أجسامكم».

ومن كتاب آخر: «وأما أحوالي فإنني لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مائها وهوائها وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدواتها، وقرأها وقرنائها، ومن لي بمصر فلاني أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها واتباع بردي (٢٨) وماعساه بشربة من مائها، وامتطي متن السيف في هجر سوادها وسودائها، فالطلل هائل ولا طائل، وما كنا نسمع به من تلك

الفضائل متضائل، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فهي بلاد تستجدي ولا تجدي، وفعل المال بها لازم التعدي».

وقال العماد: «هذا زين الدين علي بن نجا الواعظ، من أهل دمشق ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوعظ فصيحة، وبهجة للفضل صبيحة، وقبول من القلوب، وفصول في فصل الخطاب للخطوب، وقد تأثت وتأثّل، وقبل وأقبل، وأحسن السلطان إليه بالأعطيات، والاقطاعات وأجل وأعطاء وأجزل، وأتم له مراده وأكمل، وكان السلطان يستشير، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته، ووصل في هذه السنة منه كتاب إلى السلطان يشوقه إلى مصر ونيلها ونعيمها، وسلسيلها ودار ملكها ودائرة فلکها، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها ومقسمها ومقياسها وإيناس ناسها، وقصور معزها، ومنازل عزها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبركتها وبركتها، وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقلوبها، واستلاب النفوس بأسلوها، وملقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جنانها، وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها ومشاهدها، ومرابعها ونواظر بساينها، ومناظر ميادينها وساحات سواحلها، وآيات فضائلها، ورحاب شوارعها، وحلاب مشارعها، وشروق عربيتها، وغروب شرقيتها، وطيب طويتها، ومسار مسراها، ومجرى فلکها ومرساها وعجائب بناها، وغرائب مناها، وبيان عيانها بلسان بلسانها، وکیاسة أخلاقها ونفاسة أعلاقتها، وشتاؤها في الفضل ربيع نصير، وغبارها عبير، وماؤها كوثر، وتراها عنبر».

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه مادل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والأخبار، والآداب والآثار، ولو ظفرت به لأوردته بلفظه وجلوته بوعظه، لكنني فقدته فعبت معانيه وأحکمت مبانيه.

قال: فکتبت الى زين الدين الواعظ في جوابه عن السلطان: «عرفنا

طيب الديار المصرية، ورقة هوائها، ونحن نسلم له المسألة في طيها
وتوفير نصيها، ورقة نسيها، ورائق نسيها، لكن لا ريب أن الشام
أفضل وإن أجر ساكنه أجزل، وإن القلوب إلى قلبه أميل، وإن الزلال
البارد به أعل وأنهل، وإن الهواء في صيفه وشتائه أعدل وإن الزهر به
أشب، والنبت به أكهل، وإن الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل، وأن
القلوب به أروح، والروح به أقبل ودمشق عقيلته المشوطة، وعقلته
المنشوطة، وحديقته الناضرة، وحديقته الناظرة، وهي عين إنسانه، بل
إنسان عينه، وصير في نقوده في عين نضاره ولجينه، فمستامها مستهام،
وما على محبها ملام، وما في ربوتها ريبة، وفي كل حبة حبيبة، ولكل شائب
من نورها شبيبة، وعلى كل ورقة ورقا، وعلى كل معانقة من قدود البانات
عنقا، وشادياتها على الأعواد تطري وتطرب، وساجعاتها بالأوراد تعجم
وتعرب، وجميع ما في سورة الرحمن، ونحن نتلو عليه آلاءها إلى أن يرجع
إلينا فتتلو على منكرها (فبأي آلاء ربكما تكذبان) (٢٩) وقد تمسكنا بالآية
والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع، أما أقسم الله
تعالى بدمشق في قوله: (والتين والزيتون) (٣٠) والقسم من الله لها أدل
دليل على فضلها المصون، أما قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: «الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده» (٣١) هذا
أوضح برهان قاطع على أنه خير بلاده، أما الصحابة رضوان الله عليهم
أجمعوا على اختيار السكنى بالشام، أما فتح دمشق بكر الاسلام،
وما ننكر أن الله تعالى ذكر مصر وسأها أرضا فما الذكر والتسمية في
جنب فضيلة القسم، ولا الإخبار عنها دليلا على الكرم، وإنما اكتسبت
الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق إليها عليه الصلاة والسلام، ثم
المقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر السائرة من
سائر الجهات للجهاد، وأين قطوب المقطب من سناء سنير، وأين ذرى
منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير، وأين الهرم الهرم من الحرم
المحترم، وبينهما فرق ما بين الفرق والقدم، وهل للنيل مع طول نيله،

وطول ذيله، واستطالة سيله، برد بردى في نقع الغليل ونفع العليل،
ومالذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السلسيل، وإذا فاخرنا
بالجامع وقبة النسر ظهر عند ذلك قصر القصر، على أن باب الفراديس
في الحقيقة باب النصر، ومارأس الطابية كباب الجابية، ولو كان لناسها
باناس لم يحتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لانجفو الوطن كما جفاه،
ولانأبى فضله كما أباه، وحب الوطن من الإيوان، ومع هذا فلا ننكر أن
مصر إقليم عظيم الشأن، وإن مغلها كثير، وماءها غزير، وأن عدها نمر،
وإن ساكنها ملك أو أمير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الاجلي
الفاضلي اسماء الله: إن دمشق تصلح أن تكون بستانا لمصر، ولاشك أن
أحسن ما في البلاد البستان، وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم
يرض أن يكون المساوي، حتى شرع في عد المساوي، ولعله يرجع إلى
الحق ويعيد سعة اسعاده ووفاقه إلى الأوفق إن شاء الله.

قلت: وقد قيل في وصف دمشق ومدحها شيء كثير، من النظم والنثر
واشتمل ما جمعته في أول تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة، من ذلك
ما وصف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله في مقامة
تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كلا من البلدين بما يليق
به، وكان أول ما قدم دمشق يذمها في مكاتباته إلى مصر نظما ونثرا حبا
للوطن، ثم لما استقر فيها قرت عينه وفضلها في بعض مكاتباته، وقد
ذكرت كل ذلك في جزء مستقل به، وأما القاضي الفاضل رحمه الله فقد
قال في بعض مكاتباته إلى مصر: «وما أسر به قلبه الكريم أنني وصلت
إلى دمشق المحروسة حين شرد بردها، وورد وردها، واخضر نبتها، وحسن
نعتها، وصفا ماؤها وصفا دواؤها، وتغنن أطيارها، وتبسمت أزهارها،
وافتر زهر اقحوانها، فحكى ثغور غزلانها، ومالت قضب بانها، فانشئت
تنني، ولدانها، فلما قربت من بساتينها ولاح لي فيح ميادينها، وتوسطت
جنته واديها، ورأيت ما أبدعه الله فيها، سمعت عند ذلك حماما يغرد،
وهزارا يشدو ويردد، وقمر يا ينوح وبلبلا بأشجانة يبوح، فوقفنت أثني

على باريها، وأكاد بالدمع أباريها، أسفا على أيام خلت بعدما حلت منها
وفيها، فعند ذلك عاينت روعي وزال أنيني ونوحي:
وكانت النفس قد ماتت بغصتها

فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت: ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع إلى قوله ويرضى
بحكمه، لفضله وفصله، وهو الوزير العادلي صفى الدين أبو محمد عبد
الله بن علي المعروف بابن شكر في كتاب البصائر له فقال: «دمشق نزهة
الآبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعرس
السفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود، ومقامها
المحمود، وماؤها المسكوب وعيها المسلوب، ومحاسنها المجموعة،
وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة
لامقطوعة ولاممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها
السلسيل، وقد شرفها الله تعالى بالذكر في كتابه، وأوى إليها من اختار
من أنبيائه وأحبيائه، فقال تعالى في كتابه المبين: (وآويناها إلى ربوة ذات
قرار ومعين)^(٣٢) ولم تزل مقر البركات ومعدن النبوات، ومنزل الرسالات،
ومسكن أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بقعتها من الأخبار مالا يشك
في صحة اسناده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشام صفوة
الله من بلاده، فيها خيرة الله من عباده»، ونبه في خبر آخر على عظم
فضله، فقال: «ان الله تكفل لي بالشام وأهله»^(٣٢) وبارك في سكنائها
ورغب في سكنائها أهل الاسلام بقوله عليه السلام: «البركة في الشام»
وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها ارم ذات العماد التي
لم يخلق مثلها في البلاد^(٣٣).

قال العماد: ولما أنعم الله تعالى علي بإسكاني في فنائها، وتخيري لبنائها
ونزهتي في أفنائها، وأنسي بانسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت

بادراك البصر منه ادراك المسامع فلما وصلت، وحللت الحبي لديه، رأيت مرأى صغر الرواية، ورونقا حصل من الحسن على النهاية، ونورا يجلو الأبصار، وجمعا يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآنا في آناء الليل وأطراف النهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الاعمار، والبركات تحف بجوانبه، والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى، والمصاحف بين أيدي التالين تنشر فلا تطوى، واعلام البر فيه ظاهرة فلا تحفى ولا تزوى، والخلق منقسمون إلى خلق، قد نبذ أهلها ماوراءهم من العلق، والاسلام فيه فاش، والجهل به متلاش، وهو مما بناه الاولون لعبادتهم، وجعلوه ذخرا لأخرتهم، وما برح معبدا لكل ملة، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكلًا وقبلة، وهو بيت المتقين، وسوق المتصدقين، ليله للمتجهدين، ونهاره للعلماء المجتهدين.

قال: «عاشرت أهلها وباشرتهم، ثم كاثرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادة أدباء، وعلماء نجباء، ورأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله، فلا يعدلون عن واضح جده، ويفسرونه عن علم واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ماوردت به ثقة الآثار، وعامتهم مشغولون بالمعاش، أخذون من زيتهم عند كل مسجد أفضل الرياش، لا يخوضون في لغط ولا إكثار، ولا يجتمعون على فساد نية في مقيم ولا بعيد الدار».

قال: «فأقمت منها في أشرف البلدان، التي هي انموذج الجنان، وعنوان الدار التي خازنها رضوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنفوس بالخير دون الشر آمرة».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كانت إربل ومايجري معها من البلاد والقلاع من ولايات الموصل غير معدودة في ولاية السلطان، فأراد صاحب إربل أن ينفرد عنه ويستبد بالبلاد فاعتزى الى السلطان وكاتبه وطلب منه منشورا ببلاده فكتبه له وفيه: «إن الله لما مكن لنا في الأرض، ووفقنا في اعزاز الحق، واظهاره لاداء الفرض، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله، ونقبل على إعلاء كلمة الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام إلى غزو أعدائه، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في أرضه على استئزال نصر من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الارض واتبع هواه، وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه، فإن أناب قبلناه وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه» وتفصيل ماكتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها جميع ماقطعه الزابي الكبير: شهرزور وأعمالها معايش بيت قفجاق، معايش بيت القرابلي، الدشت والزرزارية.

قال: وفي هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفي صاحب ماردین، وهو قطب الدين ايلغازي بن البى بن تمرشاش بن ايلغازي بن أرتق، والأمراء الأرتقية هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا، وكانوا يتولون بيت المقدس وحموه من الافرنج قبل المصريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين، فبقي الساحل كله مع أهل الشرك فحمت الأرتقية ديار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابرا عن كابر إلى أن انتهى إلى هذا قطب الدين أعمال ميافارقين وماردین، فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين، وانتهى إلى ابن عمه

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق حصن كيفا وخرتبرت، والبلد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد، وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته.

قلت: وفي هذه السنة أيضا توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، وولي ابنه يعقوب.

قال القاضي ابن شداد: وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهما، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستورا فصار إلى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايازا، وانهم نهبوا وحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم، فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد، وتقدم إلى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار وبيوس البقاع إلى بعلبك، ومرض العماد فانقطع بها، وسار السلطان إلى حمص، ثم حماة فأقام بها إلى أن شفي العماد، ولحقه بها، وكان الأجل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن الياس إلى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه، فصار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طب لمن حب، فبرئ بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه، رحل إلى السلطان فوافقه بحماة.

ودخلت

سنة احدى وثمانين

قال العماد: والسلطان نخيم بظاهر حماة، فسار إلى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فسار وقطع الفرات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السلطان قد سير إلى معاقل الفرات وقلاعها، ونواحيه وضياعه، وأمر أهلها بعمارة كل سفينة في الفرات وزورق ومركب، وجمعها من كل مشرق ومغرب، ثم وصل إلى حران، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إربل، وقد كان أول من دخل في خدمة السلطان، أول ما قصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتماء إلى السلطان، وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وأمد وحلب، وأظهر من المودة فوق ما كان في الحساب، وكان كثير الحث للسلطان على المسير إلى الموصل، هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان إن مظفر الدين إذا عبرتم الفرات يستدرك كل مافات، ويقوم بكل ما يحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، وتقدم يوم الوصول إلى حران خمسين ألف دينار، وكتب خطه بذلك، فلما وصل السلطان إلى حران لم ير منه ما التزمه الرسول، فارتاب به وظن أنه مال مع المواصله، ووشى الأعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغير وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين أمره، وشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه، وبعضهم باستبقائه واستئلافه فعفا السلطان عنه على أن يسلم إليه قلعتي الرها وحران، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أعيدت إليه القلعتان في آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة.

قال القاضي ابن شداد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة والتقاء مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام، يعني، الموصلية رسولا واسمه ابراهيم بن علي ابن عبد السلام، ويكنى بأبي الخليل، فلقية بحماة يعتذر مما جرى، فأعطاه دستورا بعد أن أكرمه، وسار من غير غرض.

قلت: وصحب ابن عبد السلام في هذه السفارة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة، فمدح السلطان بقصيدة أولها:
على الحي من وادي الغضا إذ تفرقوا

سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها إلى قوله:
وقالت لسي الأمال إن كنت لاحقا

بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال له السلطان: لقد وقفت وأجازه جائزة سنية.

ثم قال القاضي: وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حران في الثاني والعشرين من صفر، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشيء كان جرى منه، وحديث كان بلغه عنه رسوله، ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها، ثم أقام في الاعتقال تأديبا له إلى مستهل ربيع الأول، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، وأعادته إلى قانونه في الاحترام والاكرام، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حران إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره ان ملوك

الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل، وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين ابن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين، فالتقاهم السلطان واحترمهم ثم رحل من دنيسر نحو الموصل، حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات، فرتب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان دستوراً طمعا في ملك أخيه، فأعطاه دستوراً.

وقال العماد: خرج السلطان من حران في ربيع الأول فمر على رأس عين ودارا، فخرج أميرها بأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الدين أبو بكر ابن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وأمد نيابه عن أخيه نور الدين فإنه كان مريضاً، ثم رحل إلى نصيبين، وتكبد طريق الدولة فنزل على بلد آخر ربيع الأول، ثم توجه إلى الموصل وخيم على الاسماعيليات، وقدم على السلطان زين الدين صاحب إربل، وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قبل الاسماعيليات إرسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل، فإن أهلها مواصلون الأعاجم، وخاطبون لسلطانهم القاسم، وناقشوا اسمه في الدنانير والدراهم، وأنهم يتعززون بالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطاعة والإذعان، وأنهم يرسلون إلى الفرنج ويقوون نفوسهم على قصد الثغور، وتفريق الجمهور، وأنه ما جاء طمعا في استضافة ملك، ولا استزادة سلك، ولا قلع بيت قديم، ولا قطع أصل كريم، وإنما مقصوده الأصلي ومطلوبه الكلي ردهم إلى طاعة الإمام، ونصرة الاسلام، وكشف ما اعتادوه واعتودوه من الظلم والظلام، وكظمهم عن استحلال الحرام، وقطعهم عن مواصلة الاعجام، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار، وصلة الأرحام، فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل ولي عهد أبيه، لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعده عما استحقه بالارث

والتولية، وحرمة ما يستوجبه من التربية والتلبية، وأخاف حرمة وقطع رحمه، ولو تمكن منه لأطاح دمه، ولولا خوفه من جانبه وتوقيه من ذبيب عقاربه لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين علي هو الذي حفظ بيتهم، وخلف في إحيائهم ميتهم، وهذا ولده في جوارهم مسكوة بجورهم، وحديث صاحب الحديث في حادثه لا تخفى، وعين من بتكرت من مخافتهم وأفتهم لا تكري.

قلت: وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان إلى الديوان: «وكان قد نحيز إلى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديث وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذانا مخصصا إلا لمحلهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته إلى ما يجري في خاص الديوان العزيز مع غيرهما مما يجري مجراها في القرب من الجوار، والدخول في زمام شرف تلك الدار، فإن أذن له استثناهما في صلح إن تم معهم أوحاهما مع مباينيه إن اختار المشار إليهم البقاء عليها، وهذا برد شرف قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه الحظ الشريف نظم الفخار ومنتظمه».

وفي كتاب آخر: «وما كنا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقطاع كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه».

وأصبح العباد الرسول قصيدة مدح بها صاحب مجد الدين أبا الفضل أولها:

قضى الوجدلي أن لا أفيق من الوجد

فياضلة اللاحي إذا ظن أن يهدي

يحكم جلد على كل حادث
ولكن على هجرانكم ليس بالجلد
بيغداد حطوا رحلكم ليخصكم
أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الإمام الناصر الدين ناصرا
فحاول تعويلا على نجده المجدي

ومنها:

إليك صلاح الدين ألجأ أمره
فحط ركنه والعقد بالشد والشد
مليك على حرب العدو ومصمم
وما زال فيه غالب الجند والجند
تساور أفواه الجراح رماحه
مساورة الأميال للأعين الرمد
يحل المنايا الحمر بالكفر مجريا
دم الأصفر الرومي بالأبيض الهندي
ومن لأمر المؤمنين كيوسف
فتى في مراضيه بمهجته يفدي

قال: وشرع السلطان في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد، وسير
الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري، ومعه
الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعة من الأمراء
الحميدية إلى العقير وأعمالها لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها،
ونصب الجسر، وملك الأمر وعبره مظفر الدين صاحب حران وغيره من
الأمراء، وخيموا بالجانب الغربي وكان الجر إذ ذاك شديدا، فأمر
السلطان بالصبر عن القتال إلى أن يطيب الزمان، وأهل الموصل في
الحصار، وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خبير
بها زعيم أنه يمكن سد دجلة وسكرها وبثق فرضة أخرى وكسرها،

ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوي، وتعطش الموصل إذا الماء عنها انزوى، وعرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدهان البغدادي، وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفضل وعين إنسانه، وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي، ولما سمع بكرم السلطان تقياً بظله، وتعرف إلى فضله، فصدق المشير بذلك وقال: هذا ممكن ولا يتعذر، ويتيسر ولا يتعسر، ومن كتاب عمادي إلى بغداد: «وذكر المهندسون أهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضرر في تضيق ولا نزال».

فصل

فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميفارقين وغيرهما من

البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فتحول إليها العزم، وترجع بها الحزم، وكان ورود خبر موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التاسع منه، ولم يخلف ولدا ولا ذا قرابة يكون خلفا له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولوها، فاختلف الناس على السلطان فمن مشير بالإقامة إلى انفصال أمر الموصل، ومن مشير بالمسير إلى بلاد الأرمن فإن الموصل غير فائتة، من قائل بانقسام العسكر في الجهتين فترجح رأي السلطان على المسير إليها، فكتب إلى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الأرمن وديار بكر والموصل، فجاءه بعد فتح ميفارقين مثال شريف بتقليده النظر في أمر ديار بكر والنظر في مصالح أيتام ملوكها، ثم رحل السلطان عن الموصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقدم في مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما أن يسيرا إلى خلاط من أقرب الطرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بكتمر أحد عماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يظهر للسلطان المودة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القرب، فهو اشد للارهاب والرعب، ففعل ولو خلاه لسبق إليها، وقيل إن هذا الوزير أيضا أنفذ إلى بهلوان، وأمره بالاتيان، وأظهر له المودة والاحسان، ولما تمادى الزمان، وقرب منها بهلوان راسله بكتمر وحمل

إليه مع ابنته زوجة شاه أرمن الأموال التي أودعت المخزن، وندب السلطان إليها الفقيه ضياء الدين عيسى، فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزير وشاوره فأحال الحال على البهلوان، وأنه جاء ليتملك المكان، ولو استعجلتم لسهل ماصعب الآن وهان، ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ماكان.

وقال القاضي ابن شداد: وفي ربيع الآخر توفي صاحب خلاط، وولي بعده غلام يدعى بكتمر، وهو الذي كان وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط، وكان متصونا في طريقته، فأطاعه الناس ومالوا إليه، ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع، فسار نحوه البهلوان بن ايلدكز، فلما بلغه ذلك سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه، واندراجه في جملة، فطمع السلطان بخلاط، وارتحل عن الموصل متوجها نحوه وسير إليه الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرسل، وبهلوان قد قارب البلاد جدا، فخوف بهلوان من السلطان وأشعره أنه إن قصده سلم البلاد إلى السلطان، فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه بنت لهم وولاه، وأعاد البلاد إليه واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة، وكان السلطان قد نزل على ميفارقين فحاصرها، وقتلها قتالا عظيما، ونصب عليها مجانيق وملكها في آخر جمادى الأولى.

قال العماد: واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السلطان، وكان قد مات صاحب ماردين كما تقدم، وبقيت الولاية لولده الكبير وله عشر سنين، وكان القائم بتدبير ملكه نظام الدين بن البقش، ومات أيضا صاحب آمد نور الدين محمد بن قرا أرسلان رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة، وتولى ابنه قطب الدين سكران، فاحترزوا من السلطان، وخافوا أن يسترد بلاد آمد منهم، فنفذ السلطان إليهم شمس الدين بن الفرائش ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة، فوجدتهم على الطاعة

مقيمين، وإليه راغبين، ومنه راهبين، ووصل السلطان في جمادى الأولى إلى ميفارقين، وكان دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش، واستعصى فيها على السلطان، فحاصره وقتله، ثم رأى أن القتال يطول، فراسل أميرها الأسد، ورغبه في المودعة، ونهاه عن المقاطعة، وكان في المدينة خاتون ابنة قرا أرسلان، وهي زوجة قطب الدين صاحب ماردين الذي توفي، فأحال الأسد الأمر على الخاتون، فراسلها السلطان، ورغبها وضمن لها كل ما تطلبه منه، ووعدا أن يصاهر إليها، فما زال بها وبا لأسد حتى لانا، فقرر السلطان لها كل ما كان باسمها واسم خدامها، وطلبت حصن الهتاخ ليكون لها عشا للافراخ، وزوج السلطان ابنه معز الدين اسحاق بإحدى كرائمها، وأبرم العهد، وأحكم العقد، وسارع السلطان إلى نداء كل ما اقترحوه وفتح ميفارقين، وأقبل صاحب آمد قطب الدين سكرمان بن نور الدين على صغر سنه إلى خدمة السلطان فأكرمه وأعادته إلى منصبه وكان معه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سبابة، وقتل غيلة في رمضان من هذه السنة كما سيأتي، ثم سار السلطان لقصد الموصل، وولى تلك الديار مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي، فنزل السلطان على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل في شعبان، وعزم على أنه يشن في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء باقيات متعرضات للشفاعة فأكرمهن السلطان، ووعدهن بالاحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن، لكن لا بد من مصلحة تتم ومصلحة نفعها يعم، واستقر الأمر على أن يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين، وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطف وتلطف أجلهن واجلالهن، وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهن، وكن ظنن أنه لا يقيم لحرمة قصدهن، ولا يصدق ظننهن، وأنه لا يعرف حقوقهن، ويقضي بمكارمه ديونهن، ولا يشتغل بأمر لا يؤذن بمراذهن، فدخلن البلد متلومات متذمات، وبلطف الله لائذات معصيات.

فصل

في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان

المرضة المشهورة بحران

قال العماد: وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن، وحفظه واشتغل بالصيام، والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه، وتغير مزاجه وتعذر علاجه، وطال مرضه، وندم على رد السفراء، وسير إلى عماد الدين صاحب سنجار في انفاذ رسله ليوعز بكل ما يعود بسؤله، فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والريستاق وبلد القرابلية وبنى قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي وشمس الدين قاضي العسكر من جانبنا إلى الموصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهو من بحر بخرانه في عوم، وخيمنا على نصبيين في شوال، ولم نترقب عود الرسول بنجاس الأشغال بل كان الارتحال على الارتحال، ثم استمر الصلح وصلح الأمر، وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية، وفي ديار بكر أيضا والولايات الأرتقية، وضرب باسمه الدينار والدرهم، وانحل الاشكال وكشف المبهم.

وكتب العماد عن السلطان كتابا إلى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه: « ونزل صاحب الموصل عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعقلها وأعمالها، وولاية بنى قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقررنا عليه الموصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا، وإن يطلق المظالم، ولا يرتكب المآثم، وقد حصل لنا من صاحب

الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة، وعمت الهيبة والرغبة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع».

قال: ونفذ السلطان إلى شهرزور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك فتملاً بها وتملك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الايوانية مستولية بها فشتت شملها وندب للنظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفراش، وأقطع البوازيج لبعض خواصه الممالك وسير إلى البلاد نوابه، ورتب فيها لإقامة سنن العدل والاحسان أصحابه، ووقف ضيعة في البوازيج تعرف بنا فيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد.

وقال القاضي ابن شداد: لما أيس السلطان من أمر خللاط عاد إلى الموصل، فنزل بعيداً عنها وهي الدفعة الثالثة بسوضع يقال له كفر زمار، وكان الحر شديداً فأقام مدة، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة واجتمع به وأعادته إلى بلده، ومرض السلطان بكفر زمار مرضاً شديداً. خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض، وكان يتجلد ولم يركب في محفه، ووصل حران شديداً الممرض، وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه، وأرجف بموته، ووصل إليه أخوه العادل من حلب، ومعه الأطباء.

قال: وكان سبب صلحه مع المواصلة أن عز الدين صاحب الموصل سيري إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زبدة، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبده، فلما وصلت من بغداد وأدبت جواب الرسالة أيس من نجده، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لذلك الأمر وجهاء الدين الربيب وفوض الي أمر النسخة، وقالوا: أمض ما يعصل جهدكم وطاقتكم إليه، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم أيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمنا احتراماً عظيماً، وجلس لنا، وكان

أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين أخذها من سنجرشاه وأعطاهما المواصلة، وحلفته يمينا تامة، وحلفت أخاه العادل، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه، وسرنا عنه، وهو بحران وقد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عرفة، ونحن في العسكر، وجلس العادل في العزاء، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان والأكراد، وقتل بينهم خلق عظيم، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة.

قال العماد: وأقام السلطان على نصبيين أياما قلائل، ثم رحل إلى حران فألقينا بها عصا النوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى، متواصلة الجوى، والفضل خائف من كساده، آسف على عتاده، مشفق من انخفاض قدره، وانقراض عصره، والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائي، ونضوب مائي، والدين يندب، والملك يصخب، والأيدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنيات بالاخلاص مشفوعة، والكفر في أراجيف، والقدر في تصارييف والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلما بان ضعفه، قوي على الله توكله، وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا، وهو يملئ علي في كل وقت وصاياه، ويفرق بقلممي على عفاته عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعدم الرجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه والقاصدون المرتجون جنني جنباه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهماء، ولانت لسماعها الصخرة الصماء، فسأل عن ذلك، فقبل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك، متأسفين على مانابك، فدعاني وأمرني بكتب أسائهم، وتفريق ما اجتمع في خزانته من المال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكنا نظن أن مابه من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السباحة راحه، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه، وكان خلقه أحسن ماكان في حال الصحة، يخاطبنا بسجاياه

السهلة السمحة، ولا يخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهة ونبيل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارة في أحكام شرعية ومسائل فقيهة، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد وشيخم الأبحاد، ودفمة في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب والاستعداد، وينذر أنه إن خلصه الله من نبوة هذه النبوة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوة، اشتغل بفتح البيت المقدس، ولو يبذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، وانجاز الموعد، قال: وربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لاشارة الأطباء لأجل التفريح والامتناع، ولقد كان ذلك المرض محيصا من الله للذنوب وتنزيها، وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيها.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السلطان، ووصوله إلى حران، بادر بالوصول، وصادف وقت القبول، وقام بضبط الأمور وسياسة الجمهور، والجلوس في كل يوم في النوبتية السلطانية لتولي مصالح الرعية، وإقامة وظيفة السباط، والعمل في كل يوم بالاحتياط، والتصدي لكشف المظالم، وبث المكارم، وتنفيذ ما يخرج من المراسم، ورقع كل خرق، ورتق كل فتق، وحفظ المهابة، والقيام عن السلطان في كل مهم يحسن النيابة، ولقد نفعا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من إرجاف يقوى، وانتشار خبر سوء لا يطوى، لاسيما إذا خرج الأطباء وقالوا: مافيه أمل، ولكل عمر أجل، فهناك ترى الناس يستشعرون، ويباعد ما يعز عليهم من أعلاقهم ودوابهم يستظهرون، فزال بحضور العادل كل مخافة، وسلم الله برأفته من كل آفة، وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه، مقتفيا لمراضيه، وكان من جملة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجي شفاؤه، إن أدركني الأجل المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعلي،

وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد ملياً، فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشام ومصر المعول، وأقام العادل إلى أن وضح المزاج، وصح المنهاج، وطابت القلوب، وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه إلى حلب وتم معه إلى حمص ودمشق، وهب له نسيم مصر فاستجد إلى نشره النشق، وسيأتي ذكر مضيه إلى مصر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصل الملك الأفضل من مصر بعده الملك المظفر تقي الدين.

قال العماد: وكانت صدقاته الراتبه دارة، وبالأبرار بارة، على أن جوده مستوعب للموجود، ولا يترك فضلاً للنفود، ولما مرض وعرض له من الألم ما عرض قال لي: أكتب إلى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية أن يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بما نص على قدره في التعيين، فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصالحات من الله لدعائه مجيب، فدفعت بالصدقة البلاء، ورفع بأصدق الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سناً منته السنيات، ومن جملة تلك الصدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت ما عنده غير دنانير مصرية، فقال يتصدق بها مصرية، خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف.

قال: ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سراقه وحمام، فبنيت في أربعة أو خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وأمه، فأسكنهم فيها مدة مقامه، وسماها دار العافية للبره فيها من سقامه، ثم أخلاها لمن ينزل بها ضيفاً، وجعلها للآوين إليها وقفاً، وبعدها اتصلت المواصله بين السلطان والمواصله، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصلي ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله، وقوم ماسبره إليهم ما يري على عشرة آلاف دينار

سوى الخيل والطيب والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا في النصرة الناصرية على ماسيأتي شرحه إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجذبت الملائكة والروح وامتحت باليسر العسرة، وصحت بحطين الكسرة، وخص الله السلطان، بفضيلة فتح القدس، وقضى حاجاته التي كانت في النفس، وسيأتي إن شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعته.

وكتب الفاضل من دمشق إلى تقي الدين بمصر: «ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها، وفاضت أنوارها وآثارها، وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها، وانجلي غبارها، وحمد شرارها، وما كانت إلا فلتة وقى الله شرها، وعظيمة كفى الاسلام أمرها، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ما عندها صبرها، وما كان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولا ليقف الإجابة وإن سدت طريقها الذنوب، ولا ليخلف وعد فرج وقد آيس الصاحب والمصحوب.

نعي زاد فيه الدهر ميا
فأصبح بعد بؤسائه نعيما
وما صدق النذير به لاني
رأيت الشمس تطلع والنجوم

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزيمة ماضية جديدة، والنشاط إلى الجهاد والجنة مبسوط البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سم الخياط».

ومن كتاب آخر: «الأحوال بالحضرة مستقيمة، والنعمة بالعافية عظيمة، والبقية الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمة، عرف وعرف

الناس شكرها، ولزم ولزموا قدرها، فسيوف الجهاد قد كادت تهتز في
أغمارها، وخيل الله قد كادت تنادي أهلها اركبي ليعاد طرادها،
والمسجد الاقصى مبشر تأنيسه بها استوحش منه من القرآن وتطهيره مما
استولى عليه من رجس الصليبان».

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصمية بدمشق في ذي القعدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، فلما توفي وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد، ونصرة الاسلام، تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة، وأحرمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، ولها أمر نافذ، ومعروف وصدقات، ورواتب للفقراء وادارات، بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا.

قلت: وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب قرب الحمام السركسي، والرباط خارج باب النصر راكب على نهر باناس في أول الشرف القبلي، وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغرب، فهو منسوب إلى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها، وهي زمرد بنت جاوي أخت الملك دقاق لأمه، وزوج زنكي والد نور الدين رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها، وكان السلطان حينئذ بحران في بحر المرض وبحرانه، وعنف الألم وعنفوانه، فما أخبرناه بوفااتها خوفا على تزايد علته، وتوقد غلته، وهو يستدعي في كل يوم درجا ويكتب إليها كتابا طويلا، ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكر حملا ثقيلا، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فنعت إليه الخاتون، وقد تعدت عنه اليهما المنون، وكانت وفاة ناصر الدين بجمص في تاسع ذي الحجة فجأة من غير مرض، وأجرى

السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ماكان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده.

قلت: وقبر الخاتون المذكور في التربة المنسوبة إليها بسفح جبل قاسيون قبلي المقبرة السركسية، وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته في مقبرتها بمدريستها بالعوينة، فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله، وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات.

وكتب الفاضل إلى تقي الدين: «ورد الخبر عشية يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة، انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله، بمرض حاد أعجل من لمح البصر، ومرد النظر، فإنا لله وإنا اليه راجعون، وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياء الله إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول فيه: وكتبته وقد صار في حفرتي، واستقر في قبره، فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلاع، والمعونة على ساعة هذا المصير، ونشكر الله ثم نشكره ونذكره بأحسن ما يذكره به من يذكره، إذ وقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية، وقدم قبلها من لايسره التقدم بين يديه، وجعل الله أنفسنا فداها فإن تلك نعمة علينا، كما هي نعمة عليه، ولا فرق الله لهذا البيت شملا، ولا قضب له حبلا، وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه، وامتنعه ببقاء عمه، وأعانه من مقابلة مقدور الله بهممه ودهمه، فليس إلا التسليم لما لا يستطيع الخلق له دفعا، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنا لانملك لها ضرا ولا نفعا، ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه، ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالإتهاء والإشعار، وسبق بما لايسره سبق به من هذه الأخبار».

قال العماد: وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكور سعد الدين مسعود بن أنر، ونحن قد فتحنا ميفارقين بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر ومن ذوي المآثر والمفاخر، ومارأيت أحسن منه خلقا، وأزكى عرقا، ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما، ولسفور فضائله ووفور فواضله، وجد شهامته، وحد صرامته، رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج أخته فزوجه بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده.

قلت: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستائة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا، وكان يحترمها الملوك من أولاد أخوتها وأولادهم ويزورونها، في دارها.

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه، ولما عدنا بعد فتح ميفارقين إلى الموصل طرقة البلاء في طريقه، قفز بحصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رجله، ثم عملت عليه قدمه، واشتد ألمه، وطال به سقمه، وانتقل إلى دمشق وتوفي بها في آخر هذه السنة، أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فجع الاسلام منه بدمر مشيخ لدمار الكفر متيح.

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا أرسلان، وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سحاق، قتلته ممالك مخدمه غيلة، وتمحلوا له في مباغتته بالقتل حيلة، وذلك أنه كان جالسا في ديوانه وایوانه متصدرا بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأمثال، فدخل عليه واحد منهم، وقال له: الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه إلى الأمير، وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه

ثم أخرجوا الصلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القتالين، وكانوا به واثقين.

قال: وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصللي، وكان المدرس بها، وكان علامة زمانه في علمه، ونسيج وحده في نظمه، وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب ما يستدل به على فضله، وإنه ممن عقم الدهر بمثله، واشتريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان.

قال: وفي هذه السنة رد السلطان قلعتي: الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ماحقق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار، ورغب في مصاهرة السلطان، وقلده طوق الامتنان.

قال: وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز، والملك الظاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين وخلا شبلة أسد الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصغر أولاده، واحتيج أيضا إلى الاحتياط على مافي خزائنه واستخراج دقائمه، وكذلك الخاتون خلفت أملاكها وتراثها، وأوقافا وأمتعة وأثاثا، لم يكن من الحركة بد، وقدم الكتب إلى البلاد بها صمم عليه عزمه، وأجرى به حكمه، وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والأنحاء وكتب إلى ولد ناصر الدين: «قد عرفنا المصائب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياء الله نعم الخلف الصالح، وإن انتقل والده إلى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعافل باقية عليه، مسلمة إليه، مقررة في يديه، ومامضى من والده رحمه الله إلا عينه وولدنا قرة العيون، وبه

استقرار السكون، والحمد لله الذي جبر به كسر المصاب والبسنا وإياه أثواب الثواب، فليشرح ولدنا صدره، ولا يشغل سره، ويعرف خواصه وأصحابه، وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما أنهم باقون على عادتهم»، وكان المندوب إليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، ولم يفارق الخدمة السلطانية في هذه السنة. قال: وفي هذه السنة لما كنا على ميافارقين، وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف إمامي ناصري بتفويض ولاية ماردين والحصن، وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف «الناصر لدين الله».

قلت: وفيها في جمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر ابن أحمد المديني الأصبهاني محدث مشهور له تصانيف كثيرة، وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد، محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصابوني، ودفن بسارية من القرافة ومولده ببغداد سنة خمسائة، وجد أبيه لأمه شيخ الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، فبه عرف بابن الصابوني، وكان جده صاحب السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي إليه، ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، واجتمع به ونزل إلى زيارته وسأله الإقامة بدمشق، فذكر له أن قصده زيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه بمصر، فجهزه وسيره صحبة الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار إلى ولده بمصر، وصار بينه وبينه صحبة أكيدة، ومحبة عظيمة، بحيث أنه ما كان يصبر عنه ساعة واحدة، وأقبل عليه، ولما ملك ولده الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود إلى الشام، ووقف عليه وقفا بالديار المصرية، وعلى عقبه وهو باق بأيديهم إلى الآن.

وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حقه إلى الملك العادل لما كان نائبه بمصر: «الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خاف

عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين - يعني الخبوشاني -

ما جرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لتقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا إليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء، والأخ الأجل الملك العادل يتقدم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسم مادة الشكوى منه ممن يتعدى عليه إن شاء الله تعالى».

وقرأت بخط الشيخ عمر الملاء الموصلي رحمه الله كتابا كتبه إلى ابن الصابوني هذا بشيراز يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملاء يقول فيه: «وبعد فالذي يتطلع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمور في هياطل الآلاء غير أن أيدي البلوى بالنقم ترفعني تارة إلى مقام الصديقين، وتضعني تارة أخرى إلى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لا يفتقر، والحركة في طلب الفوز لا تسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمنى، وما أشبه حالي بحال القائل:

أمل في يوممي إدراك المنى
حتى إذا ولي تمنيت غدا
لا وطرا أقضي من الدنيا ولا
أفعل للأخرى فعال السعدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا
ضلالة خالصة ولا هدى

يا أخى ما أخبرتك بأحوالى هذه إلا رجاء أن تتحرك همتك لى بالشفقة
والرأفة، فتدعو الله لى بقلب حاضر منور بنور الشفقة والرحمة، ويؤمن
على دعائك من حضر من السادة الأخوان، وتقول اللهم عبدك
الضعيف عمر بن محمد الملا يدعوك ويقول:
لاتهنى بعمداك رامك لى
فشديد عادة منقطعة

وقد توسل بنا إليك نسألك أن تبلغه آماله، وإن تميته موت الشهداء،
وتحشره فى زمرة السعداء، وأن تجعل خير عمره آخره ، وخير أعماله
خواتمها، وخير أيامه يوما يلقاك فيه».

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين

قال العماد: فرحل السلطان إلى الشام، وودع مظفر الدين صاحب حران من الفرات، ورحل صوب حلب والعاقل صاحبها على المقدمة، وقد هيا أسباب التكرمة، فوصل حلب في العشر الأوسط من المحرم، ثم رتب العادل في حلب نوابه، وصحب السلطان فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين لخارتكين، وهو صاحب بوقيس، وقد جمع النهضة والأمانة، وصل السلطان إلى حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جده ولقبه بلقبه، وكتب له منشورا بما قرر عليه من البلاد، وذلك بحمص وسلمية وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزليبا، وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه: « وهذا دأب السلطان في جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التي يبيعها الشرع، وهي الخراج والأجور والزرع » واعتمد على الأمير الحاج بدر الدين ابراهيم بن شروة الهكاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب واليا بها ست سنين ورتبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص.

قال: ورتب السلطان مع أسد الدين بحمص أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدم على أصحابه بتولي مصالح بابه، حتى تفرد الأسد بالأمر لسداده، وبلغ مدى رشاده، ونعت بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المجاهد.

قال: وأقمنا بحمص أياما حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين، وقسمنا ميراثه، وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهي

مستحقة للثمن، والباقي بين البنت والابن، وخلف عينا وورقا مجتمعا ومفترقا، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث ما عظم عن أن يقدر بمقداره، وأناف عن ألف ألف دينار، فما اعاره السلطان طرفه، بل تركه على أهل التركة.

قال: ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها، واجتمع بالمسار شملها، وطلعت أعيانها، ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعونها، وظهر مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا بثمراتها ومكرماتها سهولها وحزونها، ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة، وسكينة النعمى فارجة، ودمشق كالهدي مزفوفة، وبالهدي محفوفة، وبالحسن موصوفة، وكان الناس قد ساءهم خبر المرض، فسرهم عيان السلامة، وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا للشفاء كرى الكرامة، وما ألد الرجاء بعد الابلأس، والثرى غب الافلاس، والأمل عقيب اليأس، وإنهم ظفروا في حالة الايجاش بالايناس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادس الوسواس، واجتمع السلطان في القلعة بأهله، وأقلع المرجف عن جهله، وحسنت الأحوال، وأمنت الأهوال، وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وعدنا إلى عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبثه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخل جنته وجنى ثماره، وزاره مرة واستنزاه، وراجع في مصالح دولته واستشاره، وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم، وبث المكارم، وإحياء المعالم، وإقامة مواسم المراسم.

وقال القاضي ابن شداد: ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشرة نحو دمشق، فلقاه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة، وقرب

- ٨٤٦٨ -

زائدة، ومن عليه بحمص، وأقام أياما يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب
جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوما لم ير مثله
فرحا وسرورا.

المحتوى

وفاة شيركوه	٣-
رواية ابن أبي طي عن شاور	١٥-
مما مدح به نور الدين يملك مصر	٤٠-
قتل مؤتمن الخلافة، ووقعة السودان	٥٠-
سنة ٥٦٥	٥٧-
مراسله العاضد لنور الدين وبعض ما مدح به نور الدين وصلاح الدين	٦٠-
مسير نجم الدين أيوب الى مصر	٦٥-
ذكر الزلزلة الكبرى	٦٨-
غزى صاحب البيرة ووفاته صاحب الموصل	٧٤-
موقف نور الدين من أحداث الموصل	٧٨-
سنة ٥٦٦	٧٩-
التعريف بعمر الملاء ونشاطاته	٨٢-
وفاة الخليفة المستنجد	٨٦-
ماجرى بمصر هذه السنة	٨٩-
وفاته العاضد وتغيير الخطبة	٩٦-
موجز تاريخ الفاطميين	١١٢-
ذكر غزو الفرنج في هذه السنة	١١٩-
عزم نور الدين الدخول الى مصر	١٢١-
فصل في الحمام الهواي	١٢٣-
باقي حوادث هذه السنة	١٢٥-
سنة ٥٦٨	١٢٧-
جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة	١٢٩-
فتح بلاد التوبة	١٣٥-
وفاته نجم الدين أيوب	١٣٨-
مسير نور الدين الى الشمال	١٤٧-
العلاقات مع مليح بن لاون	١٥٣-
سنة ٥٦٩	١٥٦-
فتح اليمن	١٥٧-
نائب زبيد المبارك بن كامل المتقدي	١٦١-
وصول ابن القيسرائي الى مصر	١٦٤-
في طلب عمارة اليمن واصحابه	١٦٧-
التعريف بحال عمارة	١٨٠-
وفاته نور الدين	١٨٨-
جلوس الصالح بن نور الدين في الملك	١٩٧-
نزول الفرنج على بانيناس	٢٠١-

- ٨٤٧٠ -

قدوم كمشكين الى حلب	٢٠٢-
سنة ٥٧٠	٢٠٩-
نوبة الكنز	٢١٢-
توجه صلاح الدين الى دمشق	٢١٤-
ما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب	٢١٩-
محاولة اغتيال صلاح الدين	٢٢٢-
مراسله صلاح الدين الخلافة في بغداد	٢٢٨-
مراثي نور الدين	٢٣٦-
فتح بعلبك	٢٤٣-
ما جرى للمواصلة والحلبين مع السلطان	٢٤٦-
التحاق العماد الاصفهاني بخدمة صلاح الدين	٢٥٣-
ظهور رجل ادعى النبوة	٢٥٦-
سنة ٥٧١	٢٥٧-
ما تجدد للمواصلة والحلبين	٢٦١-
في فتح جملة من البلاد حول حلب	٢٧٠-
المحاولة الثانية لاغتيال صلاح الدين	٢٧٣-
باقي حوادث هذه السنة ودخول قراقوش المغرب	٢٧٧-
سنة ٥٧٢	٢٨٢-
في ذكر جماعة من الاعيان	٢٨٦-
زواج صلاح الدين من امرأة نور الدين	٢٩٠-
رجوع السلطان الى مصر	٢٩٣-
بيع الكتب وعمارة القلعة	٣٠١-
خروج السلطان الى الاسكندرية	٣٠٤-
سنة ٥٧٣	٣١١-
نوبة كسرة الرملة	٣١٦-
وفاة كمشكين وخروج السلطان من مصر	٣٢١-
ذكر اولاد السلطان	٣٢٦-
مقتل وزير الخليفة ببغداد	٣٣١-
سنة ٥٧٤	٣٣٤-
اسقاط السلطان مكوس مكة	٣٣٨-
حوادث متفرقة	٣٤٣-
في عمالة حصن بيت الاحزان	٣٤٥-
سفر القاضي الفاضل الى الحج	٣٤٧-
وقعة مرج عيون	٣٥١-
سنة ٥٧٥	٣٥٣-
تخريب حصن بيت الاحزان	٣٦٠-
باقي حوادث هذه السنة	٣٦٩-
سنة ٥٧٦	٣٧٥-
وفاة صاحب الموصل	٣٧٩-
وفاة شمس الدولة بن ايوب	٣٨٢

- ٨٤٧١ -

رجوع السلطان الى مصر ثانية	٢٨٥-
سنة ٥٧٧	٢٩٠-
وفاة الملك الصالح اسماعيل	٢٩١-
توجه السلطان الى الاسكندرية	٤٠٠-
أمور اليمن	٤٠٣-
باقي حوادث هذه السنة	٤٠٧-
عود السلطان الى الشام	٤١٠-
سنة ٥٧٨	٤١١-
مسير السلطان الى بلاد الشرق	٤١٥-
مكاتبة الملوك السلطان	٤٢٣-
وفاة فرخشاه	٤٢٦-
أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز	٤٣٢-
باقي حوادث هذه السنة	٤٣٨-
فتح آمد	٤٤١-
سنة ٥٧٩	٤٤٢-
فتح حلب	٤٥١-
ما جرى بعد فتح حلب	٤٦٢-
رجوع السلطان الى دمشق	٤٧١-
ولاية الملك العادل حلب	٤٧٦-
باقي حوادث هذه السنة	٤٨٢-
سنة ٥٨٠	٤٨٥-
وصول رسل الخلافة	٤٩٠-
المفاوضة بين مصر والشام	٤٩٣-
باقي حوادث هذه السنة	٤٩٩-
سنة ٥٨١	٥٠١-
ما فعله السلطان في أمر خلاط وميفارقين	٥٠٧-
انتظام الصلح مع أهل الموصل	٥١٠-
باقي حوادث هذه السنة	٥١٧-
سنة ٥٨٢	٥٢٤-